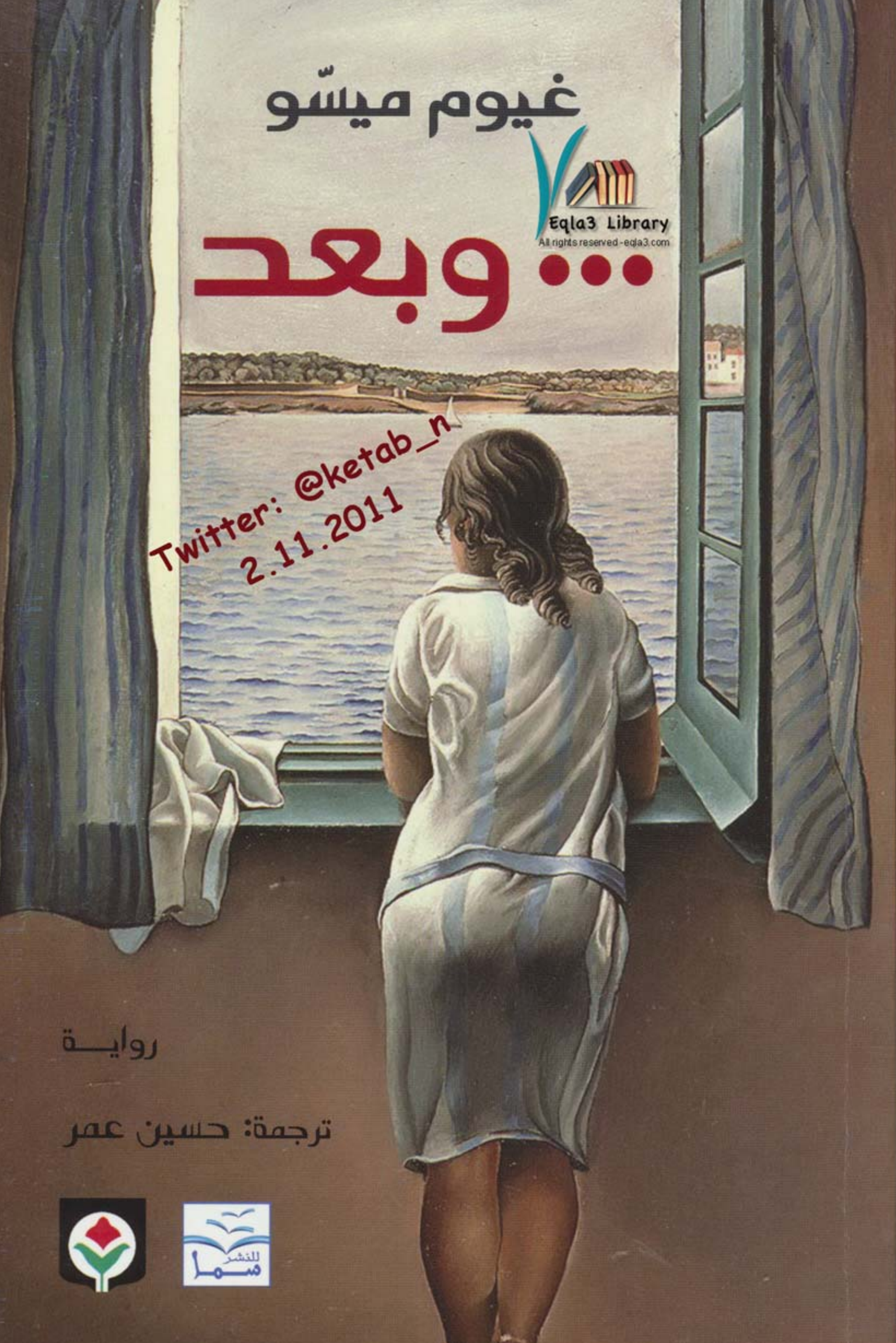

غيوم ميسّو
... وبعد
رواية
ترجمة: حسين عمر
للنشر
سما

غيوم موسو



وبعد...

رواية

ترجمة: حسين عمر

المركز الثقافي العربي

سما للنشر

العنوان الأصلي للرواية:
ET APRÈS
By: Guillaume Musso
Copyright XO Éditions 2003

الكتاب
وبعد...
تأليف
غيوم موسو
ترجمة
حسين عمر
الطبعة
الأولى، 2010
الترقيم الدولي:
ISBN: 978-9953-68-488-X

الناشر
المركز الثقافي العربي
الدار البيضاء ـ المغرب
ص.ب: 4006 (سيدنا)
42 الشارع الملكي (الأحباس)
هاتف: 522 303339 ـ 522 307651
فاكس: 305726 ـ 522 212+
Email: markaz@wanadoo.net.ma

بيروت ـ لبنان
ص.ب: 5158 ـ 113 الحمراء
شارع جاندارك ـ بناية المقدسي
هاتف: 01750507 ـ 01352826
فاكس: 01343701 ـ 961+
www.ccaedition.com
Email: cca@ccaedition.com

يُنشر هذا الكتاب بالاشتراك
مع سما للنشر

غيوم موسو

غيوم موسو، المولود عام 1974، والمولع بالأدب منذ طفولته، بدأ بالكتابة مذ كان طالباً. والنجاح الواسع لرواياته **ويعد**. . . (2004)، **أنقذني** (2005)، **هل ستحضرين؟** (2006)، **لأنني أحبّك** (2007) **وعدتُ أبحث عنك** (2008)، المترجمة إلى أكثر من خمس وعشرين لغة، جعل منه اليوم واحداً من الكتّاب الفرنسيين المفضّلين لدى جمهورٍ كبير. وقد تحوّلت أولى رواياته «وبعد» إلى فيلم سينمائي، عُرض على الشاشة في خريف 2008.

من أجل سوزي

تمهيد

جزيرة نانتوكيت

ماساشوسيتس

خريف 1972

كانت البحيرة تمتدّ إلى الشرق من الجزيرة، خلف المستنقعات المليئة بنباتات الماء والطحالب. كان الجوّ لطيفاً.

بعد بضعة أيام من البرد، استعاد الجوّ اعتداله وأرسلت مياه البحيرة الألوان المتموّجة للصيف الهندي.

- هيه، تعال انظر!

اقترب الصبيّ الصغير من حافة البحيرة ونظر بالاتجاه الذي أشارت إليه صديقته. كان طائرٌ كبير يسبح وسط النباتات. يضفي عليه ريشه الناصع البياض ومنقاره الأسود الفاحم، ورقبته الطويلة جدّاً، أناقة مهيبة.

إنّه إوزّ برّي.

حينما صار على مقربة بضع أمتارٍ من الطفلين، غطس الطائر رأسه ورقبته في الماء. ثمّ طفا على صفحة الماء وأطلق صرخةً طويلةً، عذبةً وشجيّة، مختلفة عن ثغاء الإوز ذات المناقير المصفرّة التي تزيّن الحدائق العامة.

- سأداعبه!

اقتربت الفتاة الصغيرة من الحافة كثيراً ومدّت يدها. فَزِعاً أفرد الطائر جناحيه في حركة مباغتة بحيث أفقدها توازنها. فهوت ببطء في الماء بينما حلّق الطائر يخفق بجناحيه العاصفين.

انقطعت أنفاسها في الحال من شدّة البرد، وكأنّ ملزمة تضغط على صدرها. بالنسبة لعمرها، كانت سبّاحة ماهرة. كان يحدث لها، على الشاطئ، أن تسبح أحياناً لمئات الأمتار. ولكنّ مياه البحيرة كانت شديدة البرودة، ومن الصعب بلوغ الضفّة. تخبّطت في المياه بشدّة ثمّ جنّ جنونها حينما أدركت أنّها لن تستطيع الصعود إلى حافة البحيرة. شعرت بأنّها صغيرة جدّاً وسط كلّ تلك المياه الشاسعة.

حينما رأى صديقته في موقفٍ صعب، لم يتردّد الصبي: خلع حذاءه وغطس بكامل لباسه.

- تمسّكي بي، لا تخافي.

اقتربت منه وتمكّنا، بجهد وتخبّط، من الاقتراب من الضفّة. غطس رأسه تحت الماء ورفعها بكلّ قواه، وبفضل مساعدته، نجحت في ارتقاء الحافة وهي في الرّمق الأخير.

حين راح يتسلّق بدوره، شعر بقواه تنهار، وكأنّ ذراعين قويتين كانتا تسحبانه إلى قاع البحيرة. شعر بالاختناق؛ أخذ قلبه يخفق بسرعة بينما كان ضغطٌ رهيب يشدّ على دماغه.

تخبّط حتى شعر أنّ رئتيه قد امتلأتا بالماء. ثمّ، وقد عجز عن مواجهة ذلك، استسلم وغَرِق في الماء. تفجّرت طبلتا أذنيه واسودّ كلّ شيء من حوله. وسط الظلمات الحالكة، أدرك أنّ تلك نهايته لا ريب.

لأنّه لم يعد هناك أيّ شيء. لا شيء سوى ذلك السواد البارد والمرعب.

سوادٌ.

سوادٌ.

ثمّ، فجأةً...

وميضٌ.

1

البعض يولدون عظاماً...

وآخرون يفوزون بالعظمة...

شكسبير

مانهاتن، في أيامنا هذه

9 ديسمبر

ككلّ صباح، استيقظ ناتان ديل آميكو على وقع رنينين متزامنين. كان يوقّت دائماً ساعتين منبّهتين: الأولى موصولة إلى التيار الكهربائي، والأخرى كانت تعمل بالبطاريات. وكانت مالوري ترى ذلك مضحكاً.

بعد أن تناول نصف طبقٍ من الكورن فليكس، ارتدى سترة رياضية وانتعل حذاءً بالياً من ماركة ريبوك، وخرج إلى رياضة المشي التي يمارسها يومياً.

عكست له مرآة المصعد صورة رجلٍ لا يزال شاباً، ذي جسم ممشوقٍ ولكن وجهٍ متعَب.

أنت في أمسّ الحاجة إلى العطلة، يا صغيري ناتان، راودته الفكرة وهو يعاين عن كثبٍ الظلال الرفيعة المائلة للزرقة التي كانت تظهر أسفل عينيه خلال الليل.

رفع سحاب سترته من ماركة ايكلير حتى رقبته ثمّ ارتدى قفازين من الفرو واعتمر قبّعة صوف على صورة اليانكيين.

كان ناتان يقيم في الطابق الثالث والعشرين من مبنى سان ريمو، إحدى العمارات الباذخة في يوبر ويست سايد التي كانت تطلّ مباشرةً على سنترال بارك ويست. ما إن أطلّ بأنفه على الخارج، حتى تسرّب بخارٌ أبيض وبارد من بين شفتيه. كان الوقت لا يزال ليلاً تقريباً، وبالكاد بدأت العمارات السكنية المحاذية للشارع تظهر من بين الضباب. عشية ذلك اليوم، أعلنت النشرة الجوية عن طقسٍ ثلجي، ولكن لم يتساقط أيّ شيء بعد.

سار في الشارع بخطوات صغيرة. في كلّ مكان، كانت أضواء أعياد الميلاد وأكاليل الصنوبريات المعلّقة إلى مداخل العمارات تمنح الحيّ مظهراً احتفالياً. مرّ ناتان أمام متحف التاريخ الطبيعي، وبعد أن ركض حوالى مئة متر دخل إلى سنترال بارك.

في تلك الساعة من النهار ونظراً للطقس البارد، لم يكن في المكان إلاّ القليل من الناس. كانت ريحٌ جليدية قادمة من هادسون تكتسح حلبة الركض الفردي حول الريزيرفوار، البحيرة الاصطناعية الممتدة وسط الحديقة.

حتى وإن كان يُنصَح بعدم المغامرة على تلك الحلبة قبل طلوع النهار تماماً، دلف ناتان إليها من غير خوف. كان يركض هنا منذ سنوات عديدة ولم يحصل له قطّ ما يزعجه. فرض ناتان على نفسه إيقاعاً ثابتاً في الجري. كان الهواء قارصاً، ولكن ما كان ليتخلّى عن ساعته اليومية من الرياضة لأيّ سببٍ في الدنيا.

بعد ثلاثة أرباع الساعة من الجهود المبذولة، توقّف بمحاذاة ترافيرس رود وشرب باستفاضة قبل أن يجلس لبرهةٍ على المرج.

هناك، فكّر في الشتاءات المعتدلة لكاليفورنيا، وفكّر في ساحل سان دييغو حيث عشرات الكيلومترات من الشواطئ المثالية لرياضة

الجري. للحظة، استسلم لذكرى قهقهات ابنته بوني التي غزت ذاكرته.

كان في أشدّ الشوق إليها.

وعبر أيضاً في ذهنه وجه زوجته مالوري وعيناها الواسعتان كمحيطٍ ولكنه أرغم نفسه على ألاّ يطيل المكوث هناك.

كفّ عن تحريك السكين في الجرح.

مع ذلك، ظلّ جالساً على العشب الأخضر، لا يزال مسكوناً بذلك الفراغ الشاسع الذي يشعر به مذ رحلت. فراغٌ كان ينهشه من الداخل منذ شهورٍ عديدة.

لم يراوده شكٌ أبداً أنّ الألم قد يكون على هذا النحو.

كان يشعر بأنّه وحيدٌ وبائس. للحظة قصيرة، دفّأت الدموع عينيه قبل أن تمسحها الريح الصقيعية.

شرب جرعة إضافية من الماء. منذ أن استيقظ، شعر بوخزٍ غريبٍ في صدره، شبيهٍ إلى حدٍّ ما بذات الجنب كان يعيق تنفّسه.

بدأت أولى نُدَف الثلج تتساقط. فنهض وعاد إلى سان ريمو مسرعاً ليتسنّى له الاستحمام قبل الذهاب إلى عمله.

صفق ناتان باب سيارة الأجرة. كان يرتدي بزّة غامقة، قد حلق ذقنه حديثاً. دلف إلى البرج الزجاجي الذي يضمّ مكاتب المحاماة ماربل أند مارش في زاوية جادة بارك وشارع 52.

من بين كلّ مكاتب أعمال المحاماة في المدينة، كان مكتب ماربل الأكثر شهرة ونجاحاً. كان يستخدم أكثر من تسعمائة موظّف عبر الولايات المتحدة نصفهم تقريباً في نيويورك.

بدأ ناتان العمل في مقرّ سان دييغو، حيث ذاع صيته سريعاً جدّاً

في المؤسسة، إلى درجة أنّ آشلي جوردان، الشريك الرئيسي، رشّحه كشريك. كان مكتب نيويورك آنذاك في غمرة النمو، وكان على ناتان وهو في الحادية والثلاثين من عمره أن يجمع أمتعته ليعود إلى المدينة التي كبر وترعرع فيها، والتي ينتظره فيها منصبه الجديد كمدير مساعد لدائرة الاندماجات- المشتريات.

وهي نقلة استثنائية في عمره.

حقّق ناتان طموحه: أن يصبح أحد أشهر المحامين، وأحد الذين يتم الاعتراف بجدارتهم وتميّزهم في المهنة على نحو مبكر وقبل الأوان. لقد نجح في الحياة. ليس باستثمار المال في البورصة أو باستغلال الروابط العائلية. كلاّ، لقد كسب المال من عمله، بالدفاع عن الأفراد والشركات، وباحترام القوانين.

لامعاً وثرياً وفخوراً بنفسه.

كان ذلك هو ناتان ديل آميكو

منظوراً إليه من الخارج.

قضى ناتان فترة الصباح كلّها في لقاء مساعديه الذين وزّع عليهم العمل، للإشراف على الملفّات قيد الدراسة. حوالي الظهيرة، جلبت له آبي فنجاناً من القهوة وبعض الحلوى بالسمسم وجبناً بالقشدة.

كانت آبي مساعدته منذ سنوات عديدة. وقد وافقت، وهي من كاليفورنيا، على أن تلحق به إلى نيويورك بسبب تفاهمهما الممتاز. كانت، وهي عزباء، تتقن عملها وتحظى بكامل ثقة ناتان الذي لم يتردّد قط في إسناد المسؤوليات إليها. يجب القول إنّ آبي كانت تمتلك كفاءة في العمل قلّ مثيلها أتاحت لها أن تتابع - بل وتسرّع - الإيقاع المفروض من قبل رئيسها، وكان عليها في سبيل ذلك أن تعبّ خفية عصير فاكهة مطعّم بالفيتامينات والكافيين.

ولأنّه لم يكن لدى ناتان موعدٌ في الساعة التالية، استغلّ ذلك ليحلّ عقدة ربطة عنقه. كان ذلك الألم في الصدر يتواصل باستمرار. مسّد صدغيه ورشّ وجهه بقليلٍ من الماء البارد.

كفّ عن التفكير بمالوري.

- ناتان؟

جاءت آبي ودخلت إلى المكتب من دون أن تقرع الباب كما هي عادتها حينما يكونا وحدهما. أطلعته المرأة الشابّة على برنامجه لفترة ما بعد الظهيرة، ثمّ أضافت:

- اتّصل صديقٌ لآشلي جوردان في الصباح، وأراد موعداً عاجلاً. شخصٌ اسمه غاريت غودريش. . .

- غودريش؟ لم أسمعه قط يتحدّث عنه.

- أعتقد أنّه أحد أصدقاء طفولته، طبيبٌ مشهور.

- وما المطلوب مني لغودريش هذا؟ سأل مقطّباً حاجبيه.

- لا أدري، لم يحدّد شيئاً. قال فقط إنّ جوردان قد أخبره بأنّك المحامي الأفضل.

وهذا صحيح: لم أخسر أيّ قضية طوال مهنتي. ولا حتى قضية واحدة.

- حاولي أن تذكّريني يا آشلي، من فضلك.

- غادر إلى بالتيمور منذ ساعة. أنت تدري، الملفّ كيل. . .

- آه! نعم، بالضبط. . . في أيّة ساعة سيأتي غودريش هذا؟

- اقترحتُ عليه المجيء في الخامسة بعد الظهر.

بعد أن غادرت الغرفة عادت ومرّرت رأسها في فرجة الباب.

- لا بدّ أن يكون ذلك من أجل حيلة للملاحقات الدوائية، قالت غير واثقة.

- من دون شكّ، أيّد كلامها مستغرقاً في ملفّاته. إذا كان الأمر كذلك فسوف نرسله إلى مديرية الطابق الرابع.

وصل غودريش قبل الساعة الخامسة بقليل. أدخلته آبي إلى المكتب من دون أن تجعله ينتظر.

كان رجلاً بادي الشباب، طويل القامة، قويّ البنية، وأبرز معطفه الطويل وبزّته الرمادية الداكنة قامته الطويلة على نحوٍ أكثر. تقدّم في المكتب واثق الخطوة. منتصباً وسط القاعة بثبات، أضفى عليه عرض منكبيه كمنكبي مصارع حضوراً قويّاً.

وبحركة واسعة من يده، طوى معطفه قبل أن يمدّه إلى آبي. مرّر أصابعه عبر شعره الكستنائيّ الذي خطّه الشيب - لا شكّ أنّه كان قد بلغ الستين ولكن لم يكن شعره قد تساقط- ثمّ داعب ببطء لحيته القصيرة، محدّقاً بعينيه المتّقدتين والثاقبتين في عينيّ المحامي.

عندما لاقت نظرة غودريش نظرته، شعر ناتان بالضيق. تسارع تنفّسه على نحوٍ غريب وتشوّشت أفكاره لبرهةٍ.

2

أرى رسولاً منتصباً وسط الشمس.

سفر الرؤيا، XIX، 17

- هل تشعر بأنّك بخير، يا سيد ديل آميكو؟

تبّاً، ماذا دهاني؟

- نعم، نعم... إنّه مجرّد دُوار، أجاب ناتان، عائداً إلى رشده. قليلٌ من الإرهاق لا شكّ...

لم يبدُ على غودريش الاقتناع.

- أنا طبيب، إن أردتَ أن أعاينك، فسأفعل ذلك بطيبة خاطر، اقترح بصوتٍ رنّان.

تكلّف ناتان الابتسام

- شكراً، أنا بخير.

- حقّاً؟

- أؤكّد لك.

من دون أن ينتظر دعوته، جلس غودريش في أريكة جلدية وتفحّص بتأنٍّ زينة المكتب. كانت القاعة مفروشة برفوف الكتب القديمة وفي وسطها مكتبٌ مهيب محاط بطاولة اجتماعات مصنوعة من خشب الجوز المصمت، وبأريكة صغيرة أنيقة كانتا تضفيان جوّاً فاخراً.

- إذاً، ماذا تطلب منّي، يا دكتور غودريش؟ سأل ناتان بعد برهة من الصمت.

لفّ الطبيب ساقاً على ساق وتأرجح على نحوٍ خفيف في أريكته قبل أن يجيب:

- لا أطلب شيئاً منك، يا ناتان... تسمح لي أن أناديك ناتان، أليس كذلك؟

كانت نبرته مليئة بالتأكيد أكثر منها بالسؤال.

لم يستسلم المحامي للارتباك:

- لقد جئتَ لمقابلتي بصفة مهنية، أليس كذلك؟ مكتبنا يدافع عن بعض الأطباء الملاحقين قضائياً من قبل مرضاهم...

- ليست هذه حالتي، لحسن حظيّ الشديد، قاطعه غودريش. أتجنّب إجراء العمليات الجراحية حينما أفرط في الشراب. من الحماقة بتر الساق اليسرى حينما تكون اليمنى هي المتألّمة، أليس كذلك؟

تكلّف ناتان الابتسام.

- إذاً، ما هي مشكلتك، يا دكتور غودريش؟

- حسناً، لدي بضعة كيلوغرامات زائدة ولكن...

- ... هذا لا يحتاج إلى خدمات محامي قضايا، ستوافقني الرأي في ذلك.

هذا الشخص يعتبرني غبياً.

حلّ صمتٌ ثقيل في الغرفة مع أنّه لم يسدها توتّرٌ شديد. لم يكن ناتان سهل الانفعال. جعلت خبرته المهنية منه محاوراً متمكّناً وكان من الصعب إخراجه عن هدوئه أثناء نقاشٍ. حدّق في محدّثه. أين رأى من قبل هذا الجبين الواسع والمرفوع، هذا الفكّ القويّ، هذين الحاجبين الكثّين والمتقاربين؟ لم يكن هناك أيّ أثرٍ لعدوانية في عيني غودريش ولكن ذلك لم يمنع المحامي من الإحساس بأنّه مهدّد.

- أترغب في شرب شيءٍ ما؟ اقترح بصوتٍ تظاهر بالهدوء.
- بطيبة خاطر، كأساً من سان بيليغرينو، إذا أمكن.
- يمكننا العثور على هذا، أكّد وهو يرفع سماعة هاتفه ليتّصل بآبي.
بانتظار مشروبه المرطّب، نهض غودريش من مقعده وجال ببصره على رفوف المكتبة.
هذا هو، تصرّف وكأنك في بيتك، فكّر ناتان، منزعجاً.
عند عودته إلى مقعده، نظر الطبيب ملياً إلى ثقّالة ورق، وتمثال إوزٍّ من الفضّة، على الطاولة أمامه.
- يمكن قتل رجلٍ بشيءٍ كهذا، قال وهو يرفعها بيده ملاحظاً وزنها.
- لا شكّ في ذلك، وافق ناتان مع ابتسامة منقبضة.
- نجد الكثير من الإوزّ في النصوص السلتية القديمة، أبدى غودريش ملاحظة وكأنّه يكلم نفسه.
- هل تهتمّ بالثقافة السلتية؟
- عائلة أمّي من أصلٍ إيرلنديّ.
- وعائلة زوجتي أيضاً.
- تقصد زوجتك السابقة.
صعق ناتان محدّثه بالنظر.
- أخبرتني آشلي بأنكما قد انفصلتما، شرح غودريش بهدوء وهو يدير أريكته المحشوة المريحة.
هذا سيعلّمك أن لا تروي حياتك لهذا المغفّل.
- في النصوص السلتية، استأنف غودريش، كائنات العالم الآخر التي تدخل تحت الأرض تستعير غالباً شكل إوزٍّ.

- هذه فكرة شاعرية جدّاً، ولكن هل يمكنك أن تشرح لي ما. . .

في هذه اللحظة، دخلت آبي إلى القاعة مع صينية عليها زجاجة وكوبان كبيران من الماء المغلي.

وضع الطبيب ثقّالة الورق وشرب بهدوء كلّ محتوى كوبه - وكأنّه يستلذّ بكلّ جرعة منه.

- هل جُرِحت؟ سأل وهو يشير إلى خدشٍ على اليد اليسرى للمحامي.

هزّ هذا الأخير كتفيه.

- إنه أمر بسيط جدّاً: خدشٌ بسورٍ خلال ممارستي لرياضة المشي.

وضع غودريش كوبه وأخذ يتحدّث بلهجة متحذلقة.

- في هذه اللحظة التي تتحدّث فيها، تتجدّد المئات من خلايا جلدك. حينما تموت خلية، تنقسم أخرى لتحلّ محلّها: إنّها ظاهرة اتزان التجانس النسيجي.

- يبهجني أن أعرف ذلك.

- بالتوازي مع ذلك، العديد من الخلايا العصبية لدماغك تُتلَف كلّ يوم وذلك مذ بلغت العشرين من العمر. . .

- أعتقد أنّ هذا نصيب كلّ الكائنات البشرية.

- بالضبط، إنّه التوازن الدائم بين الخلق والدمار.

هذا الشخص أبله.

- لماذا تخبرني بذلك؟

- لأنّ الموت في كلّ مكان. في كلّ كائن حيّ، في كلّ مراحل حياته، هناك توتّر بين قوّتين متعاكستين: قوى الحياة وقوى الموت.

نهض ناتان وأشار إلى باب مكتبه.

- هلاّ سمحت؟

- من فضلك.

خرج من القاعة وتوجّه نحو أحد المكاتب الشاغرة في قاعة أمناء السرّ. دخل سريعاً إلى شبكة الإنترنت وفتح مواقع مستشفيات نيويورك.

لم يكن الرجل الجالس في مكتبه محتالاً. لم يكن مبشراً ولا مريضاً عقلياً هارباً من مصحّ. كان اسمه حقّاً غاريت غودريش، وهو دكتور في جراحة الأورام السرطانية، وطبيبٌ معاونٌ سابق في مستشفى الأمراض العامة في بوسطن وطبيب ملحق في مستشفى ستاتين آيسلاند ورئيس وحدة العناية المسكّنة في هذا المستشفى.

كان ذلك الرجل شخصية هامّة، قطبٌ حقيقي في عالم الطبّ. ليس هناك من مجالٍ لأيّ شك: كانت هناك حتى صورته وهي مطابقة للوجه النظيف للرجل الستيني الذي ينتظره في القاعة المجاورة.

تفحّص ناتان بدقّة أكثر في السيرة الشخصية لضيفه: حسب علمه، لم يكن قد زار قط أحد المستشفيات التي كانت تحدّد مهنة الدكتور غاريت غودريش، لماذا إذاً لم يكن شكله غريباً عليه؟

مع هذا السؤال الذي كان يعتمل في ذهنه عاد إلى مكتبه.

- إذاً، يا غاريت، كنت تحدّثني عن الموت، أليس كذلك؟ تسمح لي أن أناديك غاريت، أليس كذلك؟

- بل كنتُ أحدّثك عن الحياة، يا ديل آميكو، عن الحياة وعن الزمن الذي انقضى.

استغلّ ناتان هذه الكلمات ليلقي علانيةً نظرة على ساعته، وهي طريقة لإفهامه أنّ «الوقت كان يمرّ» فعلاً، وأنّ وقته ثمين.

- أنت تعمل كثيراً، اكتفى غودريش بالقول.

- أنا أتأثّر كثيراً لاهتمام أحدٍ ما بصحّتي.

من جديد، ساد ذلك الصمت بينهما. صمتٌ حميميّ وثقيل في آنٍ واحد. ثمّ تصاعد التوتّر:

- للمرّة الأخيرة، بماذا يمكنني أن أفيدك، يا سيد غودريش؟

- أعتقد أنّني أنا مَن يمكنه أن يفيدك، يا ناتان.

_ في هذه اللحظة، لا أرى تماماً في أيّ شيء قد تفيدني.

- سيحين الوقت، يا ناتان، سيحين الوقت. بعض المحن قد تكون عصيبة، سوف ترى.

- إلى ماذا تلمّح بالضبط؟

- إلى ضرورة أن يستعدّ المرء جيداً.

- أنا لا ألاحقك.

- مَن يدري ما الذي قد يحدث في الغد؟ لنا كلّ المصلحة في ألاّ نخطئ أولوياتنا في الحياة.

- هذه فكرة عميقة جدّاً، سخر المحامي. هل هذا نوعٌ من التهديد؟

- ليس تهديداً، يا ناتان، إنّها رسالة.

رسالة؟

لم تكن هناك عدوانية في نظرة غودريش ولكن ذلك لم يجعله أقلّ قلقاً.

اطرده خارجاً، يا نات. هذا الشخص يتلفّظ بحماقات. لا تدخل في لعبته.

- ربّما ما كان عليّ أن أخبرك بذلك، ولكن لو لم يكن آشلي جوردان قد أوصى بك لطلبت الأمن وأمرت برميك خارجاً.

- أشكّ في ذلك، ابتسم غودريش. لعلمك، أنا لا أعرف آشلي جوردان.

- كنتُ أعتقد أنّه أحد أصدقائك!

- بل لم يكن سوى وسيلة للوصول إليك.

- انتظر، إذا كنت لا تعرف جوردان، مَنْ أخبرك بأنّني مطلّق؟

- إنّه مكتوبٌ على وجهك.

طفح الكيل... نهض المحامي بقفزة واحدة وفتح الباب بعنفٍ شديد.

- لدي عمل!

- أنت لا تصدّق إن صحّ القول ولهذا سأدعك وشأنك... الآن.

غادر غودريش مقعده. ارتسم خياله الواسع بعكس الضوء، فبدا غودريش مثل جبّارٍ قصيرٍ وسمينٍ خالدٍ. توجّه صوب الباب واجتاز عتبة المكتب من دون أن يلتفت إلى الوراء.

- ولكن ماذا تريد منّي حقّاً؟ سأل ناتان بنبرةٍ مضطربة.

- أعتقد أنّك تعرف ذلك، يا ناتان، أعتقد أنّك تعرف ذلك، قال غودريش، وقد صار في الممرّ.

- لا أعرف شيئاً! قال المحامي بعنف.

صفق باب مكتبه، ثمّ فتحه ثانية ليصرخ في الممرّ:

- لا أدري مَنْ تكون!

لكن غاريت غودريش كان قد ابتعد.

3

إنّ مهنة ناجحة لأمرٌ مذهل، ولكننا لا نستطيع
أن نتغطّى بها في الليل حينما نشعر بالبرد.

مارلين مونرو

بعد أن دفع الباب من ورائه، أغمض ناتان عينيه وشدّ، لثوانٍ عديدة، كوباً مليئاً بالماء البارد إلى جبينه. أحسّ على نحوٍ غامضٍ بأنّ هذه الحادثة لن تبقى من دون تبعات وبأنّه لا يزال يسمع الحديث عن غاريت غودريش.

شقّ عليه أن يستأنف عمله. كان وهج الحرارة التي غمرته والألم المتزايد الشدّة لصدره يمنعانه من التركيز.

نهض من مقعده وكوب الماء في يده، وخطى بضع خطوات باتجاه النافذة لينظر إلى انعكاسات مبنى هيلمسي المزرقّة. إلى جانب واجهة ميت لايف الضخمة الكئيبة، كانت ناطحة السحاب الشبيهة بالقوام البشري تمتدّ كجوهرةٍ حقيقية ببرجها الأنيق الذي يعلوه سقفٌ على شكل هرمٍ.

تأمّل لبضع دقائق حركة السير وهي تسير نحو الجنوب عبر مدارج البوابتين العملاقتين اللتين تجتازان الجادة.

كان الثلج يستمر في التساقط من دون توقّف، مضفياً على المدينة تلوينات متداخلة من الأبيض والرمادي.

كان لا يزال يشعر بتعكّر في المزاج عند إطلاله من تلك النافذة. أثناء هجمات 11 أيلول، كان يعمل على حاسوبه حينما وقع الانفجار الأوّل. لن ينسى أبداً ذلك اليوم المريع والمخيف، تلك الأعمدة من الدخان التي لوّثت السماء الصافية في ذلك الحين، ثمّ تلك الغيمة الفظيعة من الأنقاض والغبار حينما انهار البرجان. للمرّة الأولى، بدت له مانهاتن وناطحات سحابها صغيرة وضعيفة وزائلة.

مثل غالبية زملائه، كان يحاول ألاّ يستعيد كثيراً الكابوس الذي عاشوه آنذاك. كانت الحياة قد عادت لمجراها. *Business as usual*. مع ذلك، كما كان الناس يقولون هنا، لم تكن نيويورك قد عادت حقّاً نيويورك.

حتماً، لن أنجح في ذلك.

سحب بعض الملفّات ورتّبها في حقيبته، ثمّ وسط دهشة آبي الكبيرة، قرّر أن يذهب ويكمل دراسة هذه الملفّات في بيته.

كان قد مرّ أمدٌ طويلٌ جدّاً لم يغادر فيه مكتبه باكراً. عادةً، كان يقضي ما يقارب أربع عشرة ساعة من العمل يومياً، لستّة أيام في الأسبوع، ومنذ طلاقه، كان غالباً ما يأتي إلى المكتب يوم الأحد أيضاً. من بين كلّ الشركاء، كان هو الذي يقضي أكبر عددٍ من الساعات في المكتب. ولا بدّ أن يُضاف إلى ذلك سحر عمله الحاسم الأخير: في حين بدا للجميع أنّ المهمّة حسّاسة، نجح في تحقيق الاندماج الذائع جدّاً لمشروعي Downey وNew Wax، الأمر الذي جعله يستحقّ مقالة مديحية في *National Lawyer*، إحدى أشهر صحف المهنة. كان ناتان يغيظ معظم زملائه. كان نموذجياً للغاية، ممتازاً للغاية. غير سعيدٍ بتمتّعه بجسدٍ لائق، لم يكن ينسى قط أن يلقي تحية الصباح على أمناء السرّ، وأن يشكر البواب الذي يطلب له سيارة وأن يخصّص بضع ساعات شهرياً مجّاناً لبعض الزبائن الفقراء.

أراحه هواء الشارع المنعش. عندما خرج كان قد خفّ تساقط الثلج، لم يتواصل الهطول بما يكفي لإرباك حركة السير. وهو ينتظر سيارة أجرة، استمع إلى جوقة أطفالٍ كانوا يرتدون قمصاناً نظيفة وناصعة البياض وهم يغنّون Ave verum corpus، أمام كنيسة القديس بارتولوميو. لم يستطع الامتناع عن إيجاد شيءٍ ما عذبٍ ومقلقٍ في آنٍ واحدٍ في تلك الموسيقى.

وصل إلى سان ريمو في تمام الساعة السادسة مساءً، وأعدّ لنفسه كوباً من الشاي الساخن جدّاً وأمسك بهاتفه.

مع أنّ الساعة في سان دييغو ليست إلاّ الثالثة بعد الظهر، كان من المحتمل أن تكون بوني ومالوري في البيت. كان عليه أن يدقّق في تفاصيل وصول ابنته التي ستلحق به خلال بضعة أيام بمناسبة العطلة القادمة. طلب رقم الهاتف بتخوّف. ردّ المجيب الآلي بعد ثلاث رنّات.

«أنتم تتّصلون بمنزل مالوري ويكسلر، لا يمكنني الردّ عليكم الآن، ولكن...»

أراحه سماع صوتها. وكأنّه قد تلقى جرعة من الأوكسجين كان قد حُرِم منها لزمنٍ طويل. كان ذلك ما تبقّى له، وهو الذي لم يكن معتاداً على أن يكتفي بالقليل.

فجأةً، انقطعت رسالة الترحيب.

- ألو؟

بذل ناتان جهداً يفوق طاقة البشر لكي يتظاهر بالمرح، متّخذاً بذلك ردّ فعله القديم والأرعن: ألاّ يُظهر أبداً بشكلٍ خاصّ نقاط ضعفه، لا سيما أمام امرأة تعرفه منذ الصغر.

- مرحباً، مالوري.

منذ متى لم يعد يناديها حبيبتي.

- صباح الخير، ردّت بفتور.

- هلّ كلّ شيء على ما يرام؟

تحدّثت بلهجة جافّة:

- ماذا تريد، يا ناتان؟

- كنتُ أتّصل فقط لنتّفق على سفر بوني. أهي معكِ؟

- إنّها في درس الكمان. سوف تعود بعد ساعة.

- ربّما بوسعك أن تعطيني موعد إقلاع طائرتها، أعتقد أنّ طائرتها ستصل في أوّل المساء...

- سوف تعود بعد ساعة، كرّرت مالوري، مستعجلة لتنهي تلك المكالمة.

- ممتاز، حسناً، إلى اللق...

لكنها كانت قد أغلقت السماعة.

لم يفكّر قط أنّ أحاديثهما ستصل ذات يوم إلى هذه الدرجة من الجفاء. كيف أمكن لشخصين كانا مقرَّبين جدّاً أن يصلا إلى درجة التصرُّف مع بعضهما كغريبين حقيقيين؟ كيف أمكن ذلك؟ جلس في أريكة الصالون وترك نظرته تشرد على السقف. أيّ ساذج كان! بالطبع كان ذلك ممكناً! كان عليه فقط أن ينظر من حوله: حالات الطلاق، الخيانات، الضجر... في مهنته، كانت المنافسة شديدة لا تعرف الشفقة. وحدهم مَنْ كانوا يضحّون بجزءٍ من حياتهم العائلية ومن أوقات فراغهم كانوا يأملون النجاح. كان كلٌّ واحد من زبائن المكتب يتحدّث بعشرات ملايين الدولارات، الأمر الذي كان يتطلّب تفرّغاً تامّاً من قبل المحامين. ذلك هو قانون اللعبة، الثمن المطلوب دفعه للارتقاء وسط حاشية الكبار. وقد قبِل ناتان بذلك. ولقاء ذلك، كان

راتبه يبلغ الآن 45 ألف دولار شهرياً، عدا التعويضات العينية. وذلك يعني أيضاً بصفته شريكاً أنّه كان يقبض إضافات سنوية تقارب نصف مليون دولار. وكان حسابه في البنك قد تجاوز، لأوّل مرّة، عتبة المليون. ولم تكن تلك سوى بداية.

ولكنّ حياته الخاصة سلكت المسار المعاكس لمسار نجاحه المهني. فقد تفكّكت حياته الزوجية في السنوات الأخيرة، وتحوّل المكتب ليصبح كلّ حياته. إلى درجة أنّه لم يعد يجد الوقت لتناول وجبات الفطور مع العائلة أو لمراجعة وظائف ابنته. وحينما تحقّق من فداحة الأضرار كان الأوان قد فات على العودة إلى الوراء ووقع الطلاق منذ بضعة أشهر. بالتأكيد، لم يكن الوحيد في تلك الحالة - في المكتب، كان نصف زملائه قد انفصلوا أيضاً عن زوجاتهم- ولكن لم يكن ذلك عزاءً له.

أظهر ناتان اهتماماً كبيراً ببوني التي عاشت حياة مضطربة بسبب تلك الأحداث. في السابعة من عمرها، كانت لا تزال تبلّل أحياناً سريرها، وتعرّضت، حسبما تقول أمّها، للعديد من نوبات القلق النفسي. كان ناتان يتّصل بها كلّ مساء، ولكنّه أراد أن يكون أكثر حضوراً في حياتها.

كلا، فكّر وهو يجلس في الأريكة، إنّ رجلاً ينام من دون أن يكون إلى جانبه شخص ولم يرَ ابنته الصغيرة منذ ثلاثة أشهر، لم ينجح في حياته، وإن كان مليونيراً.

سحب ناتان من إصبعه خاتم الزواج الذي ظلّ يلبسه وقرأ في داخله مقطع نشيد الأناشيد الذي كانت مالوري نقشته له بمناسبة زواجهما:

حبّنا محتومٌ مثل الموت

كان يعرف ما تقوله تتمّة القصيدة:

لن تجيد المحيطات إطفاءه

ولن تغمره الأنهار

كلّ هذا عبارة عن بلاهات! سذاجة عشّاق مبتدئين. ليس الحب ذلك الشيء المطلق الذي يقاوم الزمن والمِحَن.

مع ذلك، ولزمنٍ طويل، كان قد اعتقد بأنّ حياته الزوجية تتمتّع بشيءٍ استثنائيّ، ببعدٍ سحريٍّ ولامعقول ترسّخ منذ الطفولة. مالوري وهو تعارفا مذ كانا في السادسة من عمرهما. ومنذ البداية، نُسِج نوعٌ من خيطٍ لامرئي بينهما وكأنّ القدر قد شاء أن يجعل منهما زوجين طبيعيين أمام مصاعب الحياة.

نظر إلى الإطارات الموضوعة على الخزانة والتي كانت تحفظ صور زوجته السابقة. أطال النظر لعدّة دقائق في الصورة الأحدث التي حصل عليها بفضل تواطؤ بوني.

لا شكّ أن شحوب وجه مالوري كان يدلّ على المرحلة العصيبة التي اكتنفت انفصالهما ولكنّه لم يكن يشوّه رموشها الطويلة ولا أنفها الدقيق ولا أسنانها البيضاء. في اليوم الذي التُقِطَت فيه الصورة، خلال نزهةٍ على طول شاطئ الأصداف الفضية Silver Strand Beach، سرّحت شعرها في جدائل مرفوعة ومربوطة بمشبكٍ من الصدف. وكانت نظارتان صغيرتان من الفولاذ تجعلانها تشبه نيكول كيدمان في فيلم *Eyes Wide Shut* وإن كانت مالوري لا تحبّ تلك المقارنة. لم يستطع الامتناع عن الابتسام لأنّها كانت ترتدي كنزة بات شورك[1] صوفية نسجتها بنفسها والتي منحتها منظراً أنيقاً ولامبالياً في آن.

---

(1) خليط مرقّع: نسيج مصنوع من قطع مختلفة مخيط بعضها ببعض. (المترجم)

ولكونها تحمل شهادة الدكتوراه في اقتصاد البيئة، درّست في الجامعة ولكنّها مذ سكنت في البيت القديم لجدّتها بالقرب من سان دييغو، تخلّت عن دروسها لتنخرط كلّياً في الجمعيات التي تساعد المحتاجين. كرّست وقتها في بيتها لموقعٍ إلكترونيّ لإحدى المنظمات غير الحكومية ورسمت أيضاً لوحات مائيّة وصنعت بيوتاً صغيرة مزيّنة بالأصداف كانت تبيعها للسيّاح حينما تذهب في عطلتها في نانتوكيت. بتاتاً لم يكن المال ولا النجاح الاجتماعي حافزاً بالنسبة لمالوري. كانت تحبّ أن تردّد بأنّ نزهة في الغابة أو على الشاطئ لا تكلّف دولاراً واحداً هو ما يمتعها ولكنّ ناتان لم يكن ينخرط أبداً في تلك الأحاديث التبسيطية.

الأمر في غاية السهولة حينما لا يفتقر المرء أبداً لأيّ شيء!

كانت مالوري سليلة عائلة ميسورة وذات مكانة. كان والدها الشريك الرئيسي في أحد المكاتب القانونية الأكثر نجاحاً في بوسطن. لم تكن بحاجةٍ إلى النجاح المهنيّ لنيل مكانة اجتماعية حظيت بها منذ ولادتها.

للحظة، استذكر ناتان المكان الدقيق للشامات المتناثرة على كلّ جسمها. ثمّ أرغم نفسه على طرد تلك الذكرى وفتح أحد الملفّات التي جلبها معه. شغّل حاسوبه المحمول ودوّن بعض الملاحظات وأملى بعض الرسائل الموجّهة إلى آبي.

أخيراً، نحو الساعة السابعة والنصف، تلقّى المكالمة التي كان ينتظرها.

- مرحباً، بابا.

- مرحباً، يا سنجوبي.

روت له بوني يومها بالتفصيل، كما اعتادت على ذلك خلال

أحاديثهما اليومية. تحدّثت له عن النمور وأفراس النهر التي شاهدتها خلال زيارة مدرسية إلى حديقة بالبوا بارك للحيوانات. سألها عن مدرستها وعن مباراة *soccer* التي شاركت فيها عشية ذلك النهار. المفارقة هي أنّه لم يتكلّم بهذا القدر قط مع ابنته إلاّ مذ أصبحت تعيش على بعد ثلاثة آلاف كيلومتر منه.

فجأةً، أصبحت لهجتها أكثر قلقاً:

- أريد أن أطلب منك شيئاً.

- كلّ ما تريدينه، يا عزيزتي.

- أخاف أن أستقلّ الطائرة وحدي. أريد أن تأتي لتصحبني يوم السبت.

- هذه حماقة، يا بوني، أنتِ الآن فتاة كبيرة.

كان لديه موعد مهني هامّ ذلك السبت بالضبط: الترتيبات الأخيرة لمصالحة بين شركتين كان يعمل عليها منذ أشهر. وكان هو بنفسه مَنْ أصرّ على تثبيت ذلك التاريخ!

- أرجوك، بابا، تعال ورافقني!

في نهاية المكالمة، كشف الغصّات التي تصاعدت في حلق ابنته. لم تكن بوني فتاة صغيرة متقلبة الأطوار. كان خوفها من أن تستقلّ الطائرة وحدها يدلّ على قلقٍ حقيقيّ عندها. لم يكن ناتان يريد أن يسبّب لها الحزن مقابل أيّ شيءٍ في العالم. وخاصّة في تلك الآونة.

- اتّفقنا، لا مشكلة، عزيزتي. سوف أكون هناك. أعِدُك.

استعادت هدوءها وتحادثا لبضع دقائق أخرى. ليريحها ويُضحِكها، روى لها حكاية قصيرة وجدّد مراراً عديدة تقليده الناجح جدّاً للدبدوب ويني الذي يطلب كوباً من العسل.

أحبّك، يا طفلتي.

بعد أن أغلق السماعة، فكّر لبضع دقائق في عواقب تأجيل اجتماع السبت. بالطبع هناك حلّ دفع أجرة لشخصٍ ما لجلب ابنته من كاليفورنيا. ولكنه سرعان ما تخلّى عن تلك الفكرة الحمقاء. إنّه أمرٌ ما كانت مالوري لتسامحه عليه أبداً. ومن ثمّ كان قد وعد بوني أن يكون هناك. ومن غير الوارد أن يخيّب أملها. في أسوأ الأحوال سوف يجد حلاً، لمرّة واحدة.

دوّن أيضاً بعض الملاحظات على حاسوبه ثمّ انتهى به الأمر أن نام على الأريكة من دون أن يخلع حذاءه ولا أن يطفئ الأنوار.

استيقظ متوثّباً برنين الانترفون.

كان الحارس بيتر هو من يطلبه من حجرة حراسته.

- شخصٌ ما يطلبك، سيّدي: الدكتور غاريت غودريش.

نظر إلى ساعة يده: اللعنة، إنّها الساعة التاسعة! لم يكن يشاء أن يُزعَج من قبل هذا الشخص حتى في بيته.

- لا تدعه يدخل، يا بيتر، أنا لا أعرف هذا السيّد.

- لا تتظاهر بالبلاهة، صرخ غودريش الذي أمسك بسماعة الحارس، هذا أمرٌ هام!

تبّاً، ماذا فعلتُ للربّ لأستحقّ هذا؟

توقّف لبرهةٍ ومسّد أجفانه. كان يعلم في قرارة نفسه بأنّه لن يستعيد هدوءه إلا بعد أن يتخلّص من غودريش. الأمر الذي يفترض أوّلاً أن يفهم ما يريده منه حقّاً هذا الرجل.

- حسناً، دعه يصعد، يا بيتر.

زرّر ناتان قميصه وفتح باب مدخل الشقّة ووقف على قرص الدرج ينتظر برباطة جأش الطبيب الذي سرعان ما بلغ الطابق الثالث والعشرين.

- ماذا تفعل هنا يا غاريت؟ هل رأيت كم الساعة؟
- شقّة جميلة، قال الآخر وهو يلقي نظرة على الداخل.
- سألتُك ما الذي تفعله هنا؟
- أعتقد أنّه يجب أن تأتي معي، يا ديل آميكو.
- اذهب واسخر من نفسك، لستُ تحت أمرك.
حاول غاريت أن يطمئنه.
- وإذا وثقتَ بي؟
- ما الذي يثبت لي أنّك لستَ خطِراً؟
- لا شيء على الإطلاق، وافق غودريش هازّاً كتفيه. من المحتمل أن يكون كلّ إنسان خطِراً، أوافقك على ذلك.

كان غودريش يضع يديه في جيبيه ومتدثّراً بمعطفه الفضفاض، يعبر الجادة بهدوء، ويرافقه ناتان الذي يتجاوزه طولاً ويشير بيديه إلى جانبه.
- البرد قارص.
- هل تتشكّى دائماً هكذا؟ سأل غاريت. في الصيف، هذه المدينة خانقة. إنّ نيويورك تُظهر حقيقة ما هي قادرة عليه في الشتاء.
- تُرّهات.
- من جهة أخرى، البرد يحفظ الميكروبات ويقتلها وثمّ...
لم يترك له ناتان الوقت ليكمل حديثه.
- لنستقلّ على الأقلّ سيارة أجرة.
تقدّم على قارعة الطريق ورفع ذراعه ليوقف سيارة.
- يا ! وا ! يا ! وا !
- توقّف عن الصياح، أنت مضحك.

- إذا كنت تعتقد بأنني سأدع خصيتيّ تتجمّدان في سبيل متعتك، ضع إصبعك في أذنك.

مرّت سيارتا أجرة من أمامهما من دون أن تتوقّفا لهما. أخيراً توقّفت سيارة من نوع *yellow cup* قبالة Century Apartments، دلف الرجلان إليها ودلّ غودريش السائق على العنوان: تقاطع الجادة الخامسة والشارع الرابع والثلاثين.

فرك ناتان يديه إحداهما بالأخرى. كانت السيارة جيّدة التدفئة. وكان الراديو يذيع أغنية قديمة لسيناترا.

كانت برودواي تعجّ بالناس. وبسبب أعياد نهاية السنة، كانت محلاّت عديدة تظلّ مفتوحة الأبواب طوال الليل.

- كنّا سنصل أسرع سيراً على الأقدام.

لم يستطع غودريش الامتناع عن إبداء الملاحظة بسرورٍ واضح، بينما كانت السيارة محصورة وسط الازدحام.

ألقى ناتان عليه نظرة غير لطيفة.

بعد بضع دقائق، نجحت السيارة في أن تدلف إلى الجادة السابعة حيث حركة السير أقلّ كثافة. ثم تحوّلت إلى الشارع الرابع والثلاثين، واستدارت إلى اليسار ثمّ سارت حوالي مئة متر قبل أن تتوقّف.

دفع غودريش الأجرة ونزل الرجلان من السيارة.

كانا أسفل أحد أشهر أبراج مانهاتن: Empire State Building (إمباير ستيت)

4

الملاك ذو السيف الناري، واقفٌ خلفك،
يضع السيف في كليتيك ويدفعك إلى المهاوي!
فيكتور هيغو

رفع ناتان عينيه نحو السماء. منذ بناء توين تاورز، كان إمباير ستيت قد أصبح ناطحة السحاب الأعلى في مانهاتن. كان البناء المرتكز بصلابة على قاعدته الضخمة يطلّ على ميدتاون في مزيج بين الأناقة والقوّة. وكانت طوابقه الثلاثين الأخيرة تشعّ بالأحمر والأخضر كما هي العادة في فترة عيد الميلاد.

- هل أنت راغبٌ حقّاً في أن تصعد إلى الأعلى هناك؟ سأل المحامي وهو يشير إلى قمّة القبّة المضيئة التي بدت وكأنّها تخترق حجاب الليل.

- لقد حصلتُ على البطاقات، أجاب غودريش وهو يسحب من جيبه مستطيلين من الكرتون الأزرق. ولذلك، أنت مدينٌ لي بستّة دولارات...

هزّ ناتان رأسه علامة على ضيقه ثمّ، مستسلماً، حذا حذو الطبيب.

دخلا إلى بهو المدخل من طراز Art déco. خلف مكتب الاستقبال، كانت ساعة حائط تشير إلى الساعة العاشرة والنصف في

حين كانت لوحة إعلانية تعلن للزوار أنّ بيع البطاقات سيستمر لساعة أخرى، وبالتالي من الممكن زيارة المبنى حتى منتصف الليل. وإلى جانبها، كانت صورة عملاقة للمبنى تتلألأ مثل شمسٍ نحاسية. كانت فترة عيد الميلاد فترة سياحية جدّاً في نيويورك وعلى الرغم من الساعة المتأخرّة في الليل كان لا يزال الكثير من الناس يحتشدون بالقرب من كُوى التذاكر المزيّنة بصور المشاهير الذين أعجبوا على مرّ الأعوام بناطحة السحاب تلك.

بسبب البطاقتين اللتين كان غودريش قد اشتراهما، لم يضطر الرجلين إلى الوقوف في الدور. فتوجّها مباشرة إلى الطابق الثاني الذي تنطلق منه المصاعد نحو المَرقَب. ومع أنّ الثلج كان قد توقّف عن التساقط، كانت الرؤية في كوّة الإطلالة قليلة الوضوح، بسبب الغيوم الراكدة فوق المدينة.

في أقلّ من دقيقة، أقلّهما مصعد فائق السرعة إلى الطابق الثمانين. ومن هناك، استقلاّ مصعداً آخر ليصلا إلى مطلّ الطابق السادس والثمانين، الواقع على ارتفاع 320 متراً، ودخلا إلى قاعة للرصد مغطاة ومحمية بواجهات زجاجية.

- إذا كنت لا تمانع، سأظلّ في هذه الحجرة الجيّدة التدفئة، قال ناتان وهو يشدّ حزام معطفه.

- بل أنصحك أن تتبعني، أجاب غودريش بلهجة لم تكن تنمّ عن اعتراض.

وصلا إلى الشرفة المفتوحة للمرقَب. ريحٌ ذات برودة قطبية قادمة من ايست ريفر، جعلت المحامي يندم على أنّه لم يضع لفحة وقبّعة.

- كانت جدّتي تقول دائماً: «لن تعرف نيويورك قبل أن تضع

قدميك على قمّة Empire State Building» صرخ غودريش ليغالب صخب الريح.

كان المكان حقّاً ساحراً. بالقرب من المصعد كان شبح غاري غرانت ينتظر ديبورا غير التي لن تأتي أبداً. أبعد من ذلك، كان زوجان يابانيان يتّكآن على الدرابزين ويتسلّيان بتقليد توم هانكس وميغ رايان في آخر مشهدٍ من فيلم ليالٍ بيضاء في سياتل.

اقترب ناتان بخطى قصيرة من حافة المطلّ وانحنى إلى الأمام.

كان الليل والبرد والغيوم تضفي على المدينة منظراً مدهشاً ولم يطل به الوقت حتى ذُهِل للمشهد الذي انفتح أمامه. بفضل موقعه المركزي، كان المبنى يقدّم بلا شكّ الإطلالات الأكثر إدهاشاً على مانهاتن.

من هنا، يحظى المرء برؤية لا تُحجَب على قبّة Chrysler Building وعلى Times Square التي يخال للمرء أنّها تعجّ بالإثارة.

- لم أضع قدميّ هنا منذ طفولتي، أقرّ المحامي وهو يدسّ ربع دولار في فتحة أحد المناظير البعيدة المدى.

كانت السيارات التي تعجّ في الأسفل، تبدو من ارتفاع 86 طابقاً صغيرة جدّاً بحيث بدا تدفّق حركة السير بعيداً جدّاً، وكأنّها تنتمي إلى كوكب آخر. بالمقابل، كان جسر الشارع 59 يبدو قريباً بشكلٍ لا يُصدّق وكان يعكس صورته البرّاقة في مياه ايست ريفر.

لوقتٍ طويل، لم يتبادل ناتان وغودريش أيّ كلام، مكتفيين بالانبهار بأضواء المدينة. استمرّت الريح في بثّ أنفاسها المزعجة ولسع البرد الوجوه. شاع مزاج لطيف ومنفتح وسط الجماعة الصغيرة التي كانت ترتفع عن الأرض لأكثر من ثلاثمائة متر. كان عاشقان شابّان يتعانقان بحرارة وهما مذهولين من الشعور بأنّ شفاههما تطقطق

بكهرباءٍ سكونية. مجموعة من السيّاح الفرنسيين كانوا يجرون مقارنات مع برج إيفل، في حين كان زوجان من ڤيومينغ يرويان لمَن يريد سماع ذلك تفاصيل لقائهما الأوّل، في هذا المكان نفسه، قبل خمسة وعشرين عاماً. أمّا الأطفال، المتدثّرون بمعاطف رياضية سميكة، فكانوا يلعبون لعبة التخفّي خلف غابات سيقان البالغين.

فوق رأسيهما، كانت الريح تسحب الغيوم بسرعة مذهلة، كاشفة هنا وهناك جزءاً من السماء حيث كانت تضيء نجمة منفردة. كانت حقّاً ليلةً جميلة.

كان غودريش هو أوّل مَنْ قطع الصمت:

- الصبيّ ذو السترة البرتقالية همس في أذن ناتان.

- عفواً؟

- انظر إلى الصبي ذي السترة البرتقالية.

غضّن ناتان عينيه وتمعّن في الشخص الذي أشار إليه غودريش: شابّ في حدود العشرين من عمره وكان قد صعد للتوّ إلى المنصّة. كانت لحية خفيفة شقراء تغطّي أسفل وجهه وتتدلّى خصلات من شعره الطويل والمتّسخ. جال لمرّتين في المطلّ، مارّاً بالقرب من المحامي الذي استطاع أن يلاحظ نظرته المضطربة والقلقة. كان منزعجاً بوضوح ويتناقض وجهه، المتّسم بالألم، مع ضحكات الزائرين الآخرين ومزاجهم الرائق.

اعتقد ناتان أنّه ربّما كان تحت تأثير المخدّرات.

- اسمه كيڤن وليامسون، أوضح له غودريش.

- هل تعرفه؟

- ليس شخصياً، ولكنني أعرف حكايته.

رمى والده بنفسه من على هذه المنصّة حينما لم تكن هناك بعد شبكات مانعة للانتحار. هو يأتي إلى هنا بانتظام منذ أسبوع.

- كيف عرفتَ كلّ هذا؟

- لنقل إنني قد أجريتُ تحقيقي الصغير.

صمت المحامي لبرهة ثمّ سأل:

- ولكن فيمَ يخصّني هذا الأمر؟

- كلّ ما يمسّ أقراننا من البشر يخصّنا، أجاب الطبيب وكأنّ الأمر كان يتعلّق هنا ببديهة.

في هذه الأثناء هبّت عاصفة من الريح على المطلّ. اقترب ناتان أكثر من غودريش.

- تبّاً لك، يا غاريت، لماذا أردتَ أن أنظر إلى هذا الرجل؟

- لأنّه سيموت، أجاب غودريش بطريقة خطرة.

- أنت... أنت أبله، يا سيّدي العجوز! قال المحامي مستغرباً. ولكن، وهو يقول هذه الكلمات، لم يستطع منع نظرته من البقاء ملتصقة بشبح كيڤن، وتصاعد في داخله قلقٌ عميق.

لن يحدث أيّ شيء. لا يمكن لأمرٍ كهذا أن يقع...

ولكن مرّ أقلّ من دقيقة بين التنبؤ غير المنتظر لغودريش واللحظة التي أخرج فيها الشابّ مسدّساً من جيب سترته. خلال بضع ثوانٍ، نظر بذعر إلى السلاح المرتجف في يده.

في البداية، بدا أن لا أحد لاحظ تصرّفه الغريب، ثمّ فجأةً، أطلقت سيّدة صرخةً.

- هذا الرجل مسلّح!

فتركّزت كلّ الأنظار في الحال على الصبيّ.

استبدّ الهلع بكيڤن فأدار المسدّس على نفسه. كانت شفتاه ترتعشان خوفاً. وسالت دموع الحنق على وجهه أعقبتها صرخة ألمٍ تلاشت وسط دياجير الليل.

- لا تفعلها! صرخ أبُ عائلةٍ في حين انطلق تدافعٌ عجيب باتّجاه القاعة المغطاة.

ظلّ ناتان ساكناً أمام الشابّ. مذهولاً ومذعوراً في آنٍ واحدٍ مما حصل أمام ناظريه، لم يجرؤ على أن يأتي بأدنى حركة، خشية أن يسرّع الموقف الذي لا يمكن تداركه. لم يعد يشعر بالبرد. بل على العكس من ذلك شعر بسخونةٍ تجتاح كامل جسمه دفعة واحدة.

شريطة ألاّ يُطلِق النار...

لا تطلق النار، لا تُطلق، يا صبيّ...

ولكن كيفن رفع عينيه، ونظر للمرّة الأخيرة إلى السماء الخالية من النجوم ثمّ ضغط على الزناد.

شقّ الانفجار الليل النيويوركي. خرّ الشاب فجأةً وقد تداعت ساقاه تحت ثقله.

للحظة، بدا وكأنّ الزمن قد توقّف.

ثمّ انطلقت صيحات الهلع وطغى هياجٌ واسع على المنصّة. تجمّع الحشد أمام المصاعد. تدافع الناس مذعورين وركضوا في كلّ الاتجاهات. شغّل البعض هواتفهم النقّالة... بسرعة... أخبروا عائلته... أخبروا أقاربه. منذ ذلك اليوم الشهير من أيلول، كان معظم النيويوركيين مسكونين بشعورٍ من الانجراح يكاد يكون محسوساً. كلّ مَن كان حاضراً صُدِم بدرجةٍ ما وحتى السيّاح أنفسهم كانوا يعلمون بأنّ خلال زيارتهم لمانهاتن قد يحصل أيّ شيء.

برفقة بضعة أشخاص آخرين، بقي ناتان على المطلّ. وتشكّلت حلقة حول جثّة كيفن. كان العاشقان مغمورين بالدم ويبكيان في صمت.

- ابتعدوا! دعوه يتنفّس! صرخ حارسٌ من الأمن، كان منحنياً فوق الشابّ.

أمسك بجهازه اللاسلكي وطلب المساعدة من المحرس.

- استدعوا الاطفائيين وسيارة إسعاف! لدينا جريحٌ بعيارٍ ناريّ في الطابق السادس والثمانين.

ثمّ انحنى مجدّداً فوق كيڤن ليتثبّت من أنّ سيارة الإسعاف ستكون لسوء الحظّ من دون جدوى إلاّ إذا كانت لنقله إلى معرض الجثث المجهولة.

على بعد أقلّ من متر، لم يكن بوسع ناتان أن يفعل سوى النظر إلى جثّة كيڤن. كان وجهه، المتّسم بالألم، قد تجمّد تماماً وسط صرخة فزع. ولم تعد عيناه الجاحظتان والكابيتان تنظران سوى إلى الفراغ. خلف أذنه، كان يمكن أن نرى ثقباً فاغراً، محروقاً وقرمزيّ اللون. وقد انسحق جزءٌ من جمجمته وما تبقّى منها كان مغموراً بخليطٍ من الدم والدماغ. عرف المحامي مباشرةً أنّه لن يستطيع أبداً التخلّص من هذا المشهد، وأنّه سوف يراوده مراراً وتكراراً على مرّ لياليه وفي لحظات وحدته المطلقة. بدأ الفضوليون يتراجعون شيئاً فشيئاً. كان طفلٌ قد أضاع والديه وبقي هناك، منذهلاً، على بعد ثلاثة أمتار من الجثّة، منبهر النظر ببركة الدم.

أخذه ناتان بين ذراعيه ليدير بصره عن ذلك المشهد المريع.

- تعال معي، أيّها الصبيّ، لا تقلق، سيتحسّن، سيتحسّن.

حينما نهض، لمح غودريش غارقاً وسط الحشد. فسار نحوه.

- غاريت، انتظرني، تبّاً لك!

مع الطفل الذي كان لا يزال متشبّثاً برقبته، شقّ ناتان الطريق ليلحق بالطبيب وسط الهرج والمرج.

- كيف استطعت أن تعرف ذلك؟ صرخ وهو يشدّه من كتفه.

حائر العينين، تجاهل غودريش السؤال. حاول ناتان أن يمسك

به لكنّه أوقف من قبل والدي الطفل، اللذين ارتاحا كثيراً لعثورهما على ابنهما.

- أوه! جيمس، لقد أخفتنا كثيراً، يا بنيّ!

تخلّص ناتان بمشقّة من تلك الحشود. راح يلحق بالطبيب حينما اندسّ هذا الأخير في أوّل مصعدٍ شاغر.

- لماذا لم تفعل شيئاً، يا غاريت؟

التقت نظراتهما لجزءٍ من الثانية ولكن أمام البابين الجرّارين اللذين كانا ينغلقان أطلق ناتان سؤاله الأخير:

- لماذا لم تفعل شيئاً وأنت كنتَ تعلم بأنّه سوف يموت؟

5

نحن بطيئون في تصديق ما يصعب تصديقه.

اوفيد

10 كانون الأوّل

نام ناتان قليلاً في تلك الليلة.

صباح اليوم التالي، استيقظ متأخّراً، يتصبّب عرقاً بارداً، وأوّل ما أحسّ به هو ذلك الألم المتواصل. مسّد الجانب الأيمن واعتقد أنّه يشعر بوخزٍ أكثر حدّة.

لئلا يقوم بترتيب أيّ شيء، كان قد حلِم مرّة أخرى ذلك الحلم بالغرق، علامة القلق عنده. لا شكّ لأنّ غودريش تحدّث إليه عن الإوزّ.

خرج من سريره وأحسّ بأنّ ساقيه خائرتان. بل كان محموماً لدرجة أنّه وضع ميزان حرارة تحت إبطه.

37,8° لا شيء مقلق.

مع ذلك، نظراً لافتقاره للهمّة ولأن الوقت تأخّر، امتنع عن الذهاب للجري. إذاً سوف يكون نهاراً سيئاً للغاية.

أخذ قرص بروزاك من دُرْج الصيدلية المنزلية وابتلعه مع جرعة ماء. كان يتناول من هذه الأقراص بانتظام منذ أن... منذ أن شعر بأنّه لم يعد على انسجامٍ مع أيّ شيء.

جمع الملفّات المبعثرة على الأريكة. البارحة مساءً، لم يكن قد أنجز شيئاً يُذكَر. أراد أن يسرّع العمل اليوم. لا سيما أنّه كان على وشك أن يتوصّل إلى اتفاقٍ في قضية Rightby's. كانت الدار الشهيرة للبيع بالمزاد والتي يتكفّل الدفاع عنها متّهمة بانتهاك قانون منع الاحتكار من خلال الاتفاق مع منافستها الرئيسية لتثبيت نسب متماثلة للعمولة على مبيعات التحف الفنية. كان ذلك ملفاً حسّاساً والأمور لم تكن تنتظم وحدها. لكنّه لو نجح في الحصول على اتّفاقٍ جيّد لازدادت شهرته درجة إضافية.

رغم تأخّره، ظلّ وقتاً طويلاً تحت دوش الماء الساخن، مستعيداً في ذهنه انتحار كيڤن ويليامسون. كما استذكر بعض كلمات غودريش: «أعتقد أنّني أنا مَن يمكنه أن يفيدك، يا ناتان. بعض المِحَن يمكنها أن تكون عصيبة، سوف ترى.» كما تذكّر: «ضرورة أن يستعدّ المرء».

ماذا كان يريد منه ذلك الشخص، تبّاً له؟ بدأ كلّ ذلك يغدو مقلقاً. هل كان عليه أن يخبر أحداً ما؟ الشرطة؟ بعد كلّ شيء، كان هناك ميّتٌ البارحة مساءً وهذا ليس أمراً تافهاً.

نعم، ولكن كان ذلك انتحاراً. يمكن لعشرات الأشخاص أن يشهدوا بذلك. مع ذلك كان لغودريش جزء كبير من المسؤولية في تلك الحكاية. في كلّ الأحوال، كان يحتفظ بمعلوماتٍ لم يكن من المفروض أن يحتفظ بها لنفسه.

خرج من الحمّام ونشّف جسمه بنشاط.

ربّما كان الأفضل ألاّ يعود للتفكير في ذلك. لم يكن لديه الوقت لذلك. وسيكون عليه ألاّ يقبل أن يلتقي غودريش. أبداً...

وبهذه الطريقة، سيعود كلّ شيء طبيعياً.

قبل أن يخرج، ابتلع أيضاً حبّتي أسبيرين وقرصاً من الفيتامين سي.

كان عليه أن يخفّف من تناول كلّ تلك الأدوية، وكان يعرف ذلك، ولكن ليس اليوم. لم يكن مهيّأً لذلك بعد.

انتظر وقتاً لا بأس به قبل أن يحصل على سيارة أجرة. انعطفت السيارة عند مستديرة كولومبس Columbus Circle وتجاوزت غراند آرمي بلازا Grand Army Plaza.

لن أصل قبل الأوان، فكّر وهو يتبادل بعض الكلمات السطحية مع السائق الباكستاني. فقد كانت شاحنة بضائع قد توقّفت للتوّ أمام GM Building، مسبّبة بداية ازدحام في ماديسون. ترجّل ناتان من سيارة الأجرة وسلك مشياً ممرّ المعدن والزجاج الذي يربط ناطحات السحاب في جادة بارك. انفجر في وجهه كلّ صخب المدينة من صيحات باعة الساندويتش إلى جوقة التزمير التي وجّهتها له سيارة ليموزين ذات زجاج دخانيّ وقد كادت تسقطه أرضاً. شعر فجأةً بأنّه محصور ومضغوط في ذلك المكان العدواني، وقد أراحه أخيراً الوصول إلى المدخل المذهل لمبنى ماربل أند مارش، الذي تعلوه قبّة من الفسيفساء المستوحى من الفنّ البيزنطي. توقّف ناتان أوّلاً في الطابق الثلاثين، حيث للمساهمين قاعة فسيحة للاستراحة وكافيتريا صغيرة. وكان يحصل له أحياناً أن ينام فيها، عندما يكون عنده فعلاً الكثير من العمل. أخذ بعض الوثائق من خزانته وصعد إلى الطابق العلوي حيث يوجد مكتبه.

ولأنّه كان متأخراً على نحو غير طبيعي، استطاع أن يقرأ سؤالاً في نظرة سكرتيرته.

- هلاّ جلبتِ لي بريدي وثلاثة فناجينٍ من القهوة، من فضلك يا آبي؟

أدارت كرسيّها الدوّار وألقت عليه نظرة عتاب.

- البريد ينتظرك على مكتبك منذ ساعة. أمّا القهوة، فهل أنت متأكّد من ثلاثة فناجين...

- أريدها ثقيلة جدّاً، وبلا حليب. شكراً.

دخل إلى مكتبه، وكرّس عشرين دقيقة لتصفّح بريده ثمّ اطّلع على بريده الإلكتروني وهو ينهي فنجانه الأخير من القهوة. كان قد تلقّى رسالة إلكترونية من أحد معاونيه يطلب فيها مساعدته في نقطة قضائية تخصّ ملف Rightby's. كان يتهيّأ للردّ عليه حينما...

كلاّ، من المستحيل أن أركز. لم يكن بوسعه أن يتصرّف وكأنّ كلّ ذلك لم يكن أبداً. كان عليه أن يسوّي تلك القضية.

في أقلّ من ثانيتين، أغلق حاسوبه المحمول، التقط معطفه وخرج من المكتب.

- آبي، اطلبي من البواب أن يطلب لي سيارة أجرة، وألغي كلّ مواعيدي الصباحية.

- ولكن كان يفترض بك أن تقابل جوردان ظهراً...

- حاولي أن تؤجّلي الموعد إلى بداية الأمسية، من فضلك، أعتقد أنّ بالإمكان تأجيل الموعد إلى ذلك الحين.

- لا أدري إن كان سيعجبه ذلك.

- هذا أمر يتعلّق بي، هذه مشكلتي أنا.

لحقت به إلى الممرّ وهي تناديه:

- تحتاج إلى الراحة، يا ناتان، هذه ليست المرّة الأولى التي أخبرك بذلك!

- إلى South Ferry Terminal، طلب من السائق وهو يغلق باب السيارة.

بفضل العشرين دولاراً التي وعد السائق بها، نجح بفارقٍ ضئيلٍ من الوقت في أن يندسّ بين آخر مسافري مركب الساعة العاشرة المغادر إلى ستايتن آيسلاند. في أقلّ من خمس وعشرين دقيقة أقلّه المركب إلى ذلك الحيّ الواسع من أحياء نيويورك. كان العبور مذهلاً ولكنه لم يستمتع برؤية لاور مانهاتن ولا برؤية تمثال الحرية، لفرط ما كان مستعجلاً الوصول. ما إن نزل من القارب أوقف سيارة أجرة أخرى أقلّته سريعاً إلى مستشفى ستايتن آيسلاند العامّ. كان مركز العناية يمتدّ على موقعٍ شاسعٍ بالقرب من شارع جورج، ومركز المقاطعة الواقع في الطرف الشمالي الشرقي للجزيرة. توقّفت السيارة أمام مركز العمليات الجراحية. كان الثلج قد توقّف عن التساقط منذ العشية ولكن السماء كانت مكفهرّة بالغيوم. دخل ناتان إلى المبنى مهرولاً. أوقفته موظّفة استقبال وسط حماسته.

- سيّدي، الزيارات لا تبدأ إلاّ في...

- أريد مقابلة الدكتور غودريش، قاطعها.

كان قد صعد مثل كُلَيْبٍ. كان للبروزاك تأثيرات عجيبة عليه أحياناً.

قامت ببعض المداولات على شاشة حاسوبها لتُظهر لوحة العمليات.

- لقد أنهى البروفيسور للتوّ عملية أخذ خزعة وعليه أن يُكمِل بعملية بتر وتطهيرٍ عقديّ. لا يمكنك مقابلته الآن.

- مع ذلك أخبريه، طلب ناتان. أخبريه أنّ المحامي ديل آميكو هنا. هناك أمرٌ عاجل.

وعدت موظّفة الاستقبال أن تحاول ودَعَته إلى الانتظار في قاعة للانتظار.

حضر غودريش بعد ذلك بربع ساعة. كان يرتدي بذلةً طبية زرقاء وعلى رأسه غطاء يغطي به شعره.

ارتمى ناتان عليه.

- بالله عليك، يا غاريت، هلاّ شرحت لي ما...

- ليس الآن. لا وقت لدي الآن.

- لن أتركك! حضرت إلى مكتبي ثمّ إلى منزلي وجعلتني أحضر عملية انتحار رهيبة من دون أن تقول لي شيئاً سوى «تأمّل في قِصَر الحياة». لقد بدأ ذلك يصبح مقلقاً بل مؤلماً!

- سنتحدّث لاحقاً. هناك حجرة في الطابق حيث ينتظر رجلٌ أن نستأصل له خراجاً...

بذل ناتان جهداً كبيراً ليحافظ على هدوئه. كان يشعر بأنّه قادرٌ على أسوأ أشكال العنف حيال الطبيب.

-... ولكن يمكنك أن تأتي معي إن أردت ذلك، اقترح غودريش وهو يطلق ساقيه للريح.

- ماذا؟

- تعال إذاً واحضر العملية، إنّها مفيدة جدّاً.

تنهّد ناتان. شعر بأنّ غاريت كان يسيطر عليه، ولكنه لم يستطع الامتناع عن اللحاق به. مهما يكن من أمر، في الوضع الذي كان عليه...

راعى حرفياً قواعد أصول التعقيم. اغتسل بالصابون وفرك يديه

وذراعيه برغوةٍ مضادة للبكتريا قبل أن يضع كمامة نسيجية على فمه وأنفه.

- ماذا يوجد في البرنامج؟ سأل متّخذاً هيئة متجردة.

- استئصال البلعوم عبر شقّ البطن والصدر، أجاب غودريش دافعاً الباب ذي المصراعين. لم يبذل ناتان جهداً حتى في البحث عن ردٍّ سريعٍ روحيّ ولحق بالطبيب إلى قاعة العمليات حيث كان في انتظاره ممرّضة وطبيب مساعد.

ما إن دخل إلى الغرفة التي لا نوافذ فيها، وذات الإضاءة الساطعة جدّاً، أدرك أنّ ما سيراه سيكون مزعجاً.

يا للهول! كغالبية الناس، كان يكره تلك الروائح الطبية التي كانت تذكّره بالذكريات السيئة.

أخذ مكانه في ركنٍ قصيٍّ ولم يعد يفتح فمه.

- إنّه سرطانٌ سيّئ، شرح غودريش لزميله. رجلٌ في حوالى الخمسين من العمر، مدخّنٌ شره، والتشخيص جاء متأخراً بعض الشيء. الغشاء المخاطي مصاب. وهناك وجود لبعض الانتقالات في الكبد.

قُدِّم إليه طبقٌ عليه كلّ أنواع أدوات الجراحة. أمسك بمبضعٍ وأعطى إشارة البدء بالعمل.

- ممتاز، سنبدأ.

تابع ناتان كلّ تفاصيل العملية على شاشة تلفازٍ مثبّتة عمودياً فوق رأس المريض.

بتر الرباط المفصلي الثلاثي... تحرير فتحة البلعوم...

بعد بضع عمليات تقليب، لم يعد يرى على الشاشة سوى كومة من الأعضاء الدامية. ما الذي يفعله الجراحون لمعرفة موضع تلك

الأعضاء؟ لم يكن قطّ وسواسيّ المرض، لكن في تلك اللحظة بالضبط، لم يستطع الامتناع عن التفكير في ذلك الألم الذي كان يسدّ صدره. نظر بقلق إلى غودريش الذي كان ينشط مستغرقاً تماماً في مهمّته.

كلا هذا ليس مجنوناً، هذا طبيبٌ بارع. رجلٌ يستيقظ صباحاً لينقذ حياة بشرٍ. ولكن ما الذي يريده منّي إذاً؟

في لحظة، حاول الطبيب الذي يساعد غودريش أن يخوض في الحديث عن دوري البيسبول، ولكن غاريت صعقه مباشرة بالنظر ولم يخطئ الرجل بعدها.

ثمّ من جديد، ركّز ناتان بصره على الشاشة بينما كانت العملية لا تزال جارية.

إدخال أنبوب في المعدة... سحب السوائل من التجويف البطني والصدري...

شعر بصغر الأهمية. في تلك اللحظة بالضبط، بدت له ملفّاته واجتماعات عمله وذلك المليون من الدولارات الموجود في حسابه المصرفي كلّها تافهة.

بينما كانت العملية تشارف على نهايتها، تسارع إيقاع نبض قلب المريض فجأةً.

- تفِه! صرخ الطبيب المساعد، إنّه تسارع في نبض القلب.

- هذا يحدث، قال غودريش بهدوء، يصعب عليه تحمّل ضغط القلب.

حينما طلب غاريت من الممرّضة أن تحقن المريض، شعر ناتان بمرارة تتصاعد في حلقه. خرج من قاعة العمليات جرياً وهرع إلى الحمّامات ليتقيّأ.

فتذكّر أنّه لم يتناول شيئاً منذ ما يقارب أربعاً وعشرين ساعة.

لحق به غودريش بعد عشر دقائق.

- هل سوف يعيش؟ سأل ناتان قلقاً، وهو يمسح جبينه.

- لمدّة أطول مما لو لم نحاول فعل شيء. سيستطيع أن يتغذّى ويهضم بشكلٍ طبيعي. لفترة على الأقلّ.

- جرت العملية بشكلٍ جيّد، شرح غودريش لزوجة المريض. بالطبع، بعض مضاعفات ما بعد الجراحة واردة دائماً ولكنني متفائل.

- شكراً يا دكتور، قالت المرأة بامتنان، لقد أنقذته.

- بذلنا أفضل ما بوسعنا.

- شكراً لك أيضاً، قالت وهي تشدّ على يد ناتان.

اعتقدت أنّه الجراح المساعد. كان المحامي يشعر بأنّه قد شارك في العملية لدرجة أنّه لم يصحّح لها اعتقادها الخاطئ.

كانت كافيتريا المستشفى تقع في الطابق الأول وتطلّ على موقف السيارات.

جالسين وجهاً لوجه، طلب غودريش وناتان قهوة. وضِعت سلّة صغيرة من الحلويات على الطاولة.

- هل تريد قطعة دوناتس؟ إنّها دسمة بعض الشيء ولكن...

هزّ ناتان رأسه.

- ما زلت أشعر بمرارة في قعر فمي، إن أردت معرفة كلّ شيء.

عبرت ابتسامة خفيفة وجه الطبيب.

- ممتاز، أنا أستمع إليك.

- لا، لا، ليس هكذا، أنا من أستمع إليك: لماذا أتيت لمقابلتي وكيف عرفت أنّ كيفن ينوي إطلاق رصاصةٍ على رأسه؟

مدّ غودريش يده وأخذ فنجاناً من القهوة وأضاف إليها الكثير من الحليب والسكّر. فرك حاجبيه.

- لا أدري إن كنتَ مهيّاً، يا ناتان.

- مهيّأً لماذا؟

- لسماع ما سأقوله لك.

- أوه! أتوقّع كلّ شيء، ولكن من فضلك سرّع الإيقاع...

لم يرق لغودريش طلبه هذا.

- تريد أن تسعدني؟ كفّ عن النظر إلى الساعة كلّ دقيقتين.

أطلق ناتان تنهيدة.

- حسنٌ، لنأخذ وقتنا، قال وهو يحلّ عقدة ربطة عنقه ويخلع سترته.

ابتلع غاريت لقمة من الفطيرة ثمّ جرعة من القهوة.

- أنت تعتبرني مجنوناً، أليس كذلك؟

- أعترف بأنني أطرح على نفسي أسئلة، أجاب المحامي دون أن يبتسم.

- هل سمعت من قبل الحديث عن وحدات العناية المسكِّنة؟

- قرأتُ أنّك كنت مسؤول تلك الوحدة في هذا المستشفى.

- بالضبط. كما تعلم، هذه الأقسام تستقبل مرضى فقد الطبّ الأمل في شفائهم.

- وأنتم تقدّمون لهم مساعدة نفسانية...

- نعم. لا يعود أمامهم سوى بضعة أسابيع للعيش وهم يدركون ذلك. إنّه وضعٌ يصعب كثيراً تقبّله.

كانت الساعة قد بلغت الثانية من بعد الظهر. وكان نصف قاعة الكافيتريا ممتلئاً فقط. أخرج ناتان سيجارة ولكنه لم يشعلها.

- مهمتنا أن نصاحبهم إلى الموت، واصل غودريش كلامه. وأن نتصرّف بحيث يستخدمون القليل مما تبقّى لهم من الوقت ليحاولوا الرحيل بسلام.

صمت لبضع ثوانٍ ثم أوضح:

- في سلامٍ مع أنفسهم ومع الآخرين.

- ممتاز، ولكن فيمَ يعن...

انفجر غودريش قائلاً:

- فيمَ يعنيك هذا؟ دائماً السؤال نفسه عن ذاتك الصغيرة! فيمَ ناتان ديل آميكو، المحامي العظيم الذي يقبض أربعمائة دولار في الساعة، معنيٌّ بكلّ بؤس الدنيا؟ ألا يمكنك أن تنسى شخصك الصغير للحظة؟

هذه المرّة، طفح الكيل. ضرب المحامي الطاولة بقبضته:

- اسمعني جيّداً، أيها النذل الحقير! لم يخاطبني أحدٌ بهذه اللهجة مذ كنتُ في المدرسة الابتدائية، وأرغب بشدّة في أن يستمرّ ذلك!

نهض فجأةً، ولكي يهدّئ نفسه، ذهب ليحضر قارورة صغيرة من مياه ايفيان المعدنية من طاولة المشروبات.

في الصالة، كانت الأحاديث الأخرى قد توقّفت برمّتها، وكان الجميع ينظر إليه نظرة عتب.

تمالك نفسك. أنت في مستشفى بعد كلّ حساب!

فتح القارورة وشرب نصفها. ومرّت دقيقة قبل أن يعود ليجلس إلى طاولته.

حدّق في عيني غودريش ليُفهِمَه أنّه لم يتأثّر به.

- تابع، طلب بلهجة أكثر هدوءاً ولكنّها كانت تُظهر عدوانية مضمرة.

كان التوتّر بين الرجلين واضحاً. ورغم ذلك، استأنف الطبيب كلامه من حيث توقّف.

- وحدات العناية المسكّنة مخصّصة لأشخاصٍ سبق أن توقّع لهم الطب الموت. ولكن هناك أيضاً كمّاً كبيراً من الوفيات التي من غير الممكن التنبؤ بها مسبقاً.

- مثل الحوادث؟

- نعم، الميتات العنيفة، والأمراض التي لم يعرف الطبّ تشخيصها أو التي تأخّر كثيراً في تشخيصها.

أدرك ناتان أنّهما كانا يصلان إلى لحظة هامّة من الشرح. كان لا يزال يشعر بذلك الألم الذي يشدّ على صدره كملزمة.

- كما سبق أن أفهمتك، استأنف غودريش حديثه، من الأسهل بكثير أن نقارب الموت حينما نكون قادرين على أن نقود غاياته إلى نهايتها.

- ولكن هذا غير ممكن في حالة الميتات غير المتوقّعة!

- ليس دائماً.

- كيف ذلك؟ ليس دائماً؟

- في الواقع، هذه إحدى مهمّات المبشّرين.

- المبشّرون؟

- نعم، يا ناتان، هناك أناس يُعِدّون مَنْ يريدون الموت للقيام بقفزة كبيرة إلى العالم الآخر.

هزّ المحامي رأسه.

العالم الآخر! إننا نسبح وسط الهذيان.

- تريد أن تقول لي إنّ البعض يعرف مسبقاً مَنْ سيموت؟

- إلى حدٍّ ما هذا هو المقصود، أكّد غاريت بوقار. إنّ دور

المبشّرين هو تسهيل التمييز الصعب بين الأحياء والأموات. إنّهم يسمحون لمن سيموتون بترتيب حياتهم قبل وفاتهم.

تنهّد ناتان.

- أعتقد أنّ الحظّ قد خالفك معي: فأنا من النوع العقلاني وحياتي الروحية تسير كحياة دودة الأرض.

- أنا أدرك جيّداً أنّ هذا الأمر صعبُ التصديق.

هزّ ناتان كتفيه وأدار رأسه باتجاه النافذة.

ماذا أفعل هنا؟

كانت أسرابٌ من النذائف الزغبة تعبر من جديد اللون الرماديّ للسماء لتلامس الكوّة المزجّجة المطلّة على موقف السيارات.

- وإذا أحسنتُ الفهم، فستكون واحداً من أولئك...

- ... من أولئك المبشّرين، نعم.

- ولهذا كنت تعرف بأمر كيفْن؟

- هو كذلك.

ما كان عليه أن يدخل في هذه اللعبة. ليس هناك ما يكسبه من الاستماع إلى هذيانات هذا الأبله، ومع ذلك، لم يستطع الامتناع عن السؤال:

- ولكنك لم تفعل شيئاً من أجله؟

- ماذا تريد أن تقول؟

- كيف وبماذا هيّأته للقيام بالقفزة الكبيرة؟ كيف «سهّلت التمييز الصعب بين الأحياء والأموات»؟ لم يكن كيفْن يبدو رائقاً جدّاً لحظة الرحيل...

- لا يمكننا التصرّف في كلّ مرّة، أقرّ غودريش. كان ذلك

الصبيّ في غاية الاضطراب ليقوم بفعل شيءٍ ما بنفسه. لحسن الحظّ، لا تسير الأمور هكذا دائماً.

ولكن حتى عند القبول بهذه الفرضية، كان شيءٌ ما يزعج ناتان.

- كان بوسعك منعه من الموت. كان عليك أن تخبر أحداً ما. الأمن أو الشرطة...

أوقفه غاريت حالاً:

- ما كان ذلك ليغيّر الشيء الكثير. ليس لأحدٍ التأثير على ساعة الموت. ولا يمكننا تحديد القرار النهائي.

القرار النهائي؛ المبشّرون؛ العالم الآخر... لماذا ليس المطهر والجحيم حينما نكون فيه؟

أخذ ناتان بعض الثواني ليتلقّى هذه المعلومات وقال بابتسامة منقبضة:

- هل تتخيّل حقّاً أنني سأصدّقك؟

- هذه الأمور لا تنتظر أن تؤمن بها لكي تكون موجودة.

- مرّة أخرى، تضيّع وقتك، لستُ رجلاً متديّناً.

- ليس لهذا أيّ علاقة بالدين.

- أعتقد بصدق أنّك قد فقدت رشدك بل وربّما من واجبي أن أعرض أقوالك على مدير المستشفى.

- في هذه الحالة، أنا مجنونٌ منذ أكثر من عشرين عاماً.

أصبحت لهجة غاريت أكثر إقناعاً.

- ألم أنبئكَ بخصوص كيفن؟

- هذا ليس دليلاً. هناك كمٌّ من الأسباب الأخرى التي قد تعلّل توقّعك انتحاره.

- لا أرى جيّداً ما هي.

- توجيهٌ عقائديّ، سطوة طائفة، المخدّرات...

- صدّقني، لا أريد أن أجرّك إلى هذا الميدان، يا ناتان. أقول لك ببساطة إنّ لدي القدرة على الحدس بموت بعض الأشخاص. أعلم أنّهم سيموتون قبل حدوث أولى العلائم المنذرة وأجهد لأن أعدّهم لما ينتظرهم.

- ومن أين تستمدّ هذه القدرة؟

- هذا أمرٌ معقّد، يا ناتان.

نهض المحامي، ارتدى سترته ومعطفه.

- سمعتُ ما يكفي اليوم.

- وأنا أعتقد ذلك أيضاً، أقرّ غاريت، المتسامح.

سلك المحامي اتجاه المخرج ولكن في لحظة اجتيازه للأبواب الأوتوماتيكية، قام فجأة بنصف استدارة وعاد نحو غودريش وهو يرفع إصبعه في وجهه:

- اعذرني لعودتي إلى شخصي الصغير، يا دكتور، ولكن ألم تحاول أن تفهِمَني أنّك هنا من أجلي؟

- ...

- أنت هنا من أجلي، يا غودريش، هذا صحيح؟ هذا هو ما عليّ أن أفهمه؟ هل حانت ساعتي؟ هل هذه هي «نهاية الأعمال»؟

بدا غودريش مرتبكاً. أعطى الانطباع بأنّه يفضّل التخلّي عن هذا الحديث ولكن بدا أيضاً أنّه يعلم أن هذا يشكّل ممرّاً إلزامياً.

- ليس هذا هو ما قلته حقّاً.

ولكن ناتان لم يأخذ بتلك الملاحظة.

استشاط غضباً وتكلّم بسرعة وقوّة.

- هكذا تصرّفتَ إذاً؟ ما إن يراودك «حدسك»، تهبط على الناس فجأةً لتخبرهم: «انتبهوا، هناك أولويات، لم يعد أمامكم سوى أسبوع، إذاً أسرعوا في القيام بآخر الترتيبات.»

حاول غاريت أن يهدّئه.

- لم أقل قطّ أيّ شيءٍ للذين سيموتون، أنا أعرف ذلك، هذا كلّ شيء.

- حسناً، اذهب وانظر بنفسك، يا مبشّر!

هذه المرّة، غادر ناتان القاعة نهائياً.

بعد أن بقي وحيداً على الطاولة، أنهى غودريش قهوته وفرك أجفانه بصمت.

عبر زجاج النافذة، لمح شبح ديل آميكو الذي ابتعد وسط الثلج والبرد.

تجمّعت ندفٌ ثلجية على شعر المحامي ووجهه ولكنّه كان يتجاهلها.

في القاعة كانت أنغام موسيقى الجاز لبيانو بيل ايڤانز تتصاعد من إحدى محطات الإذاعة.

كان لحناً حزيناً.

6

أليس الجو أكثر برودة؟
ألا تحلّ الليالي دائماً، المزيد من الليالي؟
ألا ينبغي منذ الصباح إشعال المصابيح؟

نيتشه

- كم يوم عطلة أخذتُ خلال السنوات الثلاث الأخيرة هذه؟

كانت الساعة السادسة مساءً. كان ناتان جالساً في مكتب آشلي جوردان، يحاول إقناع الشريك الرئيسي بأن يمنحه أسبوعين من الإجازة. كانت تربط الرجلين علاقات معقّدة. في البداية، كان ناتان محمياً من قبل جوردان داخل المكتب ولكن بمرور القضايا، انتهى الأمر بهذا الأخير أن انزعج قليلاً من طموح زميله الشاب الذي كان يلومه على أنّه غالباً ما يستأثر بما يعود من هذه القضايا من فوائد. وكان ناتان من جهته قد أدرك سريعاً أنّ جوردان ليس من النوع الذي يخلط بين العمل والصداقة. وبالتالي كان يعلم علم اليقين بأنّه لو واجه ذات يوم مشاكل جدّية، فإنّه ليس جوردان من عليه أن يدقّ بابه.

تنهّد ناتان. لم يفلح في إخفاء وجهه: كان صدامه مع غاريت وانتحار كيفن قد هزّاه. ناهيك عن الألم الذي لا يزال يعتصر صدره.

الحقّ يُقال، لم يعد يعرف ما هو رأيه بكلمات غودريش عن المبشّرين. ولكن أمراً واحداً كان مؤكّداً: كان بحاجة إلى استراحة،

بحاجة إلى أن يأخذ وقته وأن يستغلّ العطلة القادمة ليهتمّ أكثر بابنته.

طرح سؤاله ثانيةً:

- كم يوم إجازة أخذتُ خلال السنوات الثلاث الأخيرة هذه؟

- تقريباً ولا يوم، أقرّ جوردان.

- نحن لا نذهب غالباً إلى حدّ المحاكمة، ولكن في المرّات التي ذهبنا إليها، كم دعوى خسرت؟

تنهّد جوردان ولم يستطع أن يحبس ابتسامة خفيفة. كان يعرف تلك اللازمة عن ظهر قلب. كان ناتان محامياً موهوباً ولكنه ليس متواضعاً أبداً.

- لم تخسر أيّ قضية خلال السنوات الأخيرة هذه.

- لم أخسر أيّ قضية طوال مهنتي. صحّح ناتان.

أقرّ جوردان ثمّ سأل:

- أهذا بسبب مالوري؟ أهذا هو السبب؟

أجاب ناتان متجنّباً سؤاله:

- اسمع، سأحتفظ بهاتفي النقّال وجهاز النداء لنبقى على اتصالٍ دائم إن كانت هناك مشكلة.

- حسنٌ، خذ إجازاتك إن كان هذا ما تريده. لستَ بحاجة إلى إذني لذلك. سأشرِف بنفسي على ملفّ Rightby's.

معتبراً أنّ النقاش قد انتهى، استغرق ثانية في الأرقام التي توالت على شاشة حاسوبه.

ولكن ناتان لم يقف عند ذلك الحدّ. غالى في مطلبه لكي يبدي ملاحظة:

- أنا أطالب بقليلٍ من الوقت لأكرّسه لابنتي، لا أرى ما المشكلة في ذلك.

- لا مشكلة في ذلك، قال جوردان وهو يرفع عينيه. الشيء الوحيد المهمّهو أنّ طلبك هذا لم يكن متحسّباً له وأنت تعلم جيّداً أنّه في مهنتنا، علينا أن نتحسّب لكلّ شيء.

11 كانون الأوّل

رنّ المنبّه في الساعة الخامسة والنصف.

رغم هذه الساعات من النوم، لم يكن الألم قد زال. بل على العكس، كان لا يزال يعصر تجويفه الصدري وكأنّ ناراً قد أُضرِمَت وراء عظم القصّ. بل كان يشعر بأنّ الألم ينتشر الآن في كتفه اليسرى ويبدأ بالانتشار في طول ذراعه.

لم يكن عنده الهمّة للاستيقاظ حالاً. ظلّ مستلقياً في سريره وتنفّس بعمق محاولاً أن يهدّئ نفسه. بعد لحظات، انتهى الأمر بزوال الألم ولكنّه ظلّ مستلقياً لعشر دقائق إضافية متسائلاً عمّا قد يفعله بهذا النهار. أخيراً اتّخذ قراراً.

تبّاً! لن أخضع للأحداث من دون أن أفعل شيئاً، يجب أن أعرف!

وضع قدماً خارج السرير ثم أخرى، وانسلّ سريعاً إلى تحت الدوش. اشتهى كثيراً فنجاناً من القهوة ولكنّه أحسن مقاومة الإغراء: كان عليه أن يبقى على الريق إن أراد أن تؤخَذ منه عيّنة من الدم لتحليلها.

ارتدى ثياباً دافئة ونزل بالمصعد ثم اجتاز بخطى سريعة الزخارف التي كانت تزيّن مداخل المبنى. توقّف لبرهة ليلقي التحية على البواب الذي كان يقدّر لطافته.

- صباح الخير، يا أستاذ.

- صباح الخير، يا بيتر، ماذا فعل لاعبو نيكس البارحة مساءً؟
- لقد فازوا بفارق عشرين نقطة على سياتل. وقد سجّل وورد بعض السلاّت الجميلة...
- هذا أفضل، آمل أنّهم سيفعلون الشيء نفسه في ميامي!
- ألا تمارس رياضة الجري هذا الصباح؟
- كلاّ، الماكينة صدئة بعض الشيء الآن.
- أصلحها سريعاً إذاً...
- شكراً، يا بيتر، طاب نهارك.

في الخارج، كان لا يزال الظلام مخيّماً، وكان الصباح الباكر جليدياً. عبر الشارع ثمّ رفع عينيه لينظر إلى برجي سان ريمو. لمح نافذة شقته في الطابق الثالث والعشرين من البرج الدائري. وككلّ مرّة، راوده التفكير نفسه: **مع ذلك لا بأس.**

لا بأس بالوصول إلى هنا بالنسبة لصبيٍّ تربّى في حيٍّ قذرٍ من جنوب كوينز.

كانت طفولته حقّاً شاقّة جداً. طفولة متّسمة بالفقر وضنك العيش. حياة فقيرة ولكنّها ليست بائسة وإن كانا هو وأمّه يأكلان أحياناً بفضل بطاقات الطعام، البطاقات الغذائية التي كانت توزّع على الأكثر عوزاً.

نعم، مع ذلك لا بأس.

لأنّ 145 سنترال بارك ويست، كان بلا شكّ أحد أكثر العناوين سحراً في القرية السكنية. تماماً مقابل الحديقة في مواجهة المترو الذي لا يضطرّ الناس هنا غالباً لأن يستقلّوه. في الشقق المئة والست والثلاثين التي كانت تضمّها تلك العمارة، كان هناك رجال أعمال ونجوم المال، وعائلات نيويوركية عريقة، ونجومٌ للسينما أو الغناء.

كانت ريتا هيوارث قد عاشت هنا إلى حين وفاتها. ويُقال إنّ داستن هوفمان وبول سيمون كانا يملكان شقّة في هذه العمارة.

كان ينظر دائماً إلى قمّة المبنى المقسّم إلى برجين توأمين يعلو كلاً منهما معبدٌ رومانيٌّ صغير يعطي للعمارة ملامح مقلّدة لكاتدرائية قروسطية.

ومع ذلك لا بأس.

مع ذلك كان عليه أن يعترف بأنّه حتى وإن كان محامياً كبيراً ما كان ليستطيع أن يدفع ثمن تلك الشقّة لو لم تكن له تلك الحكاية مع حميه، أخيراً، حميه السابق، جيفري ويكسلر.

لأمدٍ طويل، كانت شقّة سان ريمو هذه استراحة ويكسلر حينما كان يأتي إلى نيويورك من أجل أعماله. كان رجلاً صارماً وعنيداً، نتاجاً صافياً لنخبة بوسطن. كانت هذه الشقّة تخصّ آل ويكسلر منذ بنائها. أي منذ أزمة 1930 الاقتصادية، تاريخ بناء العمارة من قبل ايمري روت، المهندس المعماري العبقري الذي كانت له أصلاً عمارات عديدة أخرى ساحرة واقعة حول سنترال بارك.

في سبيل الحفاظ على الشقّة والاعتناء بها، استخدم ويكسلر امرأة من أصلٍ إيطالي: تُدعى اليانور ديل آميكو وكانت تعيش في كوينز مع ابنها. في البداية، استخدمها ويكسلر على الرغم من معارضة زوجته التي ارتأت بأنّه من غير المناسب استخدام أمٍّ عزباء. ولكن لأنّ اليانور كانت مُرضية، طلبا منها الاهتمام أيضاً بمنزل عطلتهما في نانتوكيت.

وهكذا بعد عدّة فصول صيفية، رافق ناتان أمّه إلى الجزيرة. وهناك وقعت الحادثة التي غيّرت حياته: لقاؤه مع مالوري.

قدّم له عمل والدته مكاناً في حجرات البيت ليتأمّل بحسدٍ تلك

الأميركية من فئة WASP التي بدا أن ليس للزمن تأثير عليها. هو أيضاً كان قد أراد طفولةً مليئة بدروس البيانو وبنزهات الشراع في ميناء بوسطن وبأبواب صافقة لسيارات مرسيدس. بالطبع لم يكن له أيّ شيءٍ من هذا: لم يكن له أب ولا أخ ولا مال. لم يكن يحمل شعار الشرف المشكوك على ظهر بزّة مدرسية خاصّة، ولا البلوزة البحرية المطرّزة يدوياً والمدموغة بماركة شهيرة.

ولكن بفضل مالوري، استطاع أن يتذوّق بشراهة بعض فتات ذلك الفنّ اللازمني للحياة. دُعي أحياناً إلى نزهاتٍ فاخرة ومعقّدة في الزوايا المظلّلة لنانتوكيت. وقد رافق مراراً عديدة ويكسلر في رحلات صيد السمك التي كانت تنتهي حتماً بتذوّق فنجانٍ من القهوة المثلّجة وطبقٍ من حلوى البراوني الطازجة. وحتى السيّدة المميّزة جدّاً إليزابيت ويكسلر سمحت له أحياناً بأن يستعير كتباً من مكتبة ذلك البيت الكبير الذي كان كلّ شيء فيه صقيلاً ونظيفاً ومشرقاً.

مع ذلك، رغم تلك الحفاوة الظاهرة، كان السيّد والسيّدة ويكسلر منزعجين دوماً من أنّ ابن الخادمة قد أنقذ ابنتهما من الغرق ذات يومٍ من أيام شهر أيلول 1972.

ولَم يخفّ ذلك الانزعاج قطّ. بل على العكس لم يكفّ عن التنامي بمرور الوقت ليتحوّل إلى عدوانية صريحة حينما أبلغاهما مالوري وهو عن نيتهما في أن يتساكنا ومن ثمّ يتزوّجا.

فاستخدم السيّد والسيّدة ويكسلر كلّ السبل ليبعدا ابنتهما عمّن قالت إنّها تحبّه. ولكن لم يجدِ أيّ شيء نفعاً: فقد قاومت مالوري. وقد عرفت أن تكون أقوى من الدعوات المزعومة إلى التعقّل. أقوى من تهديدات ووجبات العائلة التي سادها منذ ذلك الحين الصمت أكثر من الأحاديث.

استمرّت الذراع الحديدية حتى عيد ميلاد العام 1986 الشهير

ذاك، خلال سهرة الميلاد في المنزل العائلي الكبير الذي ضمّ جزءاً من النخبة الأرستقراطية لبوسطن. نزلت مالوري مع ناتان ممسكةً بذراعه وقدّمته للجميع على أنّه «زوجها المستقبلي». أدرك جيفري وليزا ويكسلر حينذاك أنّهما لن يستطيعا أن يعارضا إلى الأبد قرار ابنتهما. وأنّ الأمر سيكون هكذا وليس بطريقة مختلفة وأنّه سيكون عليهما بطريقة أو أخرى أن يقبلا بـ ديل آميكو إن كانا حريصين على الحفاظ على مالوري.

ذُهل ناتان بصدق لإصرار زوجته على فرض خيارها وأحبّها لذلك أكثر. اليوم أيضاً، حينما يفكّر من جديد في تلك السهرة المشهودة، تنتابه ارتعاشات. بالنسبة له، سيبقى ذلك المساء إلى الأبد المساء الذي قالت له مالوري فيه نعم. نعم، أمام أعين الآخرين. نعم، أمام الدنيا كلّها. ولكن حتى بعد أن أُعلِنَ زواجهما، لم يعترف السيد والسيدة ويكسلر به فعلياً كواحدٍ منهم. حتى بعد أن نال شهادته من جامعة كولومبيا؛ وحتى بعد أن عمل في أحد المكاتب المرموقة للمحامين. لم تكن المسألة مسألة المال وإنّما المنبت الاجتماعي. وكأنّ، في هذا الوسط، تخصّك الولادة منذ البداية بوضعٍ ما لا يمكنك بكلّ السبل التحرّر منه أيّاً كانت أفعالك أو ثروتك.

بالنسبة لهما، سيكون على الدوام ابن الخادمة، الشخص الذي اضطرا للقبول به لئلا ينفصلا عن ابنتهما ولكنّه لم يكن ينتمي أبداً إلى الحلقة العائلية الفعلية. والتي لن ينتمي إليها أبداً.

ثمّ كانت تلك القضية. في عام 1995.

الحقّ يقال، لم تكن تلك القضية تخصّ مباشرة حقل كفاءته. ولكن حينما رأى ناتان الملفّ يصل إلى ماربل أند مارش، ألحّ على أن يهتمّ بأمره.

لم تكن القضية عصية على الفهم: بعد شراء مؤسسته من قبل

شركة كبيرة للمعلوماتية، اعتبر أحد الأعضاء المؤسسين لشركة سوفت أونلاين آنّه قد استُبعِدَ بطريقة غير شرعية من قبل المساهمين الجدد وطالب بتعويضٍ قدره عشرون مليون دولار. وكان رفض الشركة لدفع مبلغ كهذا قد تسبّب في خطر رفع دعوى. وفي هذه المرحلة، اتّصل الزبون بمكتب ماربل أند مارش.

في هذه الأثناء، كان المساهمون - الذين توجد شركتهم في بوسطن- قد أوكلوا أيضاً محاميهم: محامي مكتب برانغ أند ميتشل والذي كان أحد الشركاء الرئيسيين فيه... جيفري ويكسلر.

كادت مالوري تتوسّل زوجها للتخلّي عن تلك القضية. لن يكون لهذا الأمر أيّ نفعٍ لهما. لن يؤدّي ذلك سوى إلى تعقيد الأمور، ما دام ويكسلر بنفسه مكلّفاً بتلك القضية من قبل مكتبه.

ولكنّ ناتان لم يصغِ إليها. أراد أن يُظهِر لهم قدرات الزقاقيّ المنبوذ. اتّصل بجيفري ليخبره: لن يمسك القضية فحسب، بل سيكسبها.

فنهره ويكسلر.

في نوعٍ كهذا من القضايا، لا يتمّ الذهاب إلى حدّ رفع الدعوى. تتمّ تسوية كلّ شيء عموماً بصفقة بين الطرفين ويتلخّص عمل المحامين في محاولة التوصّل إلى التسوية الأنسب.

وبناءً على نصائح ويكسلر، قدّمت الشركة عرضاً مشرّفاً بـ 6,5 ملايين. وكان معظم المحامين سيقبلون بهذا الاتّفاق. إلا أنّ ناتان، وخلافاً لكلّ قواعد الحذر، أقنع زبونه بعدم القبول بذلك.

قبل بضعة أيام من موعد المحاكمة، قدّم برانغ أند ميتشل عرضاً أخيراً بـ 8 ملايين دولار. هذه المرّة، فكّر ناتان جدياً في التنازل. ثمّ نطق ويكسلر بهذه الجملة، بهذه الكلمات التي لن ينساها أبداً.

- لقد سبق أن كسبت ابنتي، ألا يكفيك هذا كغنيمة؟

- لم «أكسب» على وجه الدقّة، ابنتك كما تقول. لطالما أحببتُ مالوري، ولكن هذا ما تأبى فهمه.

- سوف أسحقك مثل صرصورٍ!

- ما زلت على ازدرائك، ولكنه لن يجديك كثيراً في هذه القضية.

- فكّر في الأمر مرّتين. إذا جعلت هذا الشخص يخسر ثمانية ملايين، ستتلقّى شهرتك ضربةً. وأنت تدري كم هي حسّاسة سمعة محام.

- اهتمّ بسمعتك، يا عجوزي.

- ليست لديك فرصة واحدة على عشرة في كسب هذه القضية. وأنت تعلم ذلك.

- إلى أيّ حدٍّ أنت مستعدّ للمراهنة؟

- أريد أن أُشنَق إن فشلت.

- لا أطلب الكثير منك.

- ماذا إذاً؟

فكّر ناتان للحظة.

- شقّة سان ريمو.

- أنت مجنون!

- كنتُ أعتقد أنّك لاعب ماهر، يا جيفري.

- على كلّ، ليست لك أيّ فرصة...

- لقد قلت للتوّ واحدة من عشرة...

كان ويكسلر واثقاً من نفسه جداً بحيث انتهى به الأمر إلى الانجرار إلى اللعبة:

- حسناً، فليكن. إذا كسبت، أترك لك الشقّة. سنعتبرها هديّة للاحتفال بميلاد بوني. ولاحظ أنني لا أطلب منك شيئاً إذا ما فشلت: فسوف تعاني كفاية في العودة إلى ما كنت عليه ولا أتمنّى أن ينتهي زوج ابنتي إلى الفقر المدقع.

وهكذا استمرّت معركتهما كرجلين. لم يكن رهانٌ كهذا مهنياً تماماً - كان ناتان يدرك تماماً أنّه لا يرتقي من خلال استخدام زبونٍ بهذه الطريقة لتصفية حسابٍ شخصي - ولكنّ الفرصة كانت مناسبة جدّاً.

كانت هذه القضية بسيطة نسبياً ولكنّها ذات مخرجٍ غامض، وخاضعة لحساسية وتقدير القاضي. برفضه التسوية المقترحة من قبل ويكسلر، كان زبون ناتان يجازف بخسارة كلّ شيء. فجيفري محام محنّك وصلب. وموضوعياً، لم يكن مخطئاً في قوله إنّ فرص خصمه كانت ضئيلة.

ولكن ناتان كسب القضية في النهاية.

وهكذا حسم القاضي فريدريك ج. ليفنغستون في نيويورك الأمر بأن حمّل الخطأ لشركة سوفت أونلاين وأمرها بدفع مبلغ الـ 20 مليوناً الذي كانت تدين به لموظّفها السابق.

لا بدّ من الإقرار له بذلك: أقرّ ويكسلر بهزيمته من دون تردّد وبعد ذلك بشهر، أُفرِغَت شقّة سان ريمو من كل ما فيها. إلا أنّ مالوري لم تخطئ في رؤيتها: إذ لم تسوّي تلك القضية علاقات ناتان مع أنسبائه. كانت القطيعة بين جيفري وبينه تامّة بحيث لم يتبادلا الكلام منذ ذلك الحين لمدّة سبع سنوات. حتى إنّ ناتان يشكّ في أنّ السيّد والسيّدة ناتان كانا فرحَين سرّاً بطلاق ابنتهما. لم يكن بوسعه أن يتصرّف بخلاف ذلك.

أخفض ناتان رأسه وفكّر في أمّه.

لم تكن قد أتت قطّ لزيارته في هذه الشقّة. فقد توفيت بالسرطان قبل القضية الشهيرة بثلاث سنوات.

هذا لا يهمّ: فمع ذلك كان جيّداً ابنها الذي ينام في الطابق الثالث والعشرين من 145 سنترال بارك ويست.

هناك حيث عملت كخادمة لما يقارب عشر سنوات.

لم تكن الحياة سهلة أبداً بالنسبة لاليانور.

كان والداها، وهما من غاييتا، وهو ميناء صيدٍ في شمال نابولي، قد هاجرا إلى الولايات المتّحدة حينما كانت في التاسعة من عمرها. هذه الهجرة زعزعت بشدّة حياتها المدرسية لأنّها لم تنجح أبداً في التكلّم باللغة الإنكليزية بشكلٍ صحيح بحيث إنّها اضطرّت لترك المدرسة باكراً جدّاً.

في العشرين من عمرها، التقت فيتوريو ديل آميكو، وهو عامل بناء كان يعمل في ورشات لينكولن سنتر. كان متكلّماً بارعاً وذا ابتسامة فاتنة. بعد بضعة أشهر، وجدت نفسها حاملاً، وقرّرا أن يتزوّجا. ولكن بمرور الزمن، تبيّن أنّ فيتوريو رجلٌ عنيف، وغير وفيّ ويفتقر إلى المسؤولية وقد انتهى به الأمر أن غادر منزله من دون أن يترك عنواناً.

بعد مغادرة زوجها، تدبّرت اليانور أمرها بمفردها لتربّي ابنها، عملت بجهد. عملت أحياناً عملين أو ثلاثة لتعيش عيشة زهيدة. خادمة ونادلة وعاملة استقبال في فنادق رديئة: لم تنفر من المهمّة وتحمّلت الإهانات المتكرّرة المرتبطة بتلك الوظائف. ولأنّها كانت من دون أصدقاء حقيقيين ومن دون أقرباء لم يكن لديها أحدٌ تعتمد عليه.

لم تكن في بيتهما غسّالة ولا مسجّلة ولا تلفزيون ولكنّهما كانا يأكلان دائماً ما يشبعهما. كانا يعيشان بشحّ ولكن بشكلٍ مناسب. كان لناتان ثيابٌ نظيفة وكلّ الأدوات المدرسية التي يحتاج إليها للنجاح في المدرسة.

رغم التعب الذي كانت أمّه تراكمه، لم يرها قط تأخذ ما يكفي من الوقت للاعتناء بنفسها أو لتستمتع ببعض المتع الصغيرة. لم تكن تذهب في عطلة، ولم تفتح قطّ كتاباً ولم تذهب إلى السينما ولا إلى المطعم.

لأنّ الهمّ الوحيد لاليانور ديل آميكو كان تربية ابنها بشكلٍ صحيح. رغم افتقارها للتعليم والثقافة، بذلت أقصى ما لديها ليتابع مسيرته المدرسية ولتساعده بأفضل ما يمكن. لم تكن لديها شهادة ولكن كانت تمتلك الحبّ. حبٌّ لامشروط ودائم. كانت تردّد لابنها غالباً أنّها تشعر بالاطمئنان لأنّ لديها صبياً لا بنتاً: «سوف تتدبّر أمرك بطريقة أسهل في هذا العالم الذي لا يزال الرجال يسيطرون عليه»، كانت تؤكّد له.

خلال السنوات العشر الأولى من عمره، كانت والدته الشمس التي تنير حياته اليومية، الساحرة التي تداعب جبينه بخرقة بيضاء مبلّلة لتطرد كوابيسه، تلك التي كانت، قبل مغادرتها صباحاً إلى العمل، تترك له كلمات لطيفة وأحياناً بعض القطع النقدية التي يجدها لدى استيقاظه قرب قدح الكاكاو خاصته.

نعم، كانت أمّه قدوته، قبل أن يبدأ نوعٌ من الفارق الاجتماعي بالتفريق بينهما شيئاً فشيئاً.

اكتشف أوّلاً العالم الساحر جدّاً لآل ويكسلر، ثمّ، في الثانية عشرة من عمره، حظي بفرصة أن يُقبَل في مدرسة والاس سكول، إحدى المدارس الخاصّة في مانهاتن، التي تستقبل سنوياً حوالى عشرة

تلاميذ من أصحاب المنح الدراسية الذين يتمّ اجتذابهم من بين أفضل عناصر مدارس الأحياء البائسة. لمرّات عديدة، دُعي إلى بيوت زملائه الذين كانوا يسكنون في عمارات فاخرة في ايست سايد أو غراميرسي بارك. فبدأ يخجل بعض الشيء بأمّه. الخجل من أخطائها القواعدية ومن سوء أدائها للغة الإنكليزية. الخجل من أن يكون وضعها الاجتماعي إلى هذه الدرجة واضحاً من خلال لهجتها وعاداتها.

للمرّة الأولى، بدا له أنّ الحبّ الذي تكنّه له مزعجٌ وبدأ يتحرّر منه تدريجياً.

خلال سنواته الجامعية، كانت علاقاتهما لا تزال مفكّكة ولم يساهم زواجه في تسوية أيّ شيء. ولكن لم يكن ذلك خطأ مالوري التي لطالما ألحّت عليه أن يهتمّ بأمّه. كلا، لم يكن الذنب إلاّ ذنبه هو وحده. كان مهتماً للغاية بارتقاء درجات النجاح، لم يدرك أنّ أمّه كانت تحتاج إلى حبّه أكثر من ماله.

ومن ثمّ، حدث ذات صباحٍ كئيبٍ من تشرين الثاني 1991 أن استدعته المستشفى لتبلغه بوفاتها وقد عاوده آنذاك ذلك الحبّ على وجهه. ككثير من الأبناء من قبله، عضّه الندم في تلك اللحظة وتسلّطت عليه كلّ اللحظات التي بدا فيها لنفسه جاحداً ولامبالياً.

ومنذ ذلك الحين، لم يعد يمرّ يومٌ من دون أن يفكّر فيها. وكلّما كان يصادف في الشارع امرأة ترتدي ثياباً بالية ومنهكة من العمل ومتعبة قبل أن تبدأ نهارها، كانت تتراءى له أمّه ويتأسّف لأنّه لم يكن ابناً باراً؟ ولكن الأوان كان قد فات. وكلّ الملامات التي يمكنه توجيهها الآن لا تجدي في شيء. وكلّ الأعمال التي كان يمارسها ليغفر لنفسه، مثل تزيين قبرها بالزهور كلّ أسبوع، لم تحلّ أبداً محلّ الوقت الذي لم يقضه معها حينما كانت لا تزال على قيد الحياة.

عثر على صورتين في درج سريرها في المستشفى.

تعود الأولى إلى عام 1967. كانت قد التُقِطَت ذات أحدٍ في فترة ما بعد الظهيرة بالقرب من البحر في حديقة ملاهي كوني آيسلاند. كان ناتان في الثالثة من عمره. يمسك بقطعة مرطّبات مثلجة إيطالية بيديه الصغيرتين وينظر مذهولاً إلى الجبال الروسية. تمسكه أمّه بافتخار بين ذراعيها. كانت تلك واحدة من الصور النادرة التي تبتسم فيها.

كانت الصورة الأخرى مألوفة أكثر بالنسبة له لكونها تتعلّق بنيله لشهادة في المحاماة من جامعة كولومبيا. بثوب المحاماة خاصّته وببزّته الجميلة، بدا وكأنّه بقدر الدنيا. هذا مؤكّد، كان المستقبل يهمّه. قبل نقلها إلى المستشفى، كانت أمّه قد سحبت هذه الصورة من الإطار المزخرف الذي كان يتصدّر صالون منزلها. لحظة احتضارها، حرصت على أن تأخذ معها رمز نجاح ابنها والذي كان أيضاً علامة ابتعاده.

حاول ناتان إبعاد تلك الأفكار التي كانت تجعله ضعيفاً جدّاً.

كانت الساعة قد تجاوزت العاشرة بقليل.

دخل إلى مرآبٍ سفليّ لمبنى مجاورٍ استأجر فيه موقفين. تتوقّف في الأوّل سيارة جاكوار مقفلة، وفي الثاني سيارة رباعية الدفع فارهة ذات لونٍ أزرقٍ غامق.

قرّرا اقتناءهما حينما قرّرا أن ينجبا طفلاً ثانياً. كان ذلك من اختيار مالوري. فهي تحبّ الشعور بالأمان وبالعلوّ الذي يظهره هذا النوع من السيارات. كانت تهتمّ دائماً بأن تكون عائلتها مصونة. وتلك هي أولويتها في كلّ القرارات التي كان عليها أن تتّخذها.

ما الحاجة الآن لامتلاك سيارتين؟ تساءل ناتان وهو يفتح باب السيارة المغلقة. منذ أكثر من عام كان يفكّر في بيع السيارة ذات الدفع الرباعي (4×4) ولكنّه لم يكن لديه قطّ الوقت لذلك. كان على

وشك أن ينطلق حينما قال في نفسه إنّه ربّما من الأفضل أن يأخذ السيارة القادرة على السير في كلّ الطرقات لأنّ الطرقات قد تكون زَلِقة.

كانت رائحة مالوري لا تزال تفوح داخل السيارة. حينما أدار المحرّك، قرّر أنّه سيبيع السيارة الرياضية وسيحتفظ بالرباعية الدفع.

صعد طابقَي المرآب، أدخل بطاقة ممغنطة لفتح الحاجز وخرج إلى المدينة التي كان الظلام لا يزال يخيّم عليها.

لم يعد الثلج يتساقط، حتى الجوّ كان غريباً، متأرجحاً بين البرد والدفء المفاجئ. فتّش في علبة القفازات، فوجد أسطوانة قديمة لليونارد كوهين، أحد المغنّين المفضّلين لزوجته السابقة. دسّ الأسطوانة في علبة الأسطوانات. كانت مالوري تحبّ المغنّين الشعبيين خصوصاً والمعارضين عموماً. منذ بضع سنوات، ذهبت إلى أوروبا، إلى جنوا، للاحتجاج ضدّ شرور العولمة والسلطة المطلقة للشركات المتعددة الجنسيات. وخلال الانتخابات الرئاسية الأخيرة، شاركت بنشاط في حملة رالف نادر، وحينما كانت تعيش على الشاطئ الشرقي، لم تتخلّف عن أيّ احتجاجٍ من احتجاجات واشنطن ضدّ صندوق النقد الدولي والبنك الدولي. كانت مالوري معارضة لكلّ شيء: معارضة للدين ولبؤس البلدان الفقيرة، معارضة لتلويث البيئة، معارضة لعمل الأطفال... في السنوات الأخيرة هذه، ناضلت بقوّة ضدّ الخطر الناجم عن الأغذية المعدّلة وراثياً. وقد كرّست الكثير من وقتها لإحدى الجمعيات المناضلة من أجل زراعة من دون سماد ولا مبيدات. قبل انفصالهما بعامين، كان قد رافقها لبضعة أيام في الهند حيث كانت الجمعية قد أعدّت برنامجاً طموحاً لتوزيع بذور صحية على الفلاحين بغية تشجيعهم على الاحتفاظ بنمط زراعتهم التقليدية.

كان ناتان دائماً شديد الانتقاد حيال كرم الأثرياء ولكن، بمرور الوقت، انتهى إلى الاعتراف بأنّ الواقع، بالنسبة له هو الذي لم يكن يفعل شيئاً، كان هكذا دائماً.

كما أنّه، رغم استهزائه أحياناً بالنزعة النضالية لزوجته، كان معجباً بها في سرّه لأنّه كان يعرف جيّداً لو أنّ العالم كان سيعتمد على أشخاصٍ من أمثاله ليتقدّم نحو الأفضل، لما انتهى انتظاره.

كانت حركة السير لا تزال خفيفة في ذلك الوقت، ولكنّ الحال لن تكون كذلك بعد نصف ساعة. سلك اتّجاه لاور مانهاتن ولم يعد يفكّر في أيّ شيء تاركاً نفسه يترجّح بصوت كوهين الأجشّ.

قبل فولاي سكوير بقليل، ألقى نظرة من خلال المرآة العاكسة. كان أحد المقاعد الخلفية مغطى بغطاء سفرٍ مع شعار نورمان روكويل كانا قد اشترياه من بلومينغدالز في بداية زواجهما، وكانت بوني تحبّ أن تتغطّى به حينما يسافرون ثلاثتهم معاً.

كلا، لم يكن يحلم: كانت السيارة لا تزال مشبعة بعطر مالوري. رائحة الفانيليا وزهور مقطوفة. في تلك اللحظات، كان يفتقدها بشدّة. شعر بأنّها حاضرة بقوّة في روحه بحيث أحسّ مراراً عديدة بأنّه جالسٌ قرب ظلّها الحاضر على المقعد الجانبي، كشبحٍ.

كانت الأمور ستختلف كثيراً معها لو لم يحدث كلّ هذا: المال، اختلاف الوسط الاجتماعي، الحاجة إلى التفوّق لإظهار جدارته بها. سرعان ما اضطرّ لأن يكوّن لنفسه شخصية قائمة على الصلافة والفردانية وأن يخفي كلّ ما كان ضعيفاً في داخله. ليكون أحد أنجح الأشخاص، ولئلا يضطر للتأسّف بسبب نقاط ضعفه.

مستذكراً كلّ هذا، تملّكه الخوف من ألاّ يعود يلتقي مالوري أبداً. عدا ابنته، لم تعد له عائلة مقرّبة ولا صديق حقيقي. إذا ما

شارف على الموت، مَنْ سيهتمّ به؟ جوردان؟ آبي؟

وصل إلى أسفل لافاييت ستريت وشعر فجأةً بأنّه يرزح تحت موجة كبيرة من الحزن.

حينما سلك معبر بروكلين بريدج، انخطف بمرجوحة الحبال الفولاذية للجسر المعلّق. كان عقدا الجسر يجعلانه دائماً يفكّر في المدخل العجيب لعمارة قوطية ويتعارضان مع الأشكال الحديثة لصفّ ناطحات السحاب المشوّه أبداً جرّاء اختفاء البرجين التوأمين.

كان ذلك ضرباً من الحماقة، ولكن كلّما مرّ من هناك، في أيام الضباب، كاد يتوقّع رؤيتهما وهما يظهران مجدداً عند الانعطاف بواجهتيهما اللامعتين وقمتيهما المعانقتين للسماء.

فجأةً، تجاوزه موكبٌ لسيارات الإسعاف تتوجّه، وهي تطلق صفاراتها وفوانيسها الدوّارة، نحو بروكلين. لا بدّ أنّ حادثاً خطيراً وقع في مكانٍ ما خلال الليل الصقيعي. يا إلهي، هكذا كانت نيويورك! كان يحبّ ويكره هذه المدينة في آنٍ واحد. وكان ذلك عصياً على الشرح.

شارد الذهن وهو يقود سيارته، سلك طريقاً فرعياً عند الخروج من المعبر ووجد نفسه في الشوارع الضيّقة لبروكلين هايتز. جال لبضع دقائق في ذلك الحيّ الهادئ قبل أن يجد ممرّاً نحو فولتن ستريت. هناك، سحب هاتفه المحمول من جيبه وأدرج فيه رقماً عاود ذاكرته منذ بعض الوقت. ردّ عليه صوتٌ نشيط:

- الدكتور بويلي، أستمع إليك.

كانت عيادة الدكتور بويلي مؤسسة مشهورة بنوعية رعايتها الطبية. وكان المكتب يرسل إليها منتسبيها الجدد لإجراء الفحص الطبي الضروري لجعل توظيفهم رسمياً. ومنذ فترة، كانت العيادة قد طوّرت

نشاطاتها وأنشأت أيضاً قسماً مركزياً لمكافحة التسمّم لمجموعة مختارة من الزبائن في الساحل الشرقي.

- ناتان ديل آميكو، من مكتب ماربل آند مارش. أودّ أن أجري فحصاً كاملاً.

- سأحوّلك إلى المقسم، ردّ الآخر، حانقاً من كونه قد أُزعِجَ شخصياً في وقتٍ مبكرٍ جدّاً من الصباح لمجرّد تحديد موعد.

- كلا، يا دكتور، أريد أن أتحدّث إليك أنت.

صمت الطبيب صمتاً مفاجئاً ولكنّه ظلّ لبقاً.

- حسناً... أستمع إليك.

- أريد أن أجري فحصاً طبيّاً شاملاً، استدرك ناتان: تحليل دم، صور بالأشعة، فحوصات قلبية...

- اطمئنّ: كلّ شيء متضمَّن في فحصنا الإجمالي.

سمع ناتان أنّ الطبيب على الطرف الآخر من الخطّ ينقر على بعض ملامس لوحة أزرار حاسوب.

- يمكننا أن نحدّد موعداً... خلال عشرة أيام، اقترح بويلي.

- خلال عشر دقائق بالأحرى، أجاب ناتان سريعاً بالمثل.

- أنت... أَتمزح؟

وصل ناتان إلى منطقة بارك سلوب. سلك منعطفاً باتجاه حيّ سكنيّ أنيق واقعٍ إلى الغرب من بروسبيكت بارك. تحدّث بصوتٍ مهنيّ جداً ليقول:

- دافع عنك المكتب في قضية مالية. وكان ذلك منذ ثلاثة أعوام إن لم تخنّي الذاكرة...

- هذا صحيح، أقرّ بويلي، وقد فوجئ أكثر. وقد أحسنتم أداء عملكم إذ إنني بُرِّئت.

- أعرف ذلك، استطرد ناتان، إنّ أحد مساعديّ هو من تكفّل بملفّك وأعتقد أنّك كنت قد أخفيت بعض الوثائق عن الدوائر المالية.

- ولكن ما. . . ما قصدك من وراء ذلك؟

- لنقل إنّ لدي بعض الأصدقاء في إدارة الخزينة ربّما كانوا مهتمين بهذه المعلومات.

- هذا مناقض لكلّ أعراف مهنتك! احتجّ الطبيب.

- بالطبع، وافقه ناتان، ولكنّك حقّاً لا تدع لي خياراً.

وهو يسير في بينيتنت ستريت، أبهرت أضواء سيارة مقبلة من الاتجاه المعاكس بصر المحامي.

يا للأبله!

ترك هاتفه يسقط من يده مكرّساً كلّ جهده لتدوير المقود بشدّة إلى اليمين. تحاشى في آخر لحظة السيارة الأخرى.

- ألو؟ استأنف الكلام بعد أن التقط هاتفه.

للحظة، اعتقد أنّ بويلي قد أغلق السماعة ولكن الطبيب، بعد أن صمت طويلاً، أكّد بصوت من يتظاهر بأنّه مطمئن:

- من غير الوارد أن أستسلم لابتزاز كهذا. إن كنت تعتقد بأنّني سوف أدع نفسي أشعر بأنّ. . .

- لا أطلب منك الشيء الكثير، تنهّد ناتان. فحصٌ طبيّ كامل بدءاً من اليوم. وسأدفع لك أجرةً مرتفعة، بالطبع.

وجد مكاناً غير بعيد عن العيادة. كان الليل قد انجلى بعض الشيء وبدأ النهار بالطلوع. صفق باب السيارة وأقفل الأبواب أوتوماتيكياً وصعد الشارع المزيّن بحاملات المصابيح المصنوعة من الحديد المطرّق.

على سماعة الهاتف، صمت الدكتور بويلي من جديد قبل أن يستسلم:

- اسمع أنا لا أحبّذ أساليبك ولكنني سأرى إن كنتُ أستطيع أن أجد لك موعداً. في أيّة ساعة تودّ أن تأتي؟

- لقد جئت، قال ناتان وهو يدفع باب العيادة.

7

الأموات غير مرئيين، ولكنّهم ليسوا غائبين.

سان أوغسطين

أُدخِل إلى حجرة باردة ومعتمة، غارقة في ضوءٍ شاحب. على السرير، كانت هناك، بشكلٍ ظاهر، بطاقة تلخّص مختلف مراحل الفحص الطبّي العام. اتّبع ناتان الإرشادات حرفياً: تجرّد من ثيابه، ارتدى بلوزة قطنية، غسل يديه وتبوّل في مبولة قبل أن يلتقي مرشداً أخذ منه عيّنة من الدم.

جرت الزيارة على كلّ مساحة العيادة تقريباً. كان على المُراجع، وهو مزوّد ببطاقة ممغنطة، أن يتنقّل بين غرفٍ متتالية يُستقبَل فيها من قبل مختلف الاختصاصيين.

بدأت الحفلة بفحصٍ سريريٍّ شاملٍ أجري من قبل طبيبٍ خمسينيٍّ جافّ وأشيب يُدعى الدكتور بلاكترو.

بعد أن تفحّصه بدقّة، سأل المحامي عن سوابقه المرضية الشخصية والعائلية.

كلاّ، لم تكن لديه قط مشاكل صحية خاصّة، عدا داء المفاصل في سنّ العاشرة وداء وحيدات النوى في التاسعة عشرة من عمره.

كلاّ، ولا MST.

كلا، لا يعرف سبب وفاة والده. ولا إن كان قد مات أصلاً.

كلا، لم تمت والدته بمرضٍ قلبيٍّ عِرْقِيّ.
ولم تكن مصابة بمرض السكّري.
أجداده؟ لم يعرفهم قط.
ثمّ أعطى لنفسه الحقّ في طرح أسئلة عن نمط حياته.
كلا، لا يشرب الكحول، ولم يعد يدخّن منذ ولادة ابنته. نعم، كانت فعلاً علبة سجائر في جيب سترته (لقد فتّشوا ثيابي!) ولكنّه لم يشعل أيّ سيجارة منها: كانت فقط لإشغال يديه.
نعم، يتناول أحياناً مهدّئات التوتر، ومهدّئات القلق أيضاً. مثل نصف الذين لهم حياة متقلّبة.
ثمّ أُرسِل إلى غرفة اختصاصيّ في حالات الإرهاق العامّ حيث أجرى اختبارات معقّدة بغية قياس مدى قلقه المهني والعائلي.
نعم لقد عانى من انفصالٍ زوجي.
كلا لم يُفصَل من عمله.
نعم، لقد عانى حديثاً من موت شخصٍ مقرّب.
كلا، لم يكن لديه رهنٌ عقاري.
نعم، لقد تغيّرت أحواله المادية حديثاً... ولكن نحو الأفضل.
تغيّر في عاداته الخاصّة بالنوم؟ أعتقد أنّه لم تكن له حقّاً عادة بهذا الخصوص وربّما تلك كانت المشكلة. **أنا لا أخلد إلى النوم، أنا أستسلم له، كما كان يقول الآخر.**
في نهاية هذا التقييم، أغدق عليه الطبيب سلسلة من النصائح التي لا قيمة لها والتي من المفترض أن تساعده على نحوٍ أفضل في السيطرة على ما أسماه «حالات من القلق النفسي الانفعالي».
استمع ناتان إلى كلّ تلك التوصيات ولكنّه كان يتمتم في داخله:
لا أريد أن أتحوّل إلى سيّد مرفّه، أريد فقط أن أعرف إن كانت حياتي في خطر على المدى القصير.

ثمّ بدأت الأمور الجدية مع الفحص القلبي.

ارتاح لرؤية الاختصاصي في الأمراض القلبية، بدا إنسانياً وعطوفاً. شرح له ناتان وجع صدره الذي كان يؤلمه منذ عدّة أيام. أصغى إليه الطبيب بانتباه طارحاً عليه أسئلة إضافية حول ظروف وجعه وشدّته على نحوٍ دقيق.

قاس ضغطه ثم طلب منه الجري على جهازٍ نقّالٍ مائلٍ لقياس إيقاع قلبه بعد بذل الجهد.

ثمّ أجرى مخطّطاً كهربائياً للقلب وصورة صوتية وصورة ايكودوبلر: لو كان يعاني من شيءٍ ما في القلب، لظهر لنا.

تواصلت المعاينة بفحص ORL. هناك، فحصه طبيبٌ مختصّ بأمراض الأذن والأنف والحنجرة حلقه وأنفه وجيوبه الأنفية وأذنيه.

رفض أن يجري تخطيطاً للسمع: كلا، ليست لديه اضطرابات في السمع.

بالمقابل، أُرغِم على الخضوع لتنظيرٍ اليافيّ للحنجرة ولتصويرٍ شعاعيّ للرئتين: لم يكن تفسيره بتأثير التدخين مقنعاً.

- نعم، حسناً، اتّفقنا، يحدث لي أيضاً أن أدخّن سيجارة من حين لآخر، أنت تعرف ما هو...

كذلك لم يكن متحمساً جداً لفحصٍ تنظيريّ باطني للمعي المستقيم. ولكنهم أكّدوا له أنّ العملية ليست مؤلمة.

حينما دفع باب الطبيب المختصّ بالأمراض البولية، خمّن أنّهم سيتحدّثون عن البروستات. وهذا ما حدث تماماً.

كلا، لم يستيقظ بعد لثلاث مرّات في الليل لكي يتبوّل. كلا، لم يكن يشعر بانزعاجٍ عند التبوّل. من جهة أخرى، كان لا يزال صغيراً بعض الشيء على تورّم في غدد البروستات، أليس كذلك؟

انتهت المعاينة بفحصٍ ايكوغرافيٍّ اشتمل على تمرير مسبار على مختلف أجزاء جسمه. واستطاع بذلك أن يرى على شاشة صغيرة صوراً واضحة لكبده وبنكرياسه وطحاله وحويصلته.

نظر إلى ساعته: إنها الثانية بعد الظهر. أفّ! كان يشعر بدوخة ويرغب في التقيّؤ. أجرى من الفحوصات في هذه الساعات أكثر مما أجرى منها طوال حياته.

- سوف تتلقّى النتائج بعد حوالى خمسة عشر يوماً، أخبره صوتٌ من ورائه.

التفت إلى الوراء ليرى الدكتور بويلي وهو ينظر إليه بصرامة.

- كيف ذلك، «حوالى خمسة عشر يوماً»! زمجر. ليس لديّ الوقت لأنتظر «حوالى خمسة عشر يوماً». أنا منهك، أنا مريض! أحتاج إلى أن أعرف مما أعاني!

- اهدأ، قال الطبيب، كنتُ أمازحك، يمكننا أن نجري تقييماً أوّلياً خلال أكثر من ساعة بقليل.

نظر إلى المحامي بانتباهٍ أكثر ثم قال بقلق:

- حقّاً تبدو متعباً جدّاً. إن كنت تريد أن ترتاح بانتظار النتائج، هناك غرفة شاغرة في الطابق الثاني. هل يمكنني أن أطلب من ممرّضة أن تجلب لك بعضاً من الطعام؟

قبِل ناتان. استرد ثيابه وصعد إلى الطابق الثاني وارتدى ثيابه في الغرفة المحدّدة قبل أن يرتمي على السرير.

أول ما راوده، كانت ابتسامة مالوري.

كانت مالوري نوراً. كانت مالوري شمسية. دائماً ممتلئة بالحيوية والبهجة. اجتماعية جدّاً، في حين كان ناتان يعاني من مشكلة في هذا الجانب. في مرحلة ما، أعادا طلاء منزلهما وقد ظلّ لأيامٍ عديدة لا يوجّه الكلام إلى العامل الذي يعيد طلاء منزله في حين احتاجت

مالوري إلى أقلّ من ساعة لتعرف جوهر حياته: بدءاً من المدينة التي وِلدَ فيها وصولاً إلى اسم أولاده. لم يكن ناتان يزدري الناس، بل على العكس من ذلك، ولكنّه في معظم الوقت لم يكن يجيد التحدّث إليهم. حقّاً لم يكن «رجلاً لطيفاً» بالتحديد. كانت مالوري، بطبيعتها، شخصية إيجابية تثق بالآخرين. أمّا هو فلم يكن إيجابياً. بخلاف زوجته، لم يكن ينخدع بطبيعة الإنسان.

رغم الطبائع المتناقضة، كانت حياتهما الزوجية قد عرفت سنواتٍ من السعادة العميقة. كان كلاهما يجيد القيام بالتسويات. بالطبع، كان ناتان يكرّس الكثير من الوقت في عمله ولكن مالوري كانت تقبل بذلك وتتفهّم حاجته إلى ارتقاء درجات السلّم الاجتماعي. بالمقابل، لم يكن ناتان ينتقد أبداً الالتزامات النضالية لزوجته، حتى وإن كان يعتبرها أحياناً ساذجة جدّاً أو فولكلورية. وقد عمّقت ولادة بوني ووسّعت أكثر تفاهمهما.

في أعماقه، كان يعتقد دائماً بأنّ زواجه سيكون محمياً إلى الأبد من الانفصال. ومع ذلك انتهيا بانفصال أحدهما عن الآخر. كان للعمل دور كبير في ذلك، لانشغاله المتزايد بالمسؤوليات الجديدة التي حصل عليها. كان العيب الكبير في حياتهما الزوجية هو ضيق الوقت، وكان يعرف ذلك جيّداً.

ولكن بشكلٍ خاص، كان هناك دور لوفاة سين، طفلهما الثاني، في الشهر الثالث من عمره.

حصل ذلك قبل ثلاثة أعوام، خلال فصل الشتاء، في بداية شهر شباط.

لأسباب غامضة، كانت مالوري ترفض أن تستخدم أحداً للاهتمام بالأولاد. مع أنّه كان من السهل جدّاً أن ترعى إحدى المربيات الفلبينيات الكثيرات جدّاً في أميركا بوني وسين. كان كلّ زملائه

يفعلون ذلك. ولكن مالوري كانت تشرح بأنّه في سبيل المجيء من أجل تربية أطفال الأثرياء الأميركيين، تُرغَم هؤلاء النسوة على ترك بلدهنّ وأطفالهنّ. إذا كان تحرير المرأة في الشمال يمرّ باستعباد المرأة في الجنوب، فهي، مالوري ويكسلر، تفضّل الاستغناء عن ذلك. الوالدان هما ولا أحد سواهما من عليهما الاعتناء بالأطفال. ما على الآباء إلاّ المزيد من المشاركة في التربية، هذا كلّ شيء. وإذا ما جانَبَكم الحظّ واحتججتم بأنّ المربية الفلبينية المذكورة تتلقى لقاء خدماتها مبلغاً لا يُستهان به يمكنها أن ترسله إلى بلدها لتمويل دراسة أطفالها لتحوّلتم آنذاك إلى استعمارٍ جديد فظيع ولشرعت في إطلاق خطابات ملتزمة أخرى تجعلك تندم على خوضك في هذا المجال.

بعد ظهيرة ذلك اليوم، غادر مكتبه على نحوٍ مبكر. وكانت مالوري قد تأهّبت للقيام بزيارتها الشهرية لوالديها. عموماً، كانت تصحب بوني معها، ولكن لأنّ الصغيرة كانت تعاني من التهاب اللوزتين ارتأت أن تجنّبها عناء السفر وتبقيها في نيويورك مع والدها.

استقلّت مالوري طائرة السادسة مساءً. صادفها ناتان عند عتبة الباب. عانقته سريعاً بعد أن قالت له أموراً من قبيل «لقد أعددتُ لك كلّ شيء؛ ما عليك إلاّ أن تسخّن الرضاعات في الميكروويف. ولا تنس أن تجعله يتجشأ...»

وجد ناتان نفسه وحيداً مع الطفلين. بالنسبة لبوني، كان لديه سلاحه السرّي: أسطوانة فيديو الحسناء والمتشرّد. في واحدة من نزواتها، كانت مالوري قد قرّرت في الواقع مقاطعة شركة ديزني بذريعة أنّ ميكي ماوس كانت تصنع منتجاتها المحرّفة في الصين أو في هاييتي من قبل متعهّدين لا يتوانون عن استغلال أطفالٍ في العمل.

ولكنّ هذا العمل الوطني لم يرق لبوني التي وجدت نفسها محرومة من الكثير من الرسوم المتحركة.

فأعطاها والدها الأسطوانة بعد أن جعلها تقسم إنها لن تخبر أمّها بشيء وانصرفت سعيدة جدّاً تشاهد فيلمها في الصالون.

كان ناتان قد وضع سين في سريره بجانب مكتبه. كان طفلاً هادئاً وصحّته جيّدة. شرب رضاعة حليب حوالي الساعة السابعة مساءً ونام من جديد. في الأوقات العادية، كان ناتان مولعاً بالاعتناء بالأطفال. لكن المشكلة أنّه في ذلك المساء لم يكن لديه حقّاً الوقت لذلك. كان يعمل على قضية هامّة وصعبة. إذ لم تعد تُعهَد إليه سوى القضايا الهامّة والصعبة، الأمر الذي يرغمه على اصطحاب المزيد من الملفّات إلى البيت. فينجزها ولكن بمشقّة.

بعد أن حضرت رسومها المتحركة، طلبت بوني أن تأكل (سباغيتي بالطبع: بعد الحسناء والمتشرّد ماذا كان بوسع المرء أن يأكل غير السباغيتي؟). أعدّ لها وجبتها، ولكنّه لم يستطع تناول العشاء معها. ومن ثمّ، ذهبت لتنام من دون أن تستمع إلى حكايات.

عمل بأقصى سرعة خلال الساعات الأربع التالية، ثمّ أعطى رضاعة أخيرة لسين عند منتصف الليل قبل أن يذهب بنفسه إلى النوم. كان منهوكاً وأراد أن يستيقظ باكراً صباح اليوم التالي. كان سين ساعة حقيقية. في عمره، كان قد سهر كثيراً بحيث كان ناتان مقتنعاً بأنّه قد ينام على الأقلّ حتى الساعة السادسة.

ولكن ها هي، في صباح اليوم التالي، الجثّة الهامدة لابنه وقد وجدها ملقاة على بطنها في السرير. في اللحظة التي رفع فيها ذلك الطفل الصغير الخفيف جداً بعد، لاحظ الغطاء المبقّع بقليلٍ من الرغوة الوردية اللون. سرى فيه إحساسٌ بالرعب وأدرك في الحال. كان الموت قد تمّ بصمت. كان مقتنعاً بذلك. كان نوم ناتان خفيفاً ولم يسمع أيّ بكاء، أيّ صرخة.

اليوم، الموت المفاجئ للرضيع شائع جداً. ككلّ والدين، كان

هو ومالوري قد تحسّبا لأضرار الوضعية البطنية خلال نوم الأطفال وقد اتّبعا دائماً نصائح طبيب الأطفال بتنويم سين على ظهره. . .

كما حرِصا على أن يكون وجه الرضيع مكشوفاً وفي الهواء الطلق، وألاّ تكون درجة حرارة الغرفة مرتفعة جداً أبداً (كانت مالوري قد ركّبت مثبّت حرارة متطوّر يبقي درجة الحرارة عند 20 درجة مئوية) وأن يكون اللحاف ثابتاً (كانا قد اشتريا اللحاف الأغلى، مع كلّ معايير السلامة). كيف يكونا من أفضل الوالدين؟

كان قد طُرِح عليه السؤال مراراً عديدة: هل أنام الطفل على ظهره بشكلٍ جيّد؟ أجل! أجل! كالعادة. كان ذلك ما يقوله. ولكنه في الواقع، لم يكن يتذكّر بدقّة لحظة قام بوضعه في سريره لينام. لم يكن المشهد يتراءى له ذهنياً. كلّ ما كان يتذكّره بدقّة، هو أنّه كان خلال تلك السهرة الملعونة مستغرقاً تماماً في عمله. بذلك الملفّ اللعين الخاصّ بتصالحٍ ماليٍّ بين شركتين جويّتين.

في حياته الأبوية، لم يكن أبداً قد أرقَدَ أحد طفليه على البطن ولا حتى على الجنب. لماذا سيكون قد فعل ذلك في تلك الليلة؟ كان ذلك مستحيلاً. كان يعلم أنّه لم يفعل ذلك، ولكنّه لم يكن يتذكّر بدقّة اللحظة التي قام فيها بتنويم ابنه. وكان ذلك الريب ينهشه ويفاقم من إحساسه بالذنب.

ثمّ بدورها، اخترعت مالوري لنفسها وهماً بالشعور بالذنب لأنّها لم تُرضِع طفلها الثاني. وكأن ذلك ليغيّر شيئاً!

لماذا تفجّرت حياته الزوجية بعد تلك المحنة بدل أن تترسّخ؟ كان غير قادرٍ على الإجابة بوضوح عن هذا السؤال الذي طرحه على نفسه يوماً بعد يوم. غير قادرٍ على تفسير تلك الحاجة الملحّة للانفصال التي استبدّت بهما.

هكذا جرت الأمور. سريعة نسبياً. أصبح وجوده معها فجأة لا يُطاق. كيف يمكنه العيش تحت وطأة نظرتها التي كانت، لاشعورياً، تتّهمه ربّما بموت سين؟ يعود إلى البيت ليتحدّث عن ماذا؟ العودة مرّة أخرى إلى الماضي؟ «أتتذكّر كم كان جميلاً؟ أتتذكّر كم انتظرناه؟ كم كنّا فخورَيْن به؟ أتتذكّر المكان الذي حبلت فيه به؟ في شاليه محطّة التزلّج في وايت مونتان.. أتتذكّر... أتتذكّر...»

لم يعد يعرف بماذا يجيب عن أسئلتها: هل تعتقد بأنّه في مكانٍ ما من السماء، يا ناتان؟ هل تعتقد أنّ هناك شيئاً ما بعد ذلك؟

لم يكن يعرف أيّ شيء عن ذلك. لم يكن يؤمن بشيء.

لم يكن قد تبقّى في داخله سوى ذلك الجرح المفتوح، ذلك الحزن الأبدي، ذلك الإحساس الرهيب بفراق طفله.

كان يائساً، محطّماً. لزمنٍ طويل، كان ضيقه شديداً بحيث لم تعد لديه الرغبة في أيّ شيء ما دام لا شيء بوسعه أبداً أن يُعيد طفله.

في سبيل الاستمرار في الحياة، اعتصم بالعمل. ولكن في المكتب، وأينما حلّ، كان يُطرح عليه دائماً السؤال نفسه: كيف حال زوجتك؟

دائماً السؤال عن زوجته.

وماذا عنه هو؟ عذابه هو. مَنْ كان يهتمّ به؟ لم يُسأل قط عن حاله، هو. كيف عاش كلّ ذلك. كان الناس يعتقدون بصلابته. *A tough man* الرجل القوّي. لقد كان كذلك تماماً في مهنته، أليس كذلك؟ رجل صلب، جارح، عديم الشفقة لم يكن له الحقّ في البكاء واليأس.

فتح ناتان عينيه ونهض متوثباً.

كان يعلم أنّه لن يُشفى أبداً من ذلك الجرح الممزّق.

بالطبع كان يحدث أحياناً أن يمضي لحظات ثمينة مع ابنته، وأن يستمتع بممارسة الرياضة، وأن يبتسم لفكاهةٍ من أحد مساعديه.
ولكن، حتى في تلك اللحظات، لم يكن جرح ذكرى سين يبارحه.

بعد ساعةٍ من ذلك

كان ناتان يجلس في أريكةٍ قبالة الدكتور بويلي، ويتأمّل إطاراً مزخرفاً يضمّ شهادةً مع ترجمة لاتينية لمقولةٍ لأبيقراط:

Vita brevis, ars longa, experimentum periculosum, judicium difficile.

- الحياة قصيرة، الفنّ طويل، الخبرة خطيرة، والحكم صعب.

ترجم الطبيب. هذا يعني أنّ...

- أفهم جيّداً ما معنى هذا، قاطعه ناتان. أنا مجازٌ في القانون، لا نجمة من نجمات البوب السائرات على الدُرجة اللواتي يأتين إلى هنا للمعالجة من التسمّم.

- حسناً، حسناً، ممتاز، قال الطبيب الملسوع بكلامه.

قدّم له وثيقة صغيرة من حوالى عشرين صفحة تحمل عنوان: **تقرير طبيّ.**

تصفّح ناتان بضع صفحات من دون أن يقرأها فعلياً، ورفع رأسه نحو بويلي وسأل بخشية:

- وماذا بعد؟

تنهّد الطبيب عدّة مرات ليطيل أمد الترقّب.

هذا الرجل ساديٌّ حقيقيّ.

تنحنح وابتلع ريقه.

- إذاً هيا، قل لي إنني سأموت!

- قناعتي، أنّك لن تموت غداً صباحاً. ليس هناك أيّ شيء مقلق في فحصك الطبيّ.

- أنت... أنت متأكّد؟ ولكنّ قلبي...

- لا تعاني من ارتفاع الضغط الشرياني.

- ونسبة الكولسترول عندي؟

هزّ بويلي رأسه.

- لا شيء خطير: كمية الكولسترول الضار LDL عندك ليست مقلقة.

- وهذا الألم في صدري؟

- ليس بالأمر العظيم: سيرجّح طبيب الأمراض القلبية، في أسوأ الأحوال، ذبحة صدرية كامنة سببها إرهاقٌ عامّ شديد.

- أليس هناك خطر جلطة قلبية؟

- هذا مستبعد جداً. مع ذلك سأترك لك بخاخ ترينترين، إن دعت الحاجة. ولكن يجب أن يتوقّف ذلك مع الراحة. أخذ ناتان الدواء الذي قدّمه له بويلي. كاد يقبّله. شعر وكأنّه قد تخفّف من حمولة زنتها ثلاثة أطنان.

شرح له الطبيب مطولاً تفاصيل كلّ نتائج الفحوصات المختلفة ولكن ناتان لم يعد يصغي إليه. لقد عرف ما هو جوهري: لن يموت في الحال.

ما إن أصبح في السيارة، حتى أعاد قراءة خلاصات كلّ جزء من أجزاء التقرير الطبي بتركيز. لا مجال للشكّ: كان في صحّة ممتازة. بل قلّما شعر بأنّه على هذه الحالة الممتازة. خلال بضع دقائق، ارتفعت حالته المعنوية كالسهم.

نظر إلى ساعته. هل كان حقّاً بحاجةٍ إلى هذه الأيام من العطلة؟

الآن وقد اطمأنّ، أليس من الأفضل أن يعود إلى العمل؟ عاد ناتان ديل آميكو إلى إعطاء التوجيهات. **آبي، اجلبي لي ملفّ Rightby's وفعّلي جميع مواعيدي. هل يمكنك أن تتأخري قليلاً في الانصراف هذا المساء، سننهي بعض الأعمال المهمّة!**

كلا. كان أفضل حالاً ولكنه لم يكن عليه حرق المراحل. كان صاحياً بما فيه الكفاية ليرى أنّ شيئاً ما لا يسير على نحوٍ طبيعي. وأراد حقّاً أن يذهب ليحضِر بوني.

استقلّ سيارة 4×4 وسلك اتّجاه سنترال بارك ويست.

اشتهى الكحول والسجائر. دسّ يده في جيب بزّته ووضع يده على علبته التي أخرج منها سيجارتين. «لا أشعلها أبداً، هي فقط لإشغال يديّ»، قلّد نفسه برعونة. عندئذٍ، أشعل السيجارتين في الوقت نفسه وقهقه ضاحكاً. لم يَحِن يوم الموت بعد.

8

نحن إذاً وحيدون في ظلمة هذه الحياة؟

حوار فيلم آبيس،

لجيمس كاميرون

ما إن وصل إلى بيته، أعدّ لنفسه بعض المعجنات. معكرونة بيني ريغات بالريحان وجبن البارميزان التي أرفقها بزجاجة من الخمر الكاليفورني. بعد أن تناول الطعام، استحمّ ثانيةً، وارتدى بلوفراً من الكشمير بياقةٍ ملفوفة وارتدى بزّة أنيقة.

عاد إلى المرآب، ترك سيارة 4×4 في مكانها ليستقلّ سيارته المغلقة. آه، كان يحيا من جديد! غداً، سيعود للجري في الحديقة، ثمّ سيطلب من بيتر أن يجد له أماكن لحضور مباراة كرة سلّة ممتعة في ماديسون سكوير غاردن. فتّش في العلبة الأمامية للسيارة بين العشرات من الأسطوانات التي كان يحبّ كثيراً الاستماع إليها وهو يقود سيارته. وضع في قارئة الأسطوانات ألبوماً لإيريك كلايتون وأبدى إعجابه كخبيرٍ بريف ليلى الذي لا يُنسى.

هذه هي الموسيقى الحقيقية!

هذا ما سيفعله خلال بضعة أيام العطلة: تكريس بعض الوقت للأشياء التي يحبّها حقّاً. كان لديه المال، ويعيش في إحدى أجمل مدن العالم، قد تكون الحياة أسوأ.

كان ناتان مرتاحاً. حقّاً مرتاحاً. هذه المرّة، كان ينبغي الاعتراف بأنّه قد خاف. ولكنّه الآن، لم يعد يحسّ بأيّ ألم. هو ذاك. كان مجرّد إرهاق عام. الضريبة التي كان عليه أن يدفعها للحياة العصرية، وهذا كلّ شيء.

بعد أن رفع صوت الراديو، فتح النافذة وأطلق صرخة صغيرة نحو السماء بينما كانت الـ V6 تهدر. مدركاً تماماً أنّه قد أسرف قليلاً في شرب شاردوني الكاليفورني، اضطرّ لأن يبطئ من السرعة. لم يكن الوقت مناسباً للتعرّض لحادث.

وضع سيارته على العبّارة وذهب إلى المركز الجراحي الذي زاره أمس. ولكن الدكتور غودريش كان غائباً.

- في هذا الوقت سوف تجده في وحدة العناية المسكّنة، دلّته موظّفة الاستقبال وهي تخربش له عنواناً على بطاقة.

خرج ناتان كالإعصار. كان حريصاً للغاية على أن يطّلع غاريت على نتائج فحصه الطبيّ الشامل.

بعد ذلك بخمس دقائق كان أمام مبنى وحدة العناية، وهو بناء جميل من الغرانيت الوردي محاطٌ بالخضرة.

عندما دفع باب الطابق السفلي، شعر بإحساسٍ غريب. في الواقع لم يكن المبنى يشبه بناءً طبيّاً. لم تكن هناك معدات متطورة للمعالجة ولا تلك الحركة التي تسود عادة المستشفيات. كانت شجرة تنوب ضخمة بزخارف تقليدية تتصدّر بهو المدخل. وفي أسفل الشجرة، تراكمت بعض طرود الهدايا. تقدّم ناتان نحو نافذة أرضية مطلّة على حديقة صغيرة منوّرة تماماً ومغطاة بالثلج. كان الليل قد هبط وتطايرت ندائف بيضاء في الهواء. ابتعد عن النافذة ليسلك ممرّاً يقود إلى قاعة عامّة واسعة ذات جدران مغطّاة بأقمشة أرجوانية وذهبية اللون. كانت

شموع صغيرة موضوعة تقريباً في كلّ مكان من القاعة، كنقاط علاّمة، في حين كانت أغاني دينيّة رائعة جدّاً تبثّ خفيةً. الكثير من العناصر التي ساهمت في خلق مناخٍ من الراحة والأمان في ذلك المكان.

من جهة الموظّفين، كان يبدو أنّ الجميع منهمكون في مهمّة، بحيث لا أحد ينتبه حقّاً إليهم.

استغرق ناتان للحظة في تأمّل امرأة لا تزال شابّة، جالسة في كرسيٍّ دوّار. كان جسدها نحيلاً ورأسها مائلاً إلى جنبٍ في وضعية ثابتة بيأس. كان أحد أفراد الطاقم الطبيّ يعطيها ملاعق صغيرة من الحساء وهو يشرح لها البرنامج الذي يُعرَض على التلفزيون، وهو عبارة عن رسوم متحرّكة. شعر ناتان بأنّ يداً انقضّت على كتفه.

- مرحباً، ديل آميكو، قال غودريش ببساطة من دون أن يندهش كثيراً لرؤيته. إذاً، لقد جئت لتزورنا زيارة قصيرة؟

- هذا أمرٌ مؤثّر، يا غاريت. لم آتِ قط إلى مبنى كهذا.

طاف به الطبيب في المركز. كان المبنى يضمّ حوالى مئة من الأسرّة التي تؤوي مرضى مصابين بأمراضٍ عصية على الشفاء، وهي غالباً السرطان في المرحلة النهائية أو السيدا أو أمراض عصبية. كان الكثير منهم منهكين جسدياً، وفي البداية شقّ على المحامي أن يتحمّل نظرتهم.

عند الانعطاف إلى ممرّ، تجرّأ على أن يسأل غودريش:

- هل المرضى يعلمون أنّ. . .؟

- أنّهم سيموتون؟ بالطبع. هنا، لا نكذب عليهم: يجب ألا تكون الساعة الأخيرة ساعة كذبٍ.

أنهى غاريت جولته المسائية وناتان يسير في إثره. كان بشوشاً ومطمئِناً، وفي كلّ مرّة، أخذ وقته لتبادل بعض الأحاديث الشخصية

مع أحد المرضى. في غالب الأحيان، لم يكن الحديث يدور عن المرض: يسأل عن أخبار العائلة والأصدقاء بالنسبة للذين يتلقّون زيارات. مع الآخرين، كان مستعداً أن يعلّق، مطوّلاً أحياناً، على آخر النتائج الرياضية أو الأحوال الجوية أو الأحداث الدولية. كان خطيباً لا مثيل له يدير المزاج بسهولةٍ ويسر. حتى المرضى الأقلّ دماثة كانوا ينتهون عموماً بالابتسام وقلّما كان يغادر غرفة من دون تلقّي ابتسامة.

لو كان هذا الرجل محامياً لكان خطِراً، فكّر ناتان.

كانت الزيارة إلى قسم العناية مقلقة. ولكنّ الجوّ بدا له أقلّ كآبةً مما تصوّره، وكأنّهم استطاعوا أن يُقصوا الموت مؤقّتاً، مع علمهم علم اليقين أنّه سوف يأتي ليطوف بعد قليل.

قدّم له غودريش بعض المتطوعين الذين كانوا يعملون في القسم. أُعجِب ناتان صادقاً بأولئك الناس الذين كانوا يمنحون جزءاً من وقتهم للآخرين ولم يستطع الامتناع عن التفكير في زوجته. كان يعرفها جيّداً، يعرف أنّها لكانت مرتاحة هنا، ولكانت قادرة على أن تبعث في المرضى النور والأمل. ربّما أراد أن يشعر هو أيضاً بهذا التماهي مع الناس، ولكنه لم يحسن قط التقرّب من الآخرين.

رغم كلّ شيء، ولكي لا يكون الشخص الوحيد العاطل عن العمل في المؤسسة، طاف على مختلف الغرف عارضاً بخجل مساعدته: تحدّث عن برنامجٍ تلفزيونيٍّ مع مصوّر شاب مصابٍ بالسيدا وساعد رجلاً مسنّاً، خضعَ لعملية خزعة من الرغامى، في تناول وجبته.

عند آخر ملعقة من الفاكهة المطبوخة، أدرك ناتان أن يده ترتعش ارتعاشة خفيفة. أرعبته نوبات سعال المريض وانكشاط حنجرته وعكّرت مزاجه. عجز عن السيطرة على مشاعره إزاء كلّ ذلك الألم.

أوشك أن يعتذر من الرجل العجوز ولكنّ هذا الأخير تظاهر بعدم ملاحظة ضيقه. شكره بابتسامة ثمّ أغمض عينيه.

دخل غودريش إلى الغرفة في تلك اللحظة. لاحظ اضطراب حالة ناتان.

- هل تريد الخروج من هنا، يا ديل آميكو؟

تجاهل المحامي السؤال. ظلّت نظرته مشدودة إلى الوجه الهادئ على نحوٍ مدهش للمحتضر.

- لماذا يبدو هذا الرجل وكأنّه غير خائف؟ سأل بصوتٍ خفيض وهو يبتعد.

رفع غودريش نظارتيه ومسّد عينيه وهو يفكّر في الإجابة التي قد يعطيها عن سؤال كهذا.

- جيل هو أحد أقدم النزلاء عندنا. وهو مسنٌّ بالأساس نسبياً وقد قبل بوضوح بمرضه. أتاح له هذا الوقت الشروع في خطوات ليودّع الآخرين ويخلد للسكينة.

- لن أكون هكذا أبداً، احتجّ ناتان.

- هل تعرف المثل القائل: «ستكفّ عن الخوف إذا كففت عن الأمل»؟ وهذا ما ينطبق هنا: يقلّ الخوف من الموت حينما يتخلّى المرء عن المشاريع.

- كيف يمكن للمرء ألا يعود ينتظر شيئاً من الحياة؟

- لنقل إنّ جيل لم يعد ينتظر إلاّ شيئاً أخيراً، أجاب الطبيب بلهجة قدرية. ولكن لا تنخدع بذلك: لا يذهب كلّ المحتضرين مرتاحين مثله. الكثيرون يموتون غاضبين، متمرّدين تماماً على مرضهم.

- هؤلاء، أنا أفهمهم أفضل، أكّد ناتان من دون أن يتفاجأ.

غطّى ستارٌ من الحزن وجهه فجأةً. وبّخه غاريت:

- هيا، لا تبدو في هذه الهيئة، يا ديل آميكو! هؤلاء الناس يحتاجون إلى الحب اللامشروط والعطف، لا الشفقة. لا تنس أنّ هذه مرحلة خاصّة بعض الشيء: غالبية المرضى هنا يعرفون أنّ هذا سيكون آخر عيد ميلادٍ بالنسبة لهم.

- هل تعدّني في عدادهم؟سأل المحامي بطريقة مغضِبة.

- مَن يمكنه قول ذلك؟ قال غودريش هازّاً كتفيه.

فضّل ناتان ألاّ يركّز على الموضوع. كان سؤالٌ يشغله:

- أليس هذا أمراً محبطاً لطبيبٍ مثلك؟

- تقصد. . . عدم القدرة على شفاء هؤلاء الناس؟

هزّ ناتان رأسه، أن نعم.

- كلا، أجاب غودريش. على العكس: هذ أمرٌ محفّز لي لأنّه صعب. عدم قدرتنا على الشفاء لا يعني ألاّ نعود نهتمّ بهم. تمتلك الجراحة الكثير من التقنية ولكنها لا تستعيد القلب. هنا الأمر مختلف. نرافق المرضى في آخر لحظات حياتهم. قد يبدو هذا ساخراً ولكنّه الشيء الكثير كما تعلم. والحقّ يقال، الأمر أسهل بكثير أن تشرّح شخصاً على طاولة العمليات من أن تسير معه نحو الأماكن المعتمة.

- على ماذا تشتمل هذه المرافقة؟

باعد غودريش بين ذراعيه:

- الآمر معقّدٌ جدّاً وبسيطٌ جدّاً في آنٍ: يمكنك أن تقرأ للمريض، أن تساعده في تمشيط شعره، أن تسوّي له وسادته، أن تصحبه في نزهة في الحديقة. . . ولكن غالباً لا تفعل شيئاً. تبقى هنا معه لتقاسمه ألمه وخوفه. أنت ببساطة مستعد ومنصت.

- ما زلت لا أفهم كيف يمكن للمرء أن يصمّم على القبول بنهايته.

- إنكار الموت ليس حلاً! بإلغاء غالبية شعائر المضي نحو العالم الآخر، جعل مجتمعنا من الموت أمراً محظوراً. ولذلك يجد الناس أنفسهم يائسين حينما يواجهونه!

ترك الطبيب بضع ثوانٍ تمضي قبل أن يضيف:

- مع ذلك، الموت ليس شذوذاً.

تلفّظ بهذه الكلمات الأخيرة بقوّة، وكأنّه يحاول أن يقنع نفسه.

كان الرجلان قد عادا حينذاك إلى بهو المدخل. بدأ ناتان بتزرير معطفه. ولكن قبل أن يغادر، كان لديه ما يريد أن يقوله:

- ليكن الأمر واضحاً تماماً، يا غاريت: لا أصدّقك مطلقاً.

- عفواً؟

- كل ما قلته لي، كل كلامك الخلاّب عن الموت والمبشّرين. لا أصدّق كلمة واحدة منه.

لم يبد غودريش متفاجئاً.

- آوه! أنا أفهمك: إنّ مَن يعتقد بأنّه يتحكّم بحياته لا يرغب أن يُزعزَع في يقينياته.

- فضلاً عن ذلك، كنتُ حريصاً على إعلامك بأنني في صحّة ممتازة. أنا متأسّف، ولكنني أعتقد أنّك قد انخدعتَ: لستُ مشارفاً على الموت على الإطلاق.

- يبهجني أن أعرف ذلك.

- بل وأخذت عطلة لبضعة أيام.

- استمتع بها جيّداً.

- أنت تغيظني، يا غاريت.

ضغط ناتان على زرّ المصعد. كان غودريش لا يزال بجانبه وينظر إليه وكأنّه يسعى إلى تقدير حالته. أخيراً، حسم أمره:

- أعتقد أنّ عليك أن تزور كانديس.

تنهّد ناتان

- مَنْ هي كانديس؟

- امرأة شابّة من ستايتن آيسلاند. تعمل نادلة في *Dolce Vita* وهو مقهى في وسط سان جورج أتوقّف فيه أحياناً لأشرب فنجاناً من القهوة صباحاً.

هزّ المحامي كتفيه.

- وماذا بعد؟

- لقد فهمتني جيّداً، يا ناتان.

فجاةً، وكأنّ ذكرى كيڤن قفزت أمام وجهه.

- هل تقصد أنّها سَ...

أكّد غاريت ذلك بإشارةٍ من رأسه.

- لا أصدّقك. لقد مررت أمام تلك المرأة وفجاةً، هكذا، تجلّت لك رؤيا؟

لم يجب غاريت بشيء. تابع ديل آميكو حديثه:

- وكيف يحدث ذلك، بشكلٍ ملموس؟ هل أخذ رأسها يرفّ وسط الحشد على أنغام الموسيقى الجنائزية؟

- أنت لا تصدّق إذا صحّ القول، أبدى غودريش رأيه بهيئة حزينة. هناك أحياناً نوعٌ من ضوءٍ أبيض أنت وحدك تراه. ولكن ليس هذا هو الأمر الأهمّ.

- ما هو الأمر الأهمّ؟

- هو ما تشعر به في قرارة نفسك. فجأة، تعرف؛ تكون مقتنعاً بأنّ هذا الشخص لم يعد لديه سوى بضعة أسابيع يعيشها.

- أعتقد أنّك خطيرٌ.

- وأنا، أعتقد أنّ عليك أن تزور كانديس، ردّد غاريت ببساطة.

9

انظر كم تنشر هذه الشمعة الصغيرة بعيداً ضوءها!
هكذا يشعّ العمل الخيّر في العالم الشرير.

شكسبير

12 كانون الأوّل

كان مقهى *Dolce Vita* يقع في أحد أكثر الشوارع تجارية في سان جورج.

في الساعة الثامنة صباحاً، كان المكان يضجّ بالناس. أمام طاولة الشرب، كان صفّان طويلان من الناس يصطفّان، ولكن لسرعة الخدمة، لم يطل الانتظار. في هذه الساعة، كانت غالبية الزبائن من الرواد، وغالباً من الأشخاص العاملين في الحيّ، الذي يأتون سريعاً لطلب فنجانٍ من الكابوتشينو أو الدونات.

اختار ناتان أن يجلس إلى طاولة بالقرب من النافذة وانتظر أن يأتي أحدٌ لأخذ طلبه. عاين بنظرة طاقم العاملين في المقهى: كانت موظّفتان تهتمّان بالطلبات الخارجية وأخريان بطلبات زبائن الصالة. أيّ منهنّ كانديس؟ كان غودريش قد تحدّث عن امرأة شابّة ولكن دون إعطاء المزيد من التفاصيل.

- ماذا أقدّم لك، يا سيّدي؟

كانت النادلة التي طرحت عليه السؤال امرأة صهباء مرهقة الوجه.

تتجاوز الأربعين من عمرها وكانت اللوحة الاسمية المشكوكة على صدرها تشير إلى أنّ اسمها ايلين.

اختار وجبة الفطور الكاملة التي جلبتها له دون إبطاء.

وهو يرتشف قهوته، دقّق في تفاصيل نادلتي طاولة الشرب. الأولى، كانت سمراء ذات شفتين منفوختين بالسيلكون ومساحيقٍ قوطية، وكانت بالكاد تبلغ العشرين من العمر. كانت تجذب الكثير من النظرات الذكورية بصدرها المكتنز التي تدفعه إلى الأمام. كان المرء يشعر تماماً بأنّها امرأة لعوب تعطي لكلّ حركة من حركاتها نوعاً من الشبق المثير. كانت الأخرى أكثر احتشاماً، ولا شكّ أكبر سنّاً بقليل، قصيرة القامة بشعرٍ أشقر قصير. كانت سريعة ونشيطة وقادرة على أن تخدم زبونين في الوقت الذي لا تلبّي جارتها سوى طلبات زبونٍ واحد. لم يكن هناك أيّ شيءٍ مغرٍ في مظهرها. كانت فتاة جذّابة، ذات مظهرٍ عاديّ، دون أن تكون سوقيّة.

عرف ناتان بالفطرة أنّها كانت هي. ليتأكّد من ذلك، ذهب ليأخذ محارم ورقية من مضيّفة ملبّسة بالكروم بالقرب من الخزانات. اقترب أكثر ما استطاع، قريباً بما يكفي في كلّ الأحوال ليتسنى له أن يقرأ سرّاً اللوحة الاسمية للنادلة الشقراء.

كانت تُدعى كانديس كوك.

ظلّ في المقهى لنصف ساعة ثمّ أخذ يتساءل عمّا كان يفعله هناك. البارحة، كان قد اتّخذ القرار الحازم بأن ينسى هذيانات غودريش. ومع ذلك، لم يتردّد طويلاً، ذاك الصباح، قبل أن يعود إلى ستايتن آيسلاند. دفعه شيء ما غامض في داخله إلى ذلك. أكان الفضول؟ أم هي نشوة معرفته بأنّه في صحّة جيّدة؟ أم هو الخوف من

أن يكون غودريش أقوى من الأطباء؟ هو مزيجٌ من كلّ هذا بلا شكّ. كان غاريت يملك المهارة ليضعه في مأزق! يجب القول إنّه منذ انتحار كيفن، استولى نوعٌ من الإحساس بالخطر عليه. يشعر بأنّ خطراً وشيكاً يحوم في كلّ مكان، يحدق به وبالآخرين. ولذلك أراد أن يبقي عينه على كانديس. ولكن لم يكن بوسعه البقاء هناك طوال الصباح. فقد أنهى فطوره منذ وقتٍ طويل وستُكشَف حيلته. في كلّ الأحوال، ما الذي قد يحصل لهذه المرأة الشابّة في هذا الحيّ الهادئ؟

خرج إلى الشارع، واشترى تلقائياً صحيفة وول ستريت جورنال ثمّ جال على بعض مخازن المركز. استغلّ ذلك ليتبضّع حاجياته الخاصّة بعيد الميلاد، بعيداً عن صخب مانهاتن. وهي في الواقع أشياء بسيطة: بعض المقطوعات الموسيقية لبوني وزجاجة من النبيذ الفرنسي الفاخر لأبي وقطّاعة سيجار لذاك الأبله جوردان. ولم يكن من داعٍ لشراء شيءٍ ما لمالوري: لم تكن لتقبل ذلك منه ولخلق انزعاجاً جديداً بينهما.

عاد إلى سيارته الرباعية الدفع - الأقلّ جاذبية من سيارة جاكوار- المركونة أمام المقهى. عند مروره، ألقى نظرة من خلال الكُوى المزجّجة: لا مشكلة، كان سيل الزبائن قد خفّ، ولكنّ كانديس لا تزال في موقعها.

حسناً، لن ينتظر هنا طوال الصباح. أدخل مفتاح التدوير ليقلع بسيارته، ولكنّه عدل عن رأيه. لم يفلح في حسم قراره، وكأنّ شيئاً ما لامعقولاً كان ينصحه بعدم الابتعاد. فاستجاب لفطرته وبسط صحيفته. كأن أشبه بمخبرٍ سريٍّ في مكمن.

في الساعة الحادية عشرة والنصف، رنّ هاتفه الخليوي.

- مرحباً بابا.

- بوني؟ ألستِ في المدرسة؟

- لا دراسة اليوم، إنهم يستخدمون المدرسة لتدريبٍ أمني.

- ماذا تفعلين؟

- سوف أتناول فطوري، أجابت متثائبة. لا تنسَ أنّ الساعة ليست إلا الثامنة هنا.

- أين أمّك؟

- ما زالت في الحمّام.

كان من المسموح لبوني أن تتّصل بوالدها حينما ترغب في ذلك. كان ذلك شرطاً قائماً بين مالوري وبينه. سمعها مرّة أخرى تتثاءب في نهاية المكالمة.

- هل نمتِ في وقت متأخّر؟

- ياه، لقد اصطحبنا ڤينس إلى السينما.

كان لذلك أثر صعقة كهربائية عليه. منذ بضعة أشهر، كانت زوجته تتواعد مع زميلٍ قديم، هو ڤينس تايلر، والذي كانت قد خرجت معه أحياناً خلال سنتها الأولى في الكلية. كان ڤينس ابن عائلة ثرية من كاليفورنيا تتردّد على آل ويكسلر منذ زمنٍ طويل. حسبما فهم ناتان منه، كان يعيش من الأرباح التي تدرّها عليه أسهم شركة لمستحضرات التجميل ورثها عن والديه. وهو مطلّق منذ عدّة سنوات وبدأ يؤمن بحظوظه لدى مالوري حينما كانت تقيم في سان دييغو.

كان ناتان يكره كلّ ما يذكّر بتايلر. وكان ذلك شعوراً متبادلاً. مع ذلك، كلّما كانت ابنته تحدّثه عنه، كان يحرص على عدم تحقيره، تحسّباً لرغبة مالوري في أن تستعيد حقاً حياتها معه. كانت بوني، التي عاشت مرارة انفصال والديها، تجنح نحو عدوانية شرسة ما إن يقترب رجلٌ من أمّها. ناهيك عن تمرّدات البالغين.

- هل أمضيتِ سهرة جميلة؟ سأل.
- أنت تعرف جيّداً أنني لا أحبّ ڤينس.
معكِ حقّ مئة مرّة، يا عزيزتي.
- اسمعي، يا بوني، إذا أرادت أمّك أن تتزوّج ذات يوم، فلا ينبغي أن تكوني حزينة.
- لماذا؟
- تحتاج أمّك إلى الأمان، وربما يستطيع رجلٌ مثل ڤينس أن يهتمّ بك.
- لديّ ماما وأنت لتهتمّا بي.
- طبعاً، ولكن في الحياة، لا نعرف أبداً ما قد يحدث.
فكّر من جديد في أقوال غودريش. وإن كان ما أَسْمَعه صحيحاً؟ وإن كان الموت يدقّ بابه؟
- ما الذي قد يحدث؟
- لا أدري.
- ڤينس ليس أبي.
- طبعاً لا، يا عزيزتي.
بجهدٍ جهيد، انتهى إلى القول:
- ربّما ڤينس ليس شخصاً سيئاً، وقد تكون أمّك سعيدة معه.
- سابقاً، كنت تعتبره مغفّلاً!
- لا تكوني فظّة، يا بوني! هذه كلمة عليك ألاّ تتلفّظي بها أبداً.
- أنت من كنتَ تقول ذلك حينما كنت تتحدّث عنه مع ماما!
- أنا لا أحبّه كثيراً، هذا صحيح، اضطرّ ناتان أن يعترف. ولكن هذا ربّما لأننا لسنا من البيئة نفسها. أنتِ تعرفين أنّ الناس من أمثال ڤينس يولدون وفي فمهم ملعقة من فضّة.

أبدت اندهاشاً:

- ملعقة من فضّة؟

- هذا مثلٌ، يا عزيزتي. أي أنّ عائلته كانت ثريّة دائماً. لم يضطرّ ڤينس لأن يعمل كي يدفع نفقات دراسته.

في حين أنني اضطررت لأن أغسل السيارات وأكدّ في المستودعات القذرة لبروكلين.

- هل كان ڤينس وماما يخرجان معاً حينما كانا شابّين.

- تكلّمي بصوتٍ أخفض، يا عزيزتي، لن تكون أمّك سعيدة إن سمعتكِ تتحدّثين عن هذا.

وكأنّها لتطمئنه، همست:

- كلّ شيء على ما يرام، لقد صعدتُ إلى غرفتي. أتدفّأ قرب مشعاع التدفئة.

كان يتخيّل دونما صعوبة ابنته، بمنامتها القطنية وعليها صورة جاك اولانتيرن وقدميها الصغيرتين الملفوفتين بمشّايتي هاري بوتر. كان يعشق تبادل الأسرار معها.

- لقد خرجا معاً فقط بعض المرات، اعترف ناتان، ولكن الأمر لم يكن جدّياً.

صمتت بوني قليلاً، وكان ذلك دليلاً على أنها كانت تفكّر، ومن ثمّ، بكلّ تعقّل، أبدت ملاحظة:

- ولكن أمّي أيضاً ولِدَت وفي فمها ملعقة من ذهب!

- من فضّة، يا عزيزتي. أجل، إن أردت. ولكنّها، كانت مختلفة: إنّها لا تحتقر الناس الذين من غير بيئتها. إنّها فاضلة.

- هذا، أعرفه.

- ويجب أن تكوني كذلك أيضاً، أتسمعينني؟ عليك ألا تحتقري

الذين ينظّفون مدرستك أو يخدمونك في الندوة. يمكن للمرء أن يكون جديراً جدّاً بالاحترام وأن لا يكسب الكثير من المال، أتفهمين؟
ولأنّها كانت ذكية، أحالته على تناقضاته:
- مع ذلك... مع ذلك، لطالما قلت بأنّ الذين يسعون، في أميركا، إلى كسب المال ينالونه دائماً.
- حسنٌ، أحياناً أتفوّه أنا أيضاً بحماقات، ككلّ الناس.
- هل عليّ أن أحتقر الأثرياء؟
- كلا أيضاً! عليك ألا تحكمي على الناس حسب مالهم وإنّما حسب سلوكهم، أفهمتِ؟
- فهمت، بابا.
ثمّ أخبرته، بلهجة منْ يسرّ بشيء:
- أتعلم، لا أعتقد أنّ ماما تحبّ ڤينس.
فوجئ بتلك الملاحظة، فصمت لبرهة قبل أن يستأنف كلامه:
- أحياناً، لا حاجة إلى الحبّ للعيش مع شخص.
لماذا أقول لها أموراً كهذه. إنّها ليست إلاّ فتاة صغيرة. لا تستطيع أن تستوعب.
- ولكنّني أعتقد أنّ ماما تحتاج إلى الحبّ في حياتها.
سمع صوت مالوري التي نادت ابنتها من المطبخ.
- عليّ أن أذهب إليها، قالت بوني وهي تفتح باب غرفتها.
- حسناً، يا بنيّتي.
ولكن قبل ذلك، همست:
- أنت تعلم، أنا متأكّدة من أنّ ماما لا تحبّ ڤينس.
- وكيف عرفتِ ذلك؟
- النساء يعرفن هذا النوع من الأمور.

كانت متأثرة جدّاً. وليخفي انفعاله، جهد لأن يتكلّم بلهجة شبه قاسية:

- أنتِ لستِ امرأة، لستِ إلاّ فتاة صغيرة عليها أن تذهب لتكمل طعامها بسرعة. ولكنني أحبّك كثيراً، يا سنجوبي. أكثر ممّا كلّ في الدنيا.

- أنا أيضاً أحبّك.

رفع ناتان درجة حرارة تدفئة السيارة، وهو يفكّر في ما أكّدت له ابنته للتوّ.

وفي الحقيقة، لم يكن يفهم أبداً ما الذي قد تجده زوجته عند ذاك المغفّل تايلر: كان دعيّاً متعجرفاً، من نوع الرجل الذي لا يزال مقتنعاً بأنّ نسبه يمنحه تفوّقاً على الناس المحيطين به.

ولكن بعد كلّ شيء، ربّما كان ڤينس محقّاً في إيمانه بحظوظه. كان قريباً من مالوري وبإمكانه مقابلتها كلّ يوم، ولا سيما أنّه كان دون عمل. للمرّة الأولى في حياته، قال ناتان في نفسه بأنّه قد يخسر مالوري إلى الأبد.

وكان ذلك غريباً لأنّه ظلّ يعتقد، حتى في لحظة الطلاق، أنّها ستعود إليه يوماً ما؛ وأنّ الأمر لا يتعلّق في الواقع سوى بفراقٍ مؤقّت. بحيث إنّه لم يفكّر قط فعلياً أن يستأنف حياته مع امرأة أخرى. منذ طلاقه، التقى لمرّتين أو ثلاث مع نساء ولكن ذلك لم يفضِ سوى إلى مغامرات صغيرة لم تستمرّ. في كلّ الأحوال، لا أحد بوسعه أن يسدّ الفراغ الذي تركته مالوري.

مثل باحثٍ عن حطام سفينة، ذهب يبحث عنها في أعمق أعماق المياه الموحلة لبحيرة سانكاتي هيد.

وأثبت ذلك أنّ حبّه لا يُعوّض.

أنهت كانديس خدمتها في الساعة الثانية من بعد الظهر.

مرتدية بنطال جينزٍ ناحلِ اللون وسترةً جلدية، صعدت إلى سيارة بيك -آب قديمة محدّبة مركونة ليس بعيداً عن المقهى. أقلع ناتان بسيارته الرباعية الدفع ولحق بها. في تلك الساعة، كانت لا تزال حركة السيرة متواصلة. وكما في الأفلام، استغلّ أوّل إشارة حمراء ليترك سيارتين تُحشران بين كانديس وبينه. لم يكن قد طارد أحداً في حياته أبداً وخشي أن يفضح أمره.

غادرت سيارة البيك- آب المركز وسلكت الاتّجاه الجنوبي. سارت كانديس حوالى عشرين دقيقة قبل أن تتوقّف في حيٍّ سكنيٍّ، شعبيّ ولكنّه هادئ. ركنت سيارتها أمام سرداقٍ، قرب مدخل بيت صغير.

هل تسكن هنا؟

بعد أن رنّت الجرس، جاءت امرأة ضخمة ذات وجهٍ بشوش وفتحت لها الباب. دخلت كانديس إلى البيت لتخرج منه بعد ذلك بخمس دقائق حاملة بين ذراعيها طفلاً يبلغ حوالى عامٍ من العمر، وهو غائر في قميصٍ رياضيٍّ فضفاض جدّاً عليه.

- شكراً مرّة أخرى، يا تانيا، قالت بمرحٍ وهي تغادر.

أمسكت بالطفل بين ذراعيها، وهو مشدودٌ إليها بقوّة. وغطّت رأسه بقبّعة حمراء برّاقة.

شدّت كانديس الطفل بحرص على المقعد الخلفي للسيارة وسلكت اتّجاه الفسحة الواسعة المجاورة. حينما وصلت إلى المرآب، وضعت ابنها في عربة ودخلت إلى مخزن. تابعها ناتان بين رفوف البضائع.

كانت تتبضّع بهدوء. حريصة دون شكّ على ألا تتجاوز

ميزانيتها. ومع أنّها كانت تختار البضائع الأرخص ثمناً، إلاّ أنّها بدت مستمتعة بذلك النشاط. كانت تتوقّف غالباً لتوشوش بشيءٍ ما في أذن ابنها، وتقبّله وهي تشير له بإصبعها إلى بضائع أصلية. «انظر إلى السمكة الكبيرة، يا جوش! وهناك، هل شاهدت الأناناس الجميل؟»

كان الطفل دائم الابتسام مذهولاً ينظر إلى ما حوله بفضول. كرّرت كانديس عليه مراراً أنّه جميلٌ جدّاً ولطيفٌ جدّاً، ثمّ كافأته بعلبة صغيرة من مارش- ميلو.

رأى ناتان للوهلة الأولى أنّ تلك المرأة سليمة في سلوكها وأنّ سعادتها لم تكن متصنّعة. تساءل إن كانت تعيش مع أحدٍ ما أمّ أنّها أمّ عزباء. رجّح الاحتمال الثاني ولكنّه لم يتأكّد منه تماماً بعد أن توقّفت كانديس في محلّ لبيع الكحول لتشتري طرداً من جعّة بودوايزر.

هذا أمرٌ غريب، لم يتصوّرها تشرب الجعّة.

في المرآب، مرّ بالقرب منها تماماً. كان وجهها هادئاً. نظر إلى الطفل وفكّر في ابنه.

صعدت من جديد إلى البيك-آب، ولحق بها عبر الجزيرة الصغيرة. كانت ستايتن آيسلاند التي تتناثر فيها تلال صغيرة أقرب إلى نيوجيرسي من نيويورك. فيبتعد المرء عن الضغط الذي يسود القرية السكنية. إذ هناك الكثير من البيوت الخاصة والجوّ أقلّ عنفاً وأكثر ألفة مما هو في مانهاتن.

تنامى عدد سكان تلك الضاحية بشدّة منذ أن جاء بعض سكان الأحياء المهدّمة في بروكلين إليها بحثاً عن المزيد من الهدوء والأمان. ولكن سكّان مانهاتن ظلّوا يجدون هذا المكان قروياً وريفياً. أمّا قاطنو ستايتن آيسلاند، فقد أبدوا رغبتهم في القيام بالانفصال من خلال مطالبتهم بالفصل الإداري عن مانهاتن، مرهَقين بدفع الضرائب المرتفعة التي لم تكن تفيد سوى جارتهم المسرفة.

واصلت كانديس طريقها حتى المنطقة التي تركت فيها ابنها، ولكنّها لم تتوقّف هذه المرّة أمام البيت الصغير لتانيا. انعطفت إلى اليمين لتسلك طريقاً قادها إلى أحد آخر بيوت الحيّ.

أوقف المحامي سيارته على بعد حوالى خمسين متراً من المسكن. تذكّر أنه قد اشترى منظاراً مقرّباً في السنة السابقة خلال يوم عطلة في ستوو مونتان مع بوني. اللعنة أين يمكن أن يكون؟ نبش في المقعد الخلفي وانتهى بأن عثر عليه تحت المقعد. أخذه بحركة نشيطة وصوّبه نحو بيت كانديس كوك.

كانت المرأة تضحك مع رجلٍ. رجل طويل القامة، يابس العود، تجاوز الستين من العمر، يعتمر طاقية بيسبول ويضع سيجارة خلف أذنه. وجده ناتان يشبه كلينت ايستوود بعض الشيء.

قد يكون والدها.

انقطع الرجل عن شغله - كان يدهن الشرفة - لكي يساعد كانديس على إخراج الأكياس الورقية السمراء من صندوق السيارة. بدا الاثنان على وفاقٍ وتفاهم.

أخرج «كلينت» الطفل من السيارة. نبش الطفل في كيس سكاكره ووضع حبّة مارشميلو في فم جدّه بينما كانت كانديس تقود السيارة إلى مرآب صغير.

يبدو أنها تسكن هنا.

اصطحبت كانديس جوش إلى داخل المنزل في حين انتهى الرجل ذو السيجارة من تنظيم فراشي الدهان. ثمّ قدّمت له إحدى قناني جعة البودوايزر التي اشترتها. شكرها «كلينت» ووضع يده على كتفها ودخلا.

كان النهار قد اكفهرّ وأخذ يميل إلى الظلمة.

أنيرَ ضوءٌ في الصالون وبدت أجزاءٌ من الأشباح الثلاثة كأخيلة الظلّ. كانت هناك ضحكات ممزوجة بصخب الطفل. تساءل ناتان حائراً لماذا لا تزال هذه الفتاة تعيش مع والدها.

ظلّ هكذا، ساكناً في سيارته بلا حراك، لوقتٍ طويل، مشاهداً سلبياً لسعادة الآخرين.

للناس ما يفعلونه حينما يعودون إلى بيوتهم: الحديث عن نهارهم لأهلهم، تقاسم حياة يومية، الحديث عن عطلتهم المقبلة...

أمّا هو فلم يعد له أيّ شيء من كلّ ذلك.

أحسّ بنفسه بائساً بعض الشيء ورفع من درجة حرارة سيارته. ثمّ قرر أن يضع منظاره جانباً بعد أن شعر فجأةً بأنّه يبصبص على حياة الآخرين.

كان يهمّ بالمغادرة حينما رنّ هاتفه الخليوي من جديد. ظنّ أنّه اتصالٌ من مكتب المحاماة ولكنّها كانت مجرّد رسالة نصيّة:

انظر إلى رسائلك الالكترونية.

غاريت غودريش

ماذا يريد منه أيضاً؟ بعد ثوانٍ من التفكير، أضاء ناتان الضوء الداخلي لسيارته وسحب حاسوبه المحمول من صندوقه الصغير وشغّله. خلال تحميل نظام التشغيل، فعّل الأشعة ما تحت الحمراء لهاتفه الخليوي ثمّ أوصله بالحاسوب لتدقيق بريده الإلكتروني. كانت له في الحقيقة ثلاث رسائل إلكترونية.

الأولى كلمة من آبي: «امضِ عطلة سعيدة. عيد ميلاد سعيد، لك ولابنتك.» وكعادتها، كانت قد أضافت مثلاً إلى رسالتها: «الرجل الذي لا يقضي بعض الوقت مع عائلته لن يكون أبداً رجلاً حقيقياً.» أفرج ناتان عن ابتسامة. كانت تلك لعبة بينهما تشتمل على أن يعرفا

من أيّ فيلم اقتُبِسَت العبارات التي كان كلٌّ منهما يعرضها على الآخر بانتظام. كان اتصالاً سهلاً. ضغط على رمز «ردّ على المرسل» وكتب ببساطة: «ڤيتو كورليوني في العرّاب».

كانت الرسالة الثانية صورة لبوني. كانت تمسك بأرنوبها القزم بوغز، ملتصقاً بخدّها.

منذ أن اشترت لها مالوري كاميرا ويب متقنة، كانت ابنته ترسل له بانتظام بعض إخراجاتها. كانت قد قطعت ورقة كرتونية بشكلٍ بيضوي شبيهٍ بختم الصورة المتحركة فوق رأسها. وكتبت فيه بالأحرف الكبيرة:

بوغز وأنا

نتظرك يوم السبت القادم

نظر مطوّلاً إلى الصورة، وككلّ مرّة، تأثّر لوجه ابنته الجميل: شعرها الطويل الأشعث، عيناها الماكرتان - كعيني مالوري- وأسنانها الناعمة، المتفرقة قليلاً، التي كانت تمنحها ابتسامة جذّابة للغاية.

من دون أن يدرك حقّاً لماذا، شعر بأنّه سعيدٌ للغاية وحزينٌ للغاية في آن واحد.

أمضى وقتاً عصيباً في تظهير الرسالة الأخيرة التي كانت على شكل بطاقة ملحقة تضمّ مقطع MPEG صغير. كان يجيد تلك التقنية: بمساعدة كاميرا رقمية، بات من الممكن اليوم تصوير مقطع فيديو وتسجيله على بطاقة ذاكرة قبل إرساله كرسالة إلكترونية بواسطة الحاسوب.

تحقّق ناتان من عنوان المرسل. كانت صادرة عن صندوق الرسائل المهنية لغودريش. انتظر أن يُحمّل الفيلم بالكامل ثمّ عرضه على شاشته. كانت الصورة واضحة ولكنّها متقطّعة.

نظر إلى التاريخ المدوّن رقمياً في أسفل الشاشة. كان التسجيل يعود إلى أكثر من ثلاثة أشهر بقليل.

كانت الصورة الأولى ملتقطة من خلال نافذة سيارة. حسب الإعلانات الطرقية كنّا في تكساس. في هيوستن على نحوٍ أدقّ. وكنا نشاهد السيارة تغادر المركز التاريخي لتسلك طريقاً سيّاراً داخل المدينة إلى حين بلوغ أوّل حلقة من الطريق الدائري. لم يكن ناتان قد ذهب إلى العاصمة التكساسية إلاّ مرّة واحدة ولكنّه كان يحتفظ بذكرى مزعجة جدّاً منها. كان يتذكّر مدينة واسعة مفسدة بالاختناقات المرورية ورازحة تحت الحرارة والتلوّث. كما كان قد سمع بأنّ بعض مكاتب المحاماة تعاني مشقّة في توظيف المحامين، بسبب الصورة غير المغرية للمدينة التي بدت وكأنّها تضع البيئة ونمط الحياة في مأزق.

وسط نظام معقّد للسير، دخلت السيارة إلى منطقة دائرية حيث يُفترَض أنّ أجرةَ الاستئجار ليست مرتفعة كثيراً. كانت الكاميرا تمسح المستودعات الصناعية وانتهت السيارة إلى التوقّف في مرآب مسكنٍ متواضعٍ من القرميد المتّسخ.

أيكون غودريش هو من التقط هذه الصور؟ في كلّ الأحوال، كان المصوّر قد انكبّ على تصوير الإعلانات الطرقية بحيث نستطيع أن نتتبّع الطريق بسهولة إلى هذا المكان.

كان المقطع التالي يصوّر داخل شقّة صغيرة.

شقّة صغيرة مصفرّة، جرداء ولكنّها نظيفة، فيها تلفازٌ بنفسجيّ اللون فوق طاولة من الفورمايكا وثلاّجة صغيرة بالقرب من مجلى مفتوح. في صخبٍ عميق، كان يمكن سماع أصوات صاخبة وصرخات تشجيع صادرة عبر النافذة. لا شكّ أنّه صخب الصبيان الذين يلعبون كرّة السلّة في الشارع.

كانت الصورة تهتزّ ولكننا نشاهد بوضوح جداراً مغطّى بصورٍ ، فوق مكتب صغير.

اقتربت الكاميرا جدّاً من الصورة الأكبر، صورة قديمة فقدت ألوانها.

كانت صورة فتاة صغيرة شقراء، يتطاير شعرها بالهواء، واقفة على أرجوحة. تضحك مقهقهة، في حين كان رجلٌ مشمّر الكمّين يثير حماستها من خلفها.

وكانت سيجارة خلف أذنه.

10

لا تسعَ إلى أن تقع الأحداث كما تتمنّاها
وإنّما تمنَّ الأحداث كما تقع.

ايبيكتيت

أنار ناتان مصابيح سيارته قبل أن يقلع بها.

وهو يقود السيارة، أمسك بهاتفه المحمول وضغط على الملمس الأوتوماتيكي للمعلومات. وطلب الاتّصال بمستشفى ستايتن آيسلاند لأنّه كان يرغب بشدّة في الحديث إلى الدكتور غودريش.

- غادر الدكتور المستشفى في نهاية فترة ما بعد الظهيرة، أوضحت عاملة المقسم، وبما أنّه لن يعمل غداً، أفترض أنّه قد ذهب ليستريح في بيته في كونيكتيكوت.

- أودّ أن أعرف عنوانه من فضلك.

- آسفة، سيّدي، ليس مسموحاً لنا أن نعطي هكذا معلومات، قالت بلهجة مرتابة.

- أنا صديقه والأمر عاجل جداً.

- إذا كنتَ صديقه، يكون بالتأكيد قد أعطاك عنوانه...

- اسمعي، قاطعها بفظاظة، جئت إليه البارحة ومنذ ثلاثة أيام أيضاً. ربّما تتذكّريني؟ أنا محامٍ و...

- أنا متأسفة.

- أعطيني هذا العنوان اللعين! صرخ ناتان عبر سمّاعة الهاتف.

كان متوتّر الأعصاب للغاية.

على الطرف الآخر من الخط، أطلقت عاملة المقسم تنهيدة عميقة. كانت سالي غراهام ستنهي دوامها بعد نصف ساعة. وكان المستشفى يدفع لها سبعة دولارات في الساعة. لا الأطباء ولا الممرّضات كانوا يعيرونها أي اعتبار. لم تشأ أن تُزعَج من قبل هذا المجنون الهائج، والحل الأمثل للتخلّص منه كان إعطائه تلك المعلومة اللعينة. فعادت إلى بطاقاتها المعلوماتية وانتهت بتحديد العنوان الدقيق له.

- آه... شكراً، غمغم ناتان، يؤسفني أن أكون غضوباً.

ولكنّها كانت قد أغلقت السماعة.

أقلع بالسيارة فجأةً وسلك في اللحظة الأخيرة اتّجاه جسر فيرازانو لكي يذهب إلى بروكلين ويستقلّ العبّارة.

من بعيد، انعكست أنوار فاينانشل ديستريكت على المياه السوداء لخليج هودسن.

كانت الأحصنة الـ 285 لرانج روفر تتشبّث جيّداً بالطريق المعبّدة. غادر مانهاتن عبر الطريق 95 ثمّ سلك اتّجاه كونيكتيكوت. تداخلت صور الفيلم الذي شاهده لتوّه في ذهنه. كان يسير بسرعة، بسرعة فائقة. عندما ألقى نظرة على عداد السرعة، اكتشف بأنّه متجاوزٌ كثيراً لحدود السرعة المسموح بها وحاول أن يبطئ من سرعته. كان يحبّ نيو انكلترا بقراها اللازمنية الخارجة مباشرة من رسومات نورمان روكويل. كانت تمثّل له أميركا الأصيلة، أميركا الروّاد والتقاليد، أميركا مارك توين وستيفن كينغ.

سار لأكثر من ساعة قبل أن يصل إلى ضيعة ميستيك، وهي عبارة عن مركزٍ قديم لصيد الحيتان ولا يزال يحافظ الآن على نموذجٍ طبق الأصل لميناءٍ من القرن التاسع عشر.

كان سبق له أن مرّ بهذه القرية في الصيف الماضي - أو ربما الصيف الذي قبله؟ - لدى زيارته فيلادلفيا. كان يتذكّر جيّداً مساكن مخصّصة للقباطنة القدماء لسفينة صيد الحيتان. في نهاية الربيع والصيف، كان الكثير من الناس يزورون تلك المنطقة، وفي الشتاء، كان النشاط السياحي ينخفض. في ذلك المساء، بدا كلّ شيء هادئاً بلا حركة، وكأنّ الريح الباردة والمالحة للمحيط قد جمّدت ميستيك لتجعل منها مدينة أشباح.

واصل السير لبضعة أميال شرقاً على الطريق رقم 1. قبل ستونينغتون بقليل، توقّف أمام منزلٍ معزولٍ على الشاطئ. إذا كانت معلومات عاملة المقسم صحيحة، فلا بدّ أن يجد غودريش في هذا المكان.

نزل من السيارة وعبر الشريط الرملي الفاصل بين الطريق والبيت. لمرّاتٍ عديدة، اضطرّ لأن يحمي عينيه من غيوم الرمل المتصاعدة بفعل الريح. كان المحيط قريباً جدّاً وأثار دوران الأمواج الممزوج بالصيحات الصارّة للنوارس صخباً مدهشاً، كاد يكون ذلك غير واقعيٍّ.

كان للبيت مظهرٌ غامض وملغز. بطوابقه الثلاثة، كان مرتفعاً جدّاً ولكنّه ضيّق ومنطوٍ على نفسه. يضمّ كلّ طابق شرفةً صغيرة ضيّقة ولكن بحجم مختلف، الأمر الذي ساهم في إعطاء عموم البيت شكلاً مشوّهاً ومحدّباً. لم يكن هناك جرسٌ على الباب. دقّ الباب بعنف لعدّة مرّات ليغطّي على صخب الريح.

حسناً، اهدأ، يا ناتان، فهذا ليس موتيل باتس[1] في النهاية!

جاء غاريت ليفتح له الباب بسرعة. كانت عيناه تلمعان. نظر إلى المحامي بابتسامة غير معهودة لديه، ثمّ قال ببساطة:

- كنتُ في انتظارك، يا ناتان.

كان قد رفع كمّي قميصه وارتدى فوقه صداراً مبقّعاً.

دون أن يتفوّه بكلمة، لحق به ناتان إلى المطبخ. قاعة مضيافة غُطّيت جدرانها ببلاطات غير متجانسة لونها بحريّ. كانت مصطبة عملٍ طويلة من خشبٍ مجنزرٍ تشغل كامل طول القاعة وقد علّقت فوقها على الجدار مجموعة مدهشة من الطناجر النحاسية المصقولة حديثاً.

- خذ راحتك، قال له غودريش وهو يمدّ إليه قارورة نبيذ. تذوّق هذا النبيذ الأبيض التشيلي، إنّه لذيذ.

ثمّ تركه لبضع لحظات وراح يعمل على صواني طبخٍ لفرنٍ من الطراز القديم. فاحت روائح ثمار البحر في القاعة. خلال عدّة دقائق، لم يتفوّه الطبيب بكلمة، مستغرقاً في إعداد طبقٍ متكلّف.

كان ناتان يراقبه في حيرة. حتماً، كان ذاك الرجل يثير حيرته. ما هي حقيقته؟ ماذا يريد منه؟ بدا غاريت منتعشاً وسعيداً سعادة لم يكن سببها غريباً بلا شكّ على زجاجة النبيذ التي بدأ بالشرب منها والتي وضعها المحامي لتوّه على طاولة الشرب.

لقد رأيته من قبل. أعرف أنني قد رأيت هذا الرجل من قبل. كان ذلك منذ زمنٍ طويل ولكن...

حاول لبرهةٍ أن يتخيّله من دون لحية. إلا أنّ الإلهام لم يأته.

---

(1) مسكن المختل عقلياً نورمان باتس في فيلم «الذهان».

شعر فقط بأنّه، في لحظة ما من حياته، قد حاول أن ينسى هذا الوجه.

تناول غودريش قصعتين خزفيتين من خزانة خشب.

- آمل أن تتناول العشاء معي. لقد أعددتُ حساءً من الشودر أعطني رأيك فيه.

- اسمع يا غاريت، لستُ هنا فعلاً لأُستَخدَم كموضوع لتجاربك المطبخية. أعتقد أنّ علينا الحديث عن. . .

- لا أحبّ تناول العشاء وحدي، قاطعه غودريش وهو يملأ القصعتين بحساءٍ من محار القفالة والبصل.

- ألست متزوّجاً، يا غودريش؟ سأل ناتان وهو يتناول أوّل ملعقة من الحساء.

- أتحسّ بفتات القديدة المحمّصة؟ إنّها تذوب وأنت تقضمها.

بدرت من المحامي ضحكة خفيفة.

- لقد طرحتُ عليك سؤالاً، يا غودريش: هل تعيش وحيداً؟

- نعم، أيّها المحقّق، أعيش وحيداً، فقد ماتت زوجتي الأولى منذ أكثر من عشرين عاماً. ثمّ قمتُ بتجربة ثانية كانت مريرة وانتهت بالطلاق. فتعقّلت ولم أخض سواها.

بسط ناتان فوطة كبيرة من الكتّان.

- كان ذلك منذ زمنٍ طويل، أليس كذلك؟

- عفواً؟

- نحن الاثنين، التقينا معاً ولكن منذ زمنٍ طويل؟

مرّة أخرى، تجاهل غودريش السؤال.

- ما رأيك بشقّتي؟ ظريفة، أليس كذلك؟ هل تعلم بأنّه توجد هنا بعض الزوايا الشهيرة لهواة صيد السمك؟ لن أعمل غداً ولديّ رغبة

ملحّة في الذهاب والمشاركة في ذلك. إذا أردت، لك الحرية في أن ترافقني. . .

بمتعة واضحة، قدّم ناتان بعد ذلك جوز سان جاك مقليّاً وأرزّاً غريباً وزبدة بالثوم. وفتح قارورة جديدة من النبيذ التشيلي ومن ثمّ واحدة أخرى.

للمرّة الأولى منذ زمنٍ طويل، أحسّ ناتان بأنّ شيئاً ما كان يسترخي في داخله. سرت في جسده راحةٌ ووجد نفسه فجأةً في انسجام تامّ مع الطبيب. تحدّث له غاريت عن هذه الحقيقة المرعبة التي واجهها في عمله: عن المرضى الميئوس من شفائهم والذين يبقى إلى جانبهم يومياً، وعن الموت الداهم الذي يصيب بعض الأشخاص غير المستعدين لهذا الانتقال إلى المجهول، وعن هذه الحاجة، التي لا تُشبَع أبداً، لاعتناء الإنسان بأقرانه والتخفيف من آلامهم.

كما تحدّث عن شغفه بالطبخ والصيد الذي كان يساعده على استعادة بهجته خلال عطلة نهاية الأسبوع.

- من الصعب جدّاً التحمّل، أنت تدري. على الطبيب ألا يندمج مع مريضه مع ضرورة البقاء قريباً منه لمساندته، وفي الوقت نفسه الانسجام معه. ليس من المحتّم دائماً إيجاد المعيار الصحيح.

فكّر ناتان مرّة أخرى في الضيق الجسدي والمعنوي لمرضى وحدة العناية المسكّنة التي زارها أمس. كيف يمكن مواصلة العلاج حينما تكون اللعبة خاسرة مسبقاً؟ كيف يمكن للمرء أن يبعث الأمل ويعطي للحياة معنى حتى النهاية؟

- كلا، ليس من السهل إيجاد المعيار الصحيح، ردّد غودريش الكلام وكأنّه يردّده لنفسه.

ثمّ ساد صمتٌ طويل.

وحينها سأل ناتان:

- ولو تحدّثت لي عن كانديس كوك؟

كان المطبخ يتّصل بالصالون برواقٍ فسيح على شكل قنطرة. وعلى الأرضية، كان البلاط المصنوع من الطين المشوي، المشترك بين كلّ الغرف، يوحّد الفسحة ويجعل الفصل بين الصالتين غير واضحٍ.

كان الصالون بلا شكّ واحدة من الحجرات الأكثر راحة في البيت وقد لاحظ ناتان ذلك مباشرةً. كان المكان من النوع الذي كان يحبّ قضاء سهرة فيه مع بوني ومالوري.

هنا، كان قد جرى تنظيم كلّ شيء في سبيل خلق جوٍّ دافئ، بدءاً من العوارض النافرة من السقف وحتى الجدران الملبّسة التي كانت تدفّئ القاعة. على المدفأة، كان تصميم سفينة ثلاثية الصواري يتجاور مع سُدسيّة[1] قديمة في حين كانت هناك في ركنٍ من القاعة، على الأرضية نفسها، عدّة سلال من حبال مجدولة تحتوي على مجموعة من تذكارات الصيد.

استقرّ ناتان في أريكة من الأسل الهندي عسليّ اللون في حين كان غاريت يجسّ بحذر ركوة قديمة، فيها أخاديد رفيعة.

- إذاً، التقيت بها؟

تنهّد ناتان:

- لم تترك لي في الحقيقة خياراً.

- إنّها فتاة أنيقة، كما رأيتَ.

---

(1) آلة ارتفاع الأجرام السماوية من سفينة أو طائرة. (المترجم)

غطّت مسحة حزن نظرة غودريش. لمح ديل آميكو ذلك:

- ماذا سيحدث لها؟

مباشرةً، ندم على تلك الملاحظة لأنّها كانت توحي بأنّه يقرّ بقدرات الطبيب.

- المحتوم، أجاب غودريش وهو يقدّم له فنجاناً من القهوة.

- لا شيء محتوم، أكّد المحامي بشدّة.

- أنت تعرف جيّداً أن بلى.

سحب ناتان سيجارة من علبته وأشعلها باللهب المتراقص لشمعةٍ. سحب نفثة عميقة وشعر بأنّه أكثر هدوءاً وأكثر ضعفاً في آنٍ واحد.

- هذا بيتٌ لا يدخّن فيه أحد، أوضح غودريش.

- أنت تمزح: لقد شربت ما يعادل ليترين من الكحول، فدعني من دروسك الأخلاقية والأحرى بك أن تحدّثني عنها. حدّثني عن كانديس.

تهاوى غاريت في أريكة ذات غطاءٍ نسيجي ثمّ صالب ذراعيه القويّتين على صدره.

- ولِدَت كانديس في حيّ شعبيٍّ في هيوستن، في عائلة من أصلٍ متواضع. انفصل والداها وهي في الثالثة من عمرها. لحقت بأمّها في نيويورك وظلّت تلقتي والدها بانتظام حتى بلوغها الحادية عشرة.

- حكاية تشبه الكثير من غيرها، أبدى المحامي الملاحظة.

هزّ غودريش رأسه.

- لا أعتقد أنّك يمكن أن تكون طبيباً ناجحاً: كلّ حياة فريدة.

تصاعد التوتّر فجأةً. تصرّف ناتان سريعاً بالمثل.

- أنا محام ناجح. هذا يكفيني.

- أنت مدافعٌ فعّال عن مصالحِ بعض الشركات الكبرى. وهذا لا يجعل منك بالضرورة محامياً ناجحاً.

- لا أبالي بحكمك.

- أنت تفتقر إلى الإنسانية...

- الأمر كذلك!

- ... وإلى الخشوع.

- لا أرغب في الجدال معك، ولكن تابع يا غاريت. ظلّت كانديس تلتقي والدها حتى الحادية عشرة من عمرها ومن ثمّ...؟

- ... ومن ثمّ، فجأةً، لم يعد يصلها من هذا الأخير علامة على أنّه حيّ.

- لماذا؟

- لسببٍ وجيهٍ وبسيط وهو أنّه... دخل السجن.

- أهو الرجل الذي رأيته للتوّ والذي يسكن حالياً معها؟

- بالضبط، إنّه سجين سابق. حُكِمَ عليه في سنة 1985 بعد عملية سطوٍ فاشلة.

- وقد أُطلِقَ سراحه؟

وضع غودريش فنجانه على صندوقٍ من الخشب المصقول كان يُستخدَم كطاولة منخفضة.

- نعم. لقد خرج من السجن منذ سنتين. وجد وظيفة عامل صيانة في مطارٍ في هيوستن وأقام في الشقّة الصغيرة التي رأيتها في الفيلم.

- هل أنت من أعدتَه إليها؟

أكّد غودريش ذلك بحركة من رأسه.

- لم يكن يملك الجرأة لمعاودة الاتصال بابنته. كتب لها رسائل في السجن ولكنّه لم يجرؤ قط على إرسالها إليها.

- ولعبتَ دور الملاك الحارس؟

- دعني من هذه العبارة. بكلّ بساطة فتحتُ عنوةً باب مسكنه أثناء غيابه لأسرق الرسائل التي أرسلتُها لابنته مع فيلمي القصير لكي تستطيع كانديس العودة إليه.

ألقى عليه ناتان نظرة استياء.

- ولكن بأيّ حقّ تسمح لنفسك بالتدخّل هكذا في حياة الناس؟

- كانت كانديس بحاجةٍ إلى هذا اللقاء. فقد عاشت دائماً تحت فكرة أنّ والدها قد تخلّى عنها. وقد قويت عزيمتها عندما علمت أنّ والدها لم يكفّ قط عن حبّه لها.

- أكان ذلك مهمّاً إلى هذه الدرجة؟

- أنت تعلم أنّ غياب الأب لا يتيح للمرء دائماً أن يكوّن شخصيته في ظروفٍ مناسبة.

- حسب الوضع، قال ناتان، لقد ظلم والدي والدتي إلى حدّ أنّه انسحب إلى الطرف الآخر من البلاد. ولذلك، لم يزعجني كثيراً غياب والدي...

خيّم صمتٌ مشوبٌ بالانزعاج.

- كانت حياة هذا الرجل محطّمة. وأعاد بناء نفسه تدريجياً. له كامل الحقّ أن يلتقي ابنته وأن يتعرّف أخيراً على حفيده.

- ولكن، إذا كنت تعرف أنّ كانديس ستموت، أنقذها! تصرّف بحيث لا يحدث هذا!

أغمض غودريش عينيه وأجاب بلهجة قدرية:

- أكتفي بالتقرّب من أفراد هذه العائلة، يا ناتان، وتزويدهم

بقليلٍ من التشجيع ولكن سبق أن قلت لك: لا أحد يستطيع تغيير مجرى الأمور. عليك أن تقبل بذلك.

نهض المحامي بقفزةٍ.

- لو قبلت، في حياتي، بكلّ ما أُريد أن يُفرَض عليّ، لكنتُ أنا أيضاً أكدّس الصناديق في مصنعٍ!

نهض غودريش بدوره وتثاءب.

- لديك ميلٌ جامح لأن ترجع كلّ شيء إلى شخصك.

- هذا أفضل ما أعرفه.

أمسك الطبيب بدرابزين سلّم صغير ينطلق من وسط الصالون.

- يمكنك أن تنام هنا، إذا كان هذا يلائمك. لدي غرفة صديقٍ في الطابق الأوّل فيها فرشٌ نظيف.

في الخارج، كان يُسمَع صفير الرياح وصخب الأمواج المتلاطمة على الشاطئ، ويُشعر بأنّ المحيط قريبٌ، قريبٌ جدّاً.

محبطاً من احتمال العودة إلى شقّته الفارغة والباردة ومدركاً أنّه قد أفرط بعض الشيء في الشراب، قبل ناثان الدعوة دون تمنّع.

11

إنها تشبه قوس قزح

The Rolling Stones

13 كانون الأوّل

حينما نزل ناتان إلى الصالون، في الصباح الباكر، كان غودريش قد غادر إلى صيد سمك التروتة، تاركاً كلمة على الطاولة:

«عند مغادرتك، أغلق الباب وارمِ المفاتيح في صندوق الرسائل».

استقلّ ناتان سيارته وسلك طريق ستايتن آيسلاند. وهو يقود السيارة، لم يكفّ عن التساؤل حول ذلك الشعور الذي يتحرك بين الرفض والانبهار، الذي يشعر به حيال غاريت. بالطبع، كان ذاك الرجل يعكّر، في أغلب الأحيان، مزاجه، ولكنّه في بعض اللحظات شعر بأنّه على تقاربٍ تامٍّ معه، وكأنّه أحد أقاربه، وشقّ عليه تفسير تلك المشاعر المتناقضة.

أمضى ناتان نهاره في مراقبة كانديس وعائلتها. وقد تنقّل لمرّاتٍ عديدة بين المقهى والبيت الصغير.

هذه المرّة، ظلّ الطفل مع جدّه. من الخارج، لم يكن بوسع ناتان سوى أن يخمّن ما يحدث داخل المسكن. بالمقابل، لاحظ أنّ

«كلينت» يحرص على الخروج إلى الشرفة كلّما أراد أن يدخّن. عمل الرجل الستّيني طوال الصباح في منزله ثمّ اصطحب حفيده في نزهة بعد الظهيرة. كان مرتاحاً مع الطفل، وقد لفّه لئلا يتعرّض للبرد، وراح يدفع عربته الصغيرة أمامه بحركة واثقة.

نظر ناتان إليهما، من بعيد، وهما يتنزّهان بين الروضات ذات الطراز الإنكليزي والنباتات الاستوائية في البيوت الزجاجية للحديقة النباتية. لو اقترب لاستطاع أن يسمع «كلينت» وهو يدندن بالأغاني الجنوبية القديمة لهدهدة الطفل.

خلال كلّ تلك الساعات التي أمضاها بمفرده في سيارته، فكّر ناتان غالباً في مالوري: فكّر في تلك اللحظات السعيدة التي لن تعود، في ابتسامتها، في طريقتها تلك التي كانت تسخر بها منه وتعيده إلى نصابه.

لمراتٍ عديدة، حاول أن يتّصل بسان دييغو، ولكن في كلّ مرّة ردّ عليه المجيب الآلي. لم تكن أموره على ما يُرام، في لحظات الإحباط النفسي تلك، كان لا يزال ذهنه رازحاً تحت صور ابنه.

تذكّر كلّ شيء، واشتاق إلى كلّ شيء: لمسته ونعومة خدّيه وحرارة يافوخه ويديه الصغيرتين اللتين كان يحرّكهما بكلّ اتجاهٍ قبل أن ينام.

إذاً، عذّب نفسه وهو يستعيد بألم كلّ ما افتقده أبداً: حضوره الفعليّ الأوّل لعيد الميلاد، أولى الخطوات التي خطاها، أوّل سنّ نبتت له، أولى الكلمات التي نطق بها...

في بداية السهرة، مرّت كانديس كالسهم على بيتها قبل أن تغادر ثانية إلى عملها. كان لديها، في يوم الجمعة، عملٌ ثانٍ في حانة شعبية في المدينة. طبعاً، لا بدّ أنّها كانت تفضّل البقاء في بيتها

بصحبة والدها والصغير جوش، والاستمتاع معهما بهدوءٍ بالسهرة: إعداد وجبة لذيذة وإيقاد النيران في المدفأة والاستماع إلى الموسيقى... ولكنّها لم تكن لترفض فرصةً للحصول على بعض المال. كان عيد الميلاد يقترب. كان هذا العيد بهجةً لها، ولكنّه أيضاً يحتاج إلى المصاريف.

خرجت كانديس من الحمام ودفعت بهدوء باب غرفة ابنها. تهيّأ لها أنّها سمعته يبكي. اقتربت من سريره. ظاهرياً، كان جوش ينام نوماً طبيعياً. إنذارٌ خاطئ، ولكن من الأفضل أن تكون يقظة: فقد كانت جارتها، تانيا ڤاسيرو، قد حدّثتها عن وباء إنفلونزا يعيث في المنطقة فساداً.

وإذ اطمأنّت، خرجت من الحجرة بعد أن طبعت قبلة صغيرة على خدّ الطفل. وألقت عَرَضاً نظرةً على ساعة حائط الغرفة. كان دوامها سيبدأ بعد عشرين دقيقة، وكان عليها أن تستعجل حتى لا تتأخّر. أعدّت نفسها أمام مرآةٍ بالية، مرتدية على عجالة التنورة والقميص. لم يكن جو، صاحب الحانة، يقبل إلا نادلات جذّابات، كما كان يردّد دائماً.

قبّلت والدها، واستمعت إلى نصائحه الداعية إلى الحذر، واحتجّت قليلاً بعبارة («بابا، لم أعد في الرابعة عشرة من عمري!») وانطلقت في عتمة الليل. كانت سعيدة بالعيش مجدّداً معه. تشعر بالاطمئنان لوجود رجلٍ في البيت، ثمّ إنّه كان ودوداً جداً مع جوش...

اضطرّت لأن تقوم بعدّة محاولات للإقلاع بسيارتها البيك-آب القديمة من طراز شيفي، المركبة الوحيدة والفريدة التي اقتنتها والتي يعود وقت شرائها إلى عصور ما قبل التاريخ (مع بداية ولاية جورج بوش الأب...).

بالتأكيد، ليست سيارة حديثة، ولكنّها ما إن تنطلق، كانت تؤدّي مهمّتها لمسافاتٍ قصيرة.

في ذلك المساء، كانت كانديس رائقة المزاج، أدارت الراديو وغنّت مع شانيا تواين لازمتها:

Man! I feel like a woman!

انقطعت أغنيتها بتثاؤبٍ طويل. يا إلهي كم كانت متعَبة! لحسن الحظ، غداً عطلتها. سيمكنها أن تنام حتى الضحى، وأن تأخذ جوش لبعض الوقت في سريرها، ثمّ تذهب لشراء الهدايا الخاصّة بعيد الميلاد. كانت قد انتقت هديّتين مصنوعتين من قطيفة جميلة في المركز التجاري: دبٌّ مَرح وسلحفاة ذات رقبة طويلة بدت لها مضحكة. كان جوش لا يزال صغيراً. وفي ذلك العمر، يحبّ الأطفال الألعاب التي يمكنهم إبقاؤها في سريرهم عندما ينامون. خلال بضع سنوات، حينما يصبح أكبر، سوف تشتري له دراجة، ثمّ كتباً وحاسوباً.

تثاءبت كانديس من جديد. رغم مزاعم البعض، الحياة ليست سهلة في هذه البلاد. حاولت، كلّ شهر، أن تضع جانباً بضعة دولارات تحسّباً لتكاليف دراسة الصغير، ولكنّها لاقت الكثير من المشقّة في العيش بزهدٍ، ولا ضير في القليل من المال الإضافي. نعم، سوف يذهب جوش إلى الجامعة. وكانت كانديس تأمل أن يمارس في ما بعد مهنة مفيدة: كأن يكون طبيباً، أستاذاً، أو ربّما محامياً.

الساعة 19 و58 دقيقة

ركنت سيارتها في المرآب في اللحظة نفسها التي توقّفت فيها سيارة رباعية الدفع ضخمة بحرية اللون ودخلت إلى سيلز بار حيث كان يسود جوٌّ دافئ. كانت الحانة شبه ممتلئة. كانت الجعّة تسيل

طافحة وتُبثُّ موسيقى سبرينغستين قويّةً. كان ذلك جوّاً شعبياً، شبيهاً بجوّ «نيو جيرسي» أكثر مما يشبه جوّاً نيويوركياً.

- ها هي أجمل الفتيات، قال لها جو كونولي الجالس خلف طاولة الحساب.

- مرحباً، جو.

كان كونولي شرطياً سابقاً في دبلن، مقيماً في ستايتن آيسلاند منذ حوالى خمسة عشر عاماً. كانت حانته، برأي الجميع، مكاناً نظيفاً، يرتاده بشكلٍ رئيسي رجال الشرطة وإطفائيو المدينة. منذ أن عملت هنا، لم تصادف كانديس أي مشكلة جدّية: لم تكن المجادلات تتحوّل أبداً إلى صخبٍ وكانت النادلات تحظين بالاحترام.

عقدت المرأة الشابة صدارها وبدأت خدمتها.

- مرحباً، تيد، ماذا أقدّم لك؟

الساعة 20 و46 دقيقة

- أنتِ جذّابة، يا حلوتي.

- ماذا تقولين، يا تامي؟

- أقول إنّك جذّابة، ذاك الرجل المتأنّق الجالس إلى طرف طاولة الشرب، لا يكفّ عن النظر إليك مذ وصلتِ.

- أنتِ تهذين، يا سيّدتي العجوز، ردّت كانديس وهي تهزّ كتفيها.

أمسكت بصينية أخرى محمّلة بأكواب الجعّة وابتعدت ملقية في الوقت ذاته نظرة على طاولة الشرب. كان الرجل المقصود يحدّق فيها. لم تكن قد رأته هنا أبداً. ولم تكن له هيئة شرطيّ ولا إطفائيّ.

سريعاً، التقت نظرتاهما وحدث «شيءٌ ما».

شريطة ألاّ يتصوّر أنني أرغب في اصطياده، فكّرت كانديس.

منذ أن جاء إلى الحانة، كان يتساءل كيف يمكنه أن ينخرط في حديثٍ مع المرأة الشابّة. حتى وإن ادّعى العكس أمام غاريت، لم يستطع الامتناع عن أن يكون قلقاً بشأنها. كان عليه أن يعرف بأيّ ثمنٍ إن كان شيءٌ ما في حياة كانديس قد يشي بخطر موتٍ وشيك.

ولكن كيف يمكن التقرّب من فتاة ومخاطبتها في مساء يوم جمعة، وفي حانةٍ، سوى بطريقة المزاح؟

الساعة 21 و4 دقائق

- أأنت جديد في المكان؟ سألت كانديس.
- في الحقيقة، نعم. أنا محامٍ في مانهاتن.
- هل أقدّم لك شيئاً آخر؟
- كلا، شكراً، سأذهب بعد قليل.

اقتربت كانديس من ناتان وأسرّت له مبتسمةً:

- إن لم تطلب جعّة ثانية، سيغضب العجوز جو وقد يطلب إليك مغادرة الحانة لأنّك تشغل مكاناً على طاولة الشرب.
- ممتاز، إذاً هيّا أحضري لي جعّة ثانية.

الساعة 21 و6 دقائق

- إنّه ليس سيئاً، أبدت تامي رأيها وهي تفتح عدّة زجاجات من جعة البودوايزر بسرعة مذهلة.
- كفّي عن حماقاتك، من فضلك.
- عبثاً تقولين، ليس من الطبيعي أن تكون فتاة جميلة في عمرك عزباء!

- لا أحتاج إلى رجلٍ في حياتي في هذه المرحلة، أكّدت كانديس.

وهي تقول هذا، تذكّرت بأسى آخر مغامراتها الغرامية. ولا داعي للتأكّد من أنّه لم يكن هناك شيءٌ جدّي وعظيم. بعض الغراميات هنا وهناك، ولكن لم يكن هناك قطّ استقرارٌ كاف للتفكير في تأسيس عائلة حقيقية. باختصار، فكّرت من جديد في والد جوش، وهو مندوب تجاري التقته خلال سهرة في بيت زميلة قديمة في الثانوية. لماذا تركت نفسها تنخدع بذلك الرجل؟ ماذا اعتقدت؟ لقد كان جذّاباً ولبق المعشر، هذا صحيح، ولكن كانديس لم تكن بلهاء قط. تذكّرت خاصّة ذلك المساء كلحظةٍ شعرت فيها أنّها بحاجة ماسّة لأن تلفت نظر أحدٍ ما. لم تستغرق تلك الرغبة الوهمية سوى لحظة عناقٍ، وقد وجدت نفسها، مذهولة من الدهشة، حبلى بعد ذلك بوقتٍ قصير، متأكّدة بذلك من المبدأ القديم الذي يعتبر بأنّ ليس هناك أيّ وسيلة منع للحمل ناجعة 100%. لم تشعر بأيّ مرارة لأنّ تلك الواقعة قد وهبتها أجمل هدية في الدنيا، وهبتها جوش. أخبرت والد الطفل بالحمل ولكنّها لم تطالبه بالمساعدة ولا بالنفقة. تحسّرت فقط لأنّه لم يطلب قط رؤية ابنه. طبعاً، كانت تفضّل أن يكون هناك أحدٌ إلى جانبها لتربية الطفل ولكن الأمر جرى بتلك الطريقة وهذا كلّ شيء.

«Forgive and forget»[1]، كما يقول والدها.

الساعة 21 و8 دقائق

- ها هي جعّتك.

- شكراً.

---

(1) يجب أن نغفر وننسى.

- إذاً، ما الذي جئت لأجله إلى هنا، يا محامي مانهاتن؟
- ناديني ناتان.
- ما الذي جئت تفعله في حانتنا... يا ناتان؟
- في الواقع، جئتُ للحديث إليك، يا كانديس.
بدرت منها حركة تراجع.
- كيف تعرف اسمي؟ سألت بارتياب.
- كلّ روّاد الحانة ينادونك كانديس... برّر مبتسماً.
- صحيح، قبِلت وقد هدأت، نقطة لصالحك.
- اسمعي، استطرد، حينما تنتهين من دوامك، هل يمكننا أن نذهب ونتناول شيئاً ما في مكانٍ آخر؟
- أنت تضيّع وقتك معي، أكّدت له.
- لا أحاول أن أخدعك بالكلام، هذا وعد.
- من العبث أن تلحّ علي.
- فمكِ يرفض، ولكن عينيك توافقان.
- هذا كلامٌ خلاّب وحسب. بل حيلة، أشعر بأنها قيلت لي لعشرات المرات.
- لك رائحة الياسمين، اكتفى بإبداء الملاحظة.

الساعة 21 و12 دقيقة

حقّاً إنّه ليس سيئاً بعد كلّ حساب.

الساعة 22 ودقيقتين

- هل يمكنني الحصول على جعة ثالثة؟
- لم تبدأ بعد بشرب الثانية.

- هذا فقط لكي لا أفقد مكاني على طاولة الشرب.

- ما الشيء المهمّ جدّاً في هذا المكان؟

- فرصة النظر إليك.

هزّت كتفيها ولكنها لم تستطع كبت ابتسامة.

- إذا كان هذا كافياً لسعادتك...

- هل فكّرتِ في عَرضي؟

- عَرضك؟

- الذهاب لشرب كأسٍ معي في نهاية دوامك.

- النادلات لا يذهبن أبداً مع الزبائن، هذا هو النظام.

- حينما ستغلق الحانة أبوابها، لن تعودي نادلة ولن أعود زبوناً.

- هذه ملاحظة محامٍ بطريقة نموذجية.

ولم يكن ذلك مجاملة منها.

الساعة 22 و18 دقيقة.

ليس سيئاً، ولكنه واثقٌ جدّاً بنفسه.

- في كلّ الأحوال، لا أخرج أبداً مع رجال متزوّجين، قالت وهي تشير إلى خاتم الزواج الذي كان ناتان لا يزال يحتفظ به في إصبعه.

- أنتِ مخطئة، الرجال المتزوّجون هم الأكثر إثارة للاهتمام، ولذلك تخطفهم النساء.

- هذه ملاحظة سخيفة، قالت.

- كانت مزحة.

- مزحة رديئة.

كان ناتان على وشك أن يردّ عليها حينما اقترب جو كونولي منهما.

- كلّ شيء على ما يرام، يا جو، طمأنته كانديس.

- هذا أفضل، غمغم وهو يبتعد.

انتظر ناتان أن يبتعد صاحب الحانة تماماً ليجدّد عرضه.

- وإن لم أكن متزوّجاً، هل كنتِ لتوافقي على شرب ذلك الكأس معي؟

- ربّما.

الساعة 23 ودقيقتين

- في الحقيقة، أنا منفصل عن زوجتي.

- ما الذي يثبت لي صحّة ذلك؟

- يمكنني أن أطلعك على أوراق الطلاق ولكنني لا أعتقد أنّها ضرورية فقط لمجرّد دعوة فتاة لشرب كأسٍ.

- لا تبالي، سأكتفي بكلامك.

- إذاً، هل توافقين؟

- قلت ربّما...

الساعة 23 و13 دقيقة

لماذا يوحي لي بالثقة؟

إذا طلب منّي ثانية سأوافق...

الساعة 23 و24 دقيقة

بدأت الحانة تفرغ تدريجياً من الزبائن. وتركت موسيقى الروك

التي يؤدّيها المعلّم المفتول العضلات مكانها للموشحات الغنائية الصوفية لتراسي شابمان.

كانت كانديس قد أخذت دقائقها الخمس من الاستراحة وتحدّثت مع ناتان على طاولة في عمق الحانة. كان تيارٌ من الودّ قد سرى بينهما حينما قوطِع حديثهما فجأةً:

- كانديس، لك مكالمة! صاح جو من خلف طاولته.

- نهضت المرأة الشابة بقفزة واحدة. مَنْ تُراه يتّصل بها في مكان عملها؟

أمسكت قلقة بالسماعة وبعد بضع ثوانٍ امتقع وجهها. أغلقت السماعة شاحبة وخطت بضع خطوات مترنّحة لتعود إلى طاولتها ثمّ شعرت بأن ساقيها تنهاران تحتها. هرع ناتان، الذي تابع المشهد، ليلتقطها قبل أن تنهار أرضاً. انهارت باكية بين ذراعيه.

- ماذا حدث؟ سأل.

- إنّه أبي. لقد... تعرّض لأزمة قلبية.

- كيف حدث ذلك؟

- جاءت سيارة إسعاف لتقلّه إلى المستشفى.

- هيا تعالي، سأرافقك إلى هناك! اقترح ناتان وهو يلتقط معطفه.

مستشفى ستايتن آيسلاند، وحدة العناية القلبية المركّزة

هرعت كانديس، وهي لا تزال ترتدي بزّة عملها، نحو الطبيب الذي كان يعالج والدها، وهي تدعو الله أن تكون الأخبار مطمئنة.

كانت تقف الآن أمامه. بل وكان بوسعها أن تقرأ اسمه على اللوحة المعلّقة على قميصه: الدكتور هنري ت. جينكيلز. كانت نظرة

كانديس متوسّلة: أرحني، دكتور، قل لي إنّ الأمر بسيط، قل لي إنني سأستطيع إعادته إلى البيت، قل لي إننا سنمضي عيد الميلاد معاً. سأعتني به، سأعدّ له المنقوع والحساء كما كان يفعل لي حينما كنت صغيرة، قل لي إنّ...

ولكن الدكتور جينكيلز كان قد اعتاد ألاّ يحاول أن يقرأ ما في نظرة مرضاه أو أقاربهم. بمرور السنوات، تعلّم قساوة القلب وتعلّم ألاّ «يتورّط شخصياً». الإفراط في الشفقة يفقده اتّزانه ويمنعه من أن يؤدّي بشكلٍ صحيح عمله. تراجع إلى الوراء قليلاً حينما اقتربت كانديس منه كثيراً. فبدأ آنذاك حديثاً موزوناً:

- آنستي، لقد حظي والدك بالوقت الكافي لطلب النجدة قبل أن ينهار على أرضية المطبخ. حينما عثر عليه المسعفون كانت تبدو عليه كلّ علامات جلطة قلبية شديدة. عند وصوله إلى هنا، كان قلبه قد توقّف عن الخفقان. بذلنا كلّ ما بوسعنا لإنعاشه ولكنه لم ينجُ. أنا متأسّف. إن أردتِ رؤيته، فستدلّك ممرّضة على غرفته.

- لا، لا، لا! صرخت والدموع تنهمر على وجهها. بالكاد التقيته من جديد. هذا ليس عدلاً! هذا ليس عدلاً!

شعرت، وهي ترتعش خائرة الساقين، وكأنّ هاوية مدوّخة تنفتح من تحتها، ومن جديد كان الساعدان الوحيدان اللذان وجدتهما يخفّفان عنها هما ساعدي ناتان.

أمسك المحامي بزمام الأمور. سأل أوّلاً عمّا حلّ بجوش. وقيل له إنّ الطفل نُقِل إلى المستشفى مع جدّه وهو الآن في انتظار والدته في جناح الأطفال. ثمّ رافق كانديس إلى الحجرة التي ترقد فيها الجثّة الهامدة لوالدها. بعد أن شكرت ناتان على مساعدته، طلبت المرأة الشابة منه أن يدعها وحدها للحظة.

حينما عاد إلى البهو، سأل مكتب الاستقبال إن كان الدكتور غودريش في مناوبة هذا المساء. وأجيب عليه بالنفي. فرجع إلى دليلٍ هاتفيٍّ في قسم الخدمة الذاتية ونجح في الاتصال بهذا الأخير في مركز العناية المسكّنة.

- لقد انخدعت تماماً، يا غاريت، أعلن بصوتٍ جهوريّ.

كان منفعلاً جدّاً بحيث شعر بأنّ السماعة ترتجف في يده.

- بخصوص ماذا؟ سأل الطبيب.

- ليست كانديس من كانت يجب أن تموت!

- ماذا؟

- كان والدها.

- اسمع، يا ناتان، لا أفهم شيئاً مما تقول.

تنهّد المحامي عميقاً ليتمكّن من السيطرة على انفعاله.

- أنا في المستشفى، شرح بطريقة أكثر هدوءاً. لقد توفّي والد كانديس بنوبة قلبية.

- تبّاً، قال الطبيب، مندهشاً.

أخذ صوت ناتان يرتعد غضباً:

- إذاً، لم تتنبأ بهذه الوفاة، أليس كذلك؟ ألم ترَ الهالة الصغيرة؟

- كلاّ، قال غودريش مسلّماً بكلامه، لم أتنبأ بأيّ شيء، ولكنني لم أتقرّب قط من هذا الرجل بما يكفي لأن أبدي رأيي حول...

- اسمع، أعتقد حقّاً بأنّ الوقت قد حان للشطب على نظرياتك الضبابية! لقد ضرب الموت قريباً، سيكون من الأفضل لك أن تقرّ بذلك...

- أنت تغالي، كان هذا الرجل قد بدأ يشيخ، وربّما كان يعاني بالأساس من مرضٍ قلبيّ... موته لا يبرهن على أيّ شيء.

- على أيّ حال، نجت كانديس، يا غاريت، هذا كلّ ما أعرفه.

- آمل أن تكون على صواب، يا ناتان، آمل ذلك من أعماق قلبي.

منزل كانديس كوك - الساعة الثالثة صباحاً

كانت الغرفة غارقة في العتمة. وحدها بعض شموع عيد الميلاد الموضوعة قرب النافذة أتاحت تمييز تقاطيع الأشياء والوجوه. انتهت كانديس بالنوم على أريكة الصالون ولكنّها كانت ترتعد محمومة الوجه. كان ناتان جالساً وينظر إليها وكأنّه منوّمٌ مغناطيسياً. كان يعلم أنّها لن تنام إلاّ على نحو متقطّعٍ مليءٍ بالكوابيس. بعد أن استعاد جوش، اصطحب الاثنين حوالى الساعة الواحدة فجراً. كانت المرأة الشابّة منهارة لدرجة أنّها انقادت مثل إنسانٍ آلي. تحادثا للحظة ثمّ جعلها ناتان تتناول المنوّم الذي وصفه أحد أطباء المستشفى.

جذبته صرخة صغيرة إلى الحجرة المجاورة. كان جوش قد استيقظ وقد فتح عينيه واسعتين وهو يتخبّط وسط سريره.

- مرحباً، أيها الفتى الطيب، لا تخف، طمأنه وهو يأخذه بين ذراعيه.

- . . . أنا عطشان. . . طالب الطفل.

أحضر له قليلاً من الماء واصطحبه إلى الصالون.

- كيف حالك، أيّها الطفل الصغير؟

- او. . . طف. . طف. . صغ، حاول الطفل أن يردّد.

قبّل ناتان جبينه.

- انظر إلى أمّك النائمة، تمتم.

- ما. . .ها.

- جلس معه على الأريكة وهدهده بهدوء. بل راح يدندن ببعض أنغام براهمز لولابي. لم يغنّي تلك التهويدة منذ موت ابنه وكاد الانفعال الذي اجتاحه يرغمه على التوقّف في الحال.

بعد بضع دقائق، غطّ جوش ثانية في النوم. وضعه ناتان في سريره وعاد إلى الصالون حيث كانت كانديس لا تزال نائمة. كتب كلمة على ظهر قائمة مشتريات ثمّ تركها على الطاولة قبل أن يغادر البيت.

في الخارج، كان الثلج يتساقط.

14 كانون الأوّل

سحبت كانديس المزلاج وأخرجت رأسها من فرجة الباب.

- آوه! هذا أنت، ادخل إذاً.

- دخل ناتان إلى المطبخ. كانت الساعة التاسعة صباحاً. كان جوش، في كرسيّه الصغير، يخربش في فطوره.

-... الخير، قال الطفل.

- مرحباً، يا جوش الصغير، ردّ ناتان وهو يبتسم للطفل.

مرّرت كانديس يدها في شعر ابنها وهي تنظر إلى المحامي.

- أردتُ أن أشكرك على بقائك هنا إلى وقتٍ متأخّرٍ، البارحة مساءً.

- لا تبالي بهذا، هل تحسّنتِ؟

- لا بأس، أكّدت المرأة الشابة وإن كانت عيناها تؤكّدان العكس.

لوّح ناتان بحزمة صغيرة من المفاتيح أخرجها لتوّه من جيبه.

- لقد جلبتُ لكِ سيارتك.

- شكراً. لقد كنت حقّاً. . . رائعاً، قالت وهي تفتح ذراعيها. هل تركتَ سيارتك في مرآب جو؟

هزّ ناتان رأسه.

- سأرافقك إذاً، اقترحت، ولكن قبل ذلك ستشرب فنجاناً من القهوة معنا.

- بكلّ سرور، أجاب وهو يجلس.

ترك بضع ثوانٍ تمرّ ثمّ قرّر أن يقول:

- في الواقع، هناك ما أطلبه منكِ، قال، وهو يضع صندوقاً جلدياً صغيراً على الطاولة.

- ماذا؟ سألت كانديس فجأة قلقةً، وكأنّ الكثير من اللطف من قبل رجلٍ لم يكن بوسعه أن يفضي إلاّ إلى مفاجأة سيئة.

- أتمنى أن تقبلي. . .

- ماذا؟

- بعض المال، قال ناتان، أتمنى أن تقبلي بعض المال منّي لتربية ابنك.

- أهذه. . . أهذه مزحة؟ قالت وهي تضع فنجانها على الطاولة لئلا تدعه يسقط أرضاً.

- كلاّ، أحاول حقّاً أن أساعدك.

- مَنْ تعتبرني؟ ثارت ثائرتها. غاضبة بشدّة، نهضت من كرسيّها. حاول ناتان أن يهدّئها.

- اهدئي، يا كانديس، لا أطلب منك أيّ مقابل.

- أنت مجنون، ردّدت، لستُ بحاجة إلى مالك.

- بلى، أنتِ بحاجةٍ إليه! أنت بحاجةٍ إليه لكي يدرس ابنك. أنتِ بحاجة إليه لأنّ عدّاد سيارتك يشير إلى ثلاثمائة ألف كيلومتر وهي معرّضة في أيّ لحظة لخطر التحطّم. أنتِ بحاجةٍ إليه لأنّه لم يعد هناك أحدٌ يساعدك.

- وكم تريد أن تعطيني بالضبط؟ لم تستطع المرأة الشابة الامتناع عن السؤال.

- لنقل مئة آلف دولار، اقترح ناتان.

- مئة ألف دولار! ولكن... هذا... هذا مستحيل. الناس الذين يمنحونك هذا القدر من المال من دون مقابل لا وجود لهم!

- أحياناً يدور الدولاب... افترضي أنّك ربحت هذا المبلغ في اليانصيب.

ظلّت منذهلة لبضع ثوانٍ.

- أليست هذه حكاية تبييض أو شيئاً من هذا القبيل؟

- كلا، يا كانديس، هذا ليس مالاً قذراً. لا شيء غير مشروع في هذه المسألة.

- ولكنني لا أعرفك حتى!

- كل ما قلته لكِ عنّي البارحة مساءً صحيح، أكّد ناتان وهو يفتح حقيبته الجلدية. اسمي ناتان ديل آميكو، أنا محام شهير في بارك آفنيو، ولديّ سمعتي كرجل نزيه والقضايا التي أتولاها كلّها عادلة. وقد أحضرت لكِ كمّاً من الوثائق التي تثبت أقوالي: جواز سفري، كشف حسابي المصرفي، مقالات في صحف قانونية تتكلّم عنّي...

- لا تلحّ، قاطعته كانديس، هذه الحيلة لا تنطلي عليّ.

- خذي وقتكِ في التفكير، طلب منها ناتان وهو ينزل من سيارة البيك- آب القديمة.

التقى الاثنان في المرآب الخالي من الناس تماماً، مقابل ساليز بار، وقد رافقت كانديس المحامي إلى سيارته الرباعية الدفع.

- لقد فكّرت تماماً، لا أريد أن أكون مدينة لأحد بخصوص الطريقة التي أعيش بها حياتي.

- لن تكوني مدينة لي بشيء، لا لي ولا لأحد، وعدها وهو ينحني مقرّباً وجهه من النافذة. يمكنك استخدام هذا المبلغ بالطريقة التي تناسبك.

- ولكن ما مصلحتك، في هذا؟

- قبل أسبوع، ربّما ما كنتُ لأعرض عليك عرضاً كهذا أبداً، أقرّ ناتان، ولكن منذ أسبوع، تغيّرت بعض الأمور في حياتي... اسمعي، لم أكن ثرياً على الدوام. لقد رُبيتُ من قِبَل أمّي التي كانت تملك من المال أقلّ مما تملكين الآن. ولحسن الحظّ، استطعتُ أن أدرس. لا ترفضي هذه الفرصة المتاحة لابنك.

- ابني سوف يدرس، إن ساعدتني أم لم تساعدني! دافعت كانديس عن موقفها.

- هوبا! ردّد جوش من عمق المقعد الخلفي وكأنّه ليساند موقف والدته.

- فكّري مرّة أخرى. رقم هاتفي موجودٌ في حقيبة الوثائق. اتّصلي بي ما إن تطّلعي على الوثائق التي تركتها لكِ.

- لقد فكّرتُ جيّداً. كما قلتَ، أكاد لا أملك أيّ شيء ولكن بقي لي شيءٌ يفتقده الكثير من الناس الأكثر ثراءً منّي: الشرف والاستقامة...

- لا أطلب منكِ التخلّي لا عن هذا ولا عن تلك.

- كفّ عن كلامك المعسول. عرضك مستحيل. هناك حتماً فخّ. ماذا ستطلب منّي ما إن ألمس هذا المال؟

- انظري في عينيّ، أمر ناتان وهو يقترب منها.

- لا أتلقّى أوامر منك!

ورغم ذلك رفعت رأسها نحوه.

حدّق فيها ناتان، وأكّد مجدّداً:

- أنا رجلٌ نزيه، وليس هناك ما تخشينه منّي، أقسم لكِ على ذلك. فكّري في ابنكِ واقبلي هذا المال.

- أنا أرفض! كرّرت كانديس وهي تصفق باب السيارة. لقد فهمتني جيّداً. لا، لا، لا!

عاد كلّ من ناتان وكانديس إلى بيته.

كرّست كانديس ما تبقّى من الصباح في تمحيص الوثائق التي احتوتها الحقيبة الجلدية.

قضى ناتان وقته، وعيناه على هاتفه.

عند الظهيرة، رنّ هاتفه أخيراً.

12

ممزَّقاً وسط الموت من قبل الكواسر والوحوش.

لوكريس

بعد أن جال في الحيّ لعشر دقائق، وجد ناتان أخيراً مكاناً ليركن سيارته ونجح لأوّل مرّة في ركنها في مكانٍ ضيّق. جالسة إلى جانبه، انتظرت كانديس لتتوقّف السيارة تماماً كي ترفع طفلها جوش من كرسيّ الأمان الذي وضعته في المقعد الخلفي للسيارة. ثمّ وضعته في عربة دفعٍ ضخمة قابلة للثني، أخرجها ناتان من صندوق سيارته الرباعية الدفع. كان جوش رائق المزاج ويغنّي بأعلى صوته أغاني مرتجلة مضحكة وهو يرضع من قنينة رضاعة نصف فارغة.

توجّهوا ثلاثتهم إلى مبنى من القرميد الرمادي والوردي اللون، كان يضمّ أحد فروع مصرف فيرست بنك نيو جيرسي.

كانت ساعة الذروة. بسبب حشد الناس وضيق الباب الدوّار، صارعا لبضع لحظات كي يُدخلا عربة الطفل إلى داخل المبنى. جاء رجل الأمن - شابٌّ أسود ظريف- لمساعدتهم وهو يبادلهم المزاح حول واقع أنّ المؤسّسات الحديثة ليست ملائمة تماماً للأطفال.

دخلوا إلى قاعة فسيحة منارة ومحاطة بكُوى مزجّجة. كانت منظّمة بشكلٍ جيّد بكُوى استقبالها وبمقصوراتها الصغيرة من الخشب الكتيم والتي كانت تصون الأحاديث الودّية بين الزبائن والموظّفين.

نبشت كانديس حقيبة يدها لتخرج الصك الشهير.

- هل تعتقد حقّاً أنّ هذه فكرة جيّدة؟

- لقد سبق أن ناقشنا هذا الأمر، أجاب ناتان بلطف.

نظرت كانديس إلى جوش، وفكّرت من جديد في مستقبله، الأمر الذي جعلها تقف في الدور أمام كوّة.

- هل أرافقك؟ اقترح ناتان.

- لا داعي لذلك، أجابت، لن يطول الوقت. لا عليك سوى أن تجلس هناك، قالت وهي تشير إلى صفٍّ من المقاعد في عمق القاعة.

- دعيني آخذ جوش معي.

- لا بأس، سأبقيه بين ذراعي. أرِحني فقط من هذه العربة اللعينة.

بينما كان يبتعد وهو يجرّ العربة الفارغة، وجّهت له كانديس ابتسامة مرفقة بإيماءة صغيرة من يدها.

في تلك اللحظة، ذكّرته بمالوري. بالتأكيد، كان يزداد تعلّقاً بهذه المرأة، ببساطتها، بالطمأنينة الهادئة المنبعثة من كلّ حياتها. وقد تأثّر بالفعل بالمحبّة الموجودة بينها وبين ابنها، بالطريقة التي تقبّله بها وتوشوش في أذنه بكلمات حنونة كلّما أوشك على البكاء. كانت أمّاً متّزنة ورصينة. لم تكن هناك أهمية لسترتها البالية أو صبغة شعرها الرخيصة. ربّما لم يكن لها شأن النجمات العالميات ولكنّها كانت أكثر جاذبية وأكثر اجتماعية.

وهو يتابع المرأة الشابة بنظره، لم يستطع الامتناع عن التفكير في المسار الذي اتّخذته حياته. ربّما يكون قد أخطأ في رغبته في التخلّص بأيّ ثمنٍ من منبته الاجتماعي. ربّما لكان سعيداً أكثر مع امرأةٍ مثل كانديس، في بيتٍ صغير مع كلبٍ وسيارة بيك- آب مزيّنة بعلمٍ عليه

نجوم. وحدها الطبقات الثرية تتخيّل أنّ للناس العاديين حيوات رتيبة. كان يعلم، هو المنحدر من وسطٍ شعبي، بأنّ ذلك ليس صحيحاً.

بالنسبة لكثيرين، لم يكن الرجلَ المنخرط في الثرثرة الدائرة حول أهمية الأمور التافهة للحياة التي يُفترض أنها تمنح السعادة. كان قد عانى كثيراً من شحّ المال لكي يستهين به الآن وهو يملكه. ولكن خلافاً لما اعتقده لزمنٍ طويل، كان يعلم الآن بأنّ المال لا يكفيه. كان بحاجة إلى من يتقاسمه معه. لم يعد يرغب في الذهاب إلى أيّ مكانٍ دون يدٍ تصاحبه؛ فبدون صوتٍ يردّ عليه، ليس إلاّ صمتاً؛ ودون وجهٍ أمام وجهه، لا وجود له.

تبادل ناتان بعض الكلمات مع رجل الأمن القائم على الحراسة أمام باب المدخل. في الأمس، كان اليانكيون قد أعلنوا عن اختبار لاعب جيّد للموسم المقبل وقد تحمّس الشرطي وهو يتصوّر المآثر التي سيحققها فريقه المفضّل في البيسبول.

فجأةً، قطع الشرطي حديثه منشغلاً برجلٍ ضخم عريض المنكبين دفع باب المدخل. كان الرجل طويلاً بقامة لاعب كرة سلّة، ويلفّ وشاحاً حول رقبته ويحمل حقيبة رياضية ذات حمّالات.

فكرة غير مألوفة أن يحمل المرء معه حقيبة بهذه الضخامة، فكّر ناتان.

بدا الرجل متوتّراً. وقد التفت، منحرف المزاج بوضوح، مراراً عديدة ليترصّد الرجلين بنظرة شاردة. تقدّم الحارس بضع خطوات نحوه. فتظاهر الرجل بالتوجّه نحو أحد أرتال الانتظار ولكنّه توقّف

على الفور في وسط القاعة. وفي جزءٍ من ثانية، أخرج من حقيبته سلاحاً وقناعاً أسود ارتداه.

- أنت، يا هذا!

وحتى قبل أن يتمكّن الشرطي من سحب مسدّسه، ظهر فجأة شريكٌ للرجل ووجّه إليه ضربتين عنيفتين بمطرقة. داخ الشرطيّ تماماً، فانهار على الأرض واستغلّ الآخر ذلك وجرّده من سلاحه.

- لا تتحرّكوا! لا تتحرّكوا، أيّها القذرون! ضعوا أيديكم فوق رؤوسكم القذرة!

كان الشخص الثاني هو من يقود العمليات. لم يكن يرتدي قناعاً وإنّما بنطال عملٍ وسترةً إضافية للجيش الأميركي. كان شعره حائل اللون وقصيراً وواقفاً وعيناه محتقنتين بالدم.

كان مدجّجاً بالسلاح، يمسك بيده اليمنى مسدّساً من عيارٍ ثقيل وعلى كتفه رشّاشٌ، على غرار ما نشاهده في ألعاب الفيديو.

ولكن لم يكن ذلك لعبة. كان سلاحاً يسمح بإطلاقٍ كثيفٍ للنار وبالتالي قادراً على إيقاع العديد من الضحايا.

- انبطحوا! جميعكم، هيّا بسرعة!

كانت هناك صيحات. انبطح الزبائن والموظّفون جميعهم أرضاً.

استدار ناتان مباشرةً ليبحث عن كانديس ببصره. كانت المرأة الشابة قد وجدت ملاذاً تحت مكتبٍ في إحدى المقصورات. كانت تضمّ جوش بشدّة إلى صدرها وتحاول أن تهدهده. بصوتٍ خفيضٍ، ردّدت عليه من دون انقطاع: «هذه لعبة، هذه لعبة، يا بُني»، وهي ترغم نفسها على الابتسام. كعادته، فتح الطفل عينيه واسعاً يراقب باهتمام المشهد الغريب الدائر من حوله.

تناهش القلق الوجوه، وكان ناتان كغيره منبطحاً.

كيف استطاعوا الدخول مع هذه الأسلحة؟ كان ينبغي أن تُفتّش حقائبهم عند المدخل. ولماذا لم يطلق جهاز الإنذار صفّارته، يا للعنة؟

إلى جانبه، انحنت امرأة متوتّرة بوضعية جنينية خلف اللافتة الخشبية لإحدى الكوى. أراد أن يوشوش لها ببضع كلمات ليهدّئ من روعها ولكن حينما فتح فمه، شعر بأنّ ثقلاً ينزل على جسده وعاوده ألم صدره. كان بوسعه أن يسمع الصخب المكبوت لقلبه النابض بطريقة غير منتظمة. فتّش في جيب معطفه بحثاً عن بخّاخ الترينيترين لاستنشاقه.

- أبقِ يديك فوق رأسك! صرخ فيه الوحش الصغير الذي يرتدي الزيّ العسكري قبل أن يتوجّه من دون تردّد نحو رئيس فرع المصرف. كان المهاجمان اثنين فقط. ولا بدّ أنّ شريكاً كان ينتظرهما في سيارة مركونة قريباً.

- أنت، تعال معي، أنا بحاجة إلى الرموز لفتح الباب.

دفع الشرير رئيس فرع المصرف إلى حجرة في عمق البهو. سُمِعَ بابٌ معدني ينفتح، ثمّ، بعد ذلك بقليل، دلّل صخبٌ أكثر غموضاً على أنّ باباً ثانياً سيفتَح.

ظلّ الرجل المقنّع في القاعة الرئيسية لمراقبة الرهائن. وقَف فوق أحد المكاتب، لكي يُظهِر بأنّه يسيطر على الموقف.

- لا تتحرّكوا! لا تتحرّكوا! ظلّ يردّد باستمرار.

من بين المهاجمَين، كان هو بالتأكيد الحلقة الأضعف. ينظر في كلّ آن إلى ساعته ويدقّ بجنون قاعدة قلنسوته لأنّها كانت تشدّ بشكلٍ موجعٍ على قاعدة رقبته. ويردّد بنفاد صبر:

- ماذا تفعل، يا تود؟ أسرِع، تبّاً لك!

ولكن الآخر، المشغول في القاعة الداخلية، لم يرد.

بعد لحظة، وقد ضاق ذرعاً، نزع قناعه بحركة مفاجئة. كان العرق يقطر من جبينه ويرسم هالات داكنة تحت ذراعيه. ربّما كان قد عرف من قبل لفترة قصيرة حلاوة السجن وخشي أن ينزل فيه لفترة أطول.

لأنّه كان يلعب، هذه المرّة، لعبة كبيرة: السطو المسلّح المصحوب بالعنف. كان يلعب لعبة كبيرة وكان الوقت يمرّ سريعاً.

أخيراً، ظهر «العسكري» فجأةً في الصالة الرئيسية، محمّلاً بحقيبة مثقلة. صرخ في شريكه:

- لقد جاء دورك، يا آري، هيا انهِ الحصاد.

- اسمع، يا تود، فلننسحب الآن، لدينا ما يكفي من المال لكي...

ولكنّ الرجل الذي يرتدي لباس العمل لم يقبل بالاكتفاء.

- اذهب واجلب ما تبقّى، يا يرقانة!

أراد ناتان أن يستغلّ ذلك الخلاف ليقترب من كانديس. كان قلبه يدقّ بسرعة جنونية. شعر بأنّه مسؤول عن حياة المرأة الشابّة.

بينما كاد يقف على قدميه، انقضّ المدعو آري نحوه ووجّه له ركلة عنيفة صدمت رأسه بالمكتب.

- أنت، ابقَ في مكانك، أتفهم؟

ولكنّ «العسكري» انقضّ عليه في ثانية وصرخ فيه:

- قلتُ لك اذهب واجلب المال! أنا سأراقبه.

كان ناتان دائخاً. وقد التقط أنفاسه بطريقة ما قبل أن يضع يده فوق قوس حاجبه. سال خيطٌ من الدم على صدغه ووصل إلى قميصه. لو خرج من هنا حيّاً، سيبقى متورّم الوجه لأيامٍ عديدة.

في تلك اللحظة، قامت كانديس بحركة نحوه. فرفع رأسه من جديد. سألته بنظرة قلقة وكأنّها تقول «كيف حالك؟». وطمأنها بإيماءةٍ من رأسه.

جهدت لكي تبتسم ولكن ناتان لاحظ أنّها كانت شاحبة جدّاً، وممتقعة.

كان لا يزال ينظر إليها عندما اختلط، فجأةً، كلّ شيء في ذهنه. لجزءٍ من ثانية، تطابق وجها كانديس ومالوري.

لا بدّ أنّه قد أراد، بكلّ قواه، أن يحميهما من تلك الأعمال العنيفة.

فجأةً، وبينما لم يعد أحد يصدّق ذلك، دوّت صافرة إنذار بصوت حادّ في أرجاء المصرف.

استولت حالة من الهلع على المهاجمَين. ظهر آري فجأةً في القاعة المركزية ويداه ممتلئتان بالأوراق النقدية.

- ماذا يحدث، يا تود؟

- لا بدّ من الانسحاب قبل وصول الشرطة! قال «العسكري».

- لقد أخبرتني بأنّك فصلت نظام الإنذار! تباً لك، لقد قلت أن ليس هناك أيّ خطر، يا تود!

كانت قطرات من العرق تسيل على طول وجهه. كان شديد الخوف بحيث ترك رزمة الدولارات تسقط من يديه.

اقترب تود من النافذة وشاهد سيارة تمرّ كالبرق أمام المصرف.

- السافل، لقد انسحب جيرالدو من دوننا، يا للأخرق!

- ماذا سنفعل من دون سيارة؟ صرخ آري، المنهار تماماً.

ولكن الآخر لم يكن يصغي إليه. في طرفة عين، رفع حقيبته على كتفه ممسكاً بالرشاش بيد وبالمسدّس بالأخرى.

دفع باب المصرف بعنف وخرج في اللحظة نفسها التي وصلت فيها سيارات عديدة للشرطة مطلقة صفّاراتها.

سُمِع تبادلٌ لإطلاق النار تخلّلته صيحات وصرخات.

أمّا آري الذي تردّد في اللحاق بشريكه فتراجع مسرعاً وأغلق الباب.

- لا تتحرّكوا! صرخ وهو يوجّه فوهة مسدّسه من عيار 9 ملم نحو الموظفين والزبائن الذين كانوا جميعاً منبطحين أرضاً.

كان يتشبّث بسلاحه كحماية أخيرة.

بدوره لم يبارح ناتان المسدّس ببصره.

كمّ ضحية سيوقع هذا المجنون الهائج؟

سُمِعت سلسلة أخرى من إطلاق النار، ثمّ لم يعد هناك أيّ شيء إلى أن دوّى صوتٌ جهوري عبر مكبّر للصوت:

أنتم محاصرون
لقد أُلقي القبض على شريككم.
هيّا اخرجوا من المبنى
من دون سلاح وبلا حركة مباغتة.

ولكن لم يكن ذلك ما يتوقّعه المجنون الغاضب.

- أنتِ، تعالي إلى هنا!

حدث ما كان ناتان يخشاه: جرّ المهاجم كانديس من يدها بقسوة ليتّخذها رهينة. ولكن هذه الأخيرة لم تكن تنتمي إلى صنف المهزومين. مستعدّة للقيام بأيّ شيء في سبيل إنقاذ ابنها، قاومت بضراوة ونجحت في الفرار إلى عمق القاعة بينما كان جوش يصرخ بين ذراعيها. وفي الحال، نهض ناتان ووقف بين آري وبينهما.

وإذ جنّ جنونه حنقاً من تلك المقاومة، صوّب آري مسدّسه على ناتان الذي خالجت المئات من الأفكار دماغه آنذاك.

ربّما يقتلني ولكن لن يحصل مكروه لكانديس. حتى وإن أطلق عليّ النار، سيداهم رجال الشرطة القاعة مباشرة، ولن يعود هناك خطرٌ عليها.

بدت كلّ ثانية وكأنّها تمتدّ بلا نهاية.

غاريت مخطئ. أعلم أنه مخطئ. ليس هناك أمرٌ محتوم مسبقاً. لا يمكن للحياة أن تسير بهذه الطريقة. لقد نجت كانديس. لقد ربحتُ، يا غاريت. لقد ربحت.

كان المحامي في مرمى سلاح آري، وهو مسدّس آلي من نوع غلوك 17 لوغر، الذي يمكن شراؤه بأقلّ من خمسين دولاراً في أيّ معرضٍ للسلاح في هذا البلد الذي أصبح فيه إطلاق النار من البنادق الهجومية رياضة قومية.

كان آري، المذعور تماماً، لا يزال يمسك بيديه أخمص سلاحه. وضع يده على الزناد. لم يعد يسيطر على نفسه. كان سيطلق النار.

رفع ناتان عيناً إلى باب المدخل. لم يستغرق ذلك سوى عُشر الثانية، ولكنّه كان كافياً ليرى موظّف الأمن، الذي استعاد أخيراً وعيه، وهو يُخرج سلاحاً مخفياً في قرابٍ صغير معلّقٍ على خاصرته اليمنى.

وقد كانت تلك الحركة سريعة جدّاً بحيث لم يتمكّن آري من التحسّب لأيّ شيء. وقف الحارس جزئياً، ممدود الذراع، وأطلق رصاصتين. مرّت الأولى بجانب هدفه ولكنّ الثانية أصابت المجرم في منتصف ظهره وجعلته يخرّ على الأرض.

زرعت الانفجارات الرعب والفزع. وأخذ الناس يركضون نحو

المخرج بينما، في الاتجاه المعاكس، قفز رجال الشرطة والإسعاف واحتلوا داخل المبنى.

- أخلوا القاعة! أخلوها! أمر شرطيٌّ.

ولكنّ ناتان هرع إلى عمق القاعة.

كانت مجموعة من الناس تحيط بجثّة هامدة على الأرض.

اقترب المحامي من حلقة الناس.

كانت كانديس ممدّدة على الأرض بينما يتشبّث جوش بها يائساً، وهو يحوزق رعباً.

- اطلبوا النجدة! صرخ ناتان بكلّ قواه. استدعوا سيارة إسعاف!

كانت الطلقة الأولى قد مسحت مصراع أحد الأبواب الحديدية لتنهي مسارها في خاصرة المرأة الشابة الغارقة في بركة من الدم.

انحنى نحو كانديس وأمسك بيدها.

- لا تموتي! قال لها بلهجة راجية وهو يسقط على ركبتيه بجوارها.

أصبح وجه كانديس شديد الشحوب. فتحت فمها لتقول شيئاً ولكنها لم تستطع سوى أن تلفظ خيطاً من الدم سال على طول شفتيها.

- لا تموتي! صرخ من جديد طالباً العون من كلّ آلهة الخليقة.

لكنّها كانت قد فارقت الحياة. لم يتبقّ سوى جسدٍ هامدٍ ليس له شيءٌ مشترك مع المرأة الشابّة التي كانت، قبل ساعةٍ، تبتسم للحياة وتروي حكايات لابنها.

لم يستطع ناتان، الذي اغرورقت عيناه بالدموع، أن يفعل شيئاً سوى وضع يده على حاجبيها.

سأل صوتٌ من بين الحضور: «أَهي زوجته؟»

وصلت سيارة إسعاف الطوارئ بعد ذلك ببضع دقائق.

ضمّ المحامي جوش بشدّة بين ذراعيه. بأعجوبة، لم يُجرَح الطفل ولكنّه كان مصدوماً للغاية. لحق ناتان بالنقّالة التي نقلت جثّة كانديس حتى خارج المصرف. في اللحظة التي علا الغطاء الألمنيومي وجه كانديس، تساءل ناتان إن كان حقّاً قد انتهى كلّ شيء بالنسبة لها. ماذا يحدث في لحظة الموت؟ هل هناك شيءٌ ما بعد الموت؟ هل هناك ما بعد؟

دائماً تلك الأسئلة نفسها التي لطالما طرحها أثناء موت أمّه وموت ابنه.

للمرّة الأولى منذ أسبوع، أنارت شمسٌ ساطعة السماء كما يحدث في نيويورك شتاءً. كان الجوّ صافياً تشوبه ريحٌ باردة وجافّة.

على الأرصفة، استراح أناسٌ مصدومون بعد ذلك الصباح المرعب وكاد جوش، بين ذراعي ناتان، أن يغرق في دموعه.

دائخاً تماماً، شعر المحامي بأنّه نهب عاصفة. بلغته الصيحات من كلّ حدبٍ وصوب وكانت عيناه المحمرّتين مبهورتين بمشهد الفوانيس الدوّارة لسيارات الشرطة. وكان المصوّرون والصحافيّون يسألون الرهائن.

مرهقاً بعبء الندم والإحساس بالذنب، بذل ناتان ما بوسعه لحماية جوش من تلك الجلبة.

بينما كانوا يخلون جثّة المهاجم، لحق به شرطيّ من شرطة نيويورك، يرتدي بزّة زرقاء داكنة، لكي يطرح عليه بعض الأسئلة. كان اللاتينيّ قصيراً وسميناً له وجه مراهقٍ.

بدأ الشرطيّ بالكلام ولكنّ ناتان لم يكن يستمع إليه. كان يمسح بكمّ قميصه وجه جوش حيث امتزجت آثار الدم بدموعه. كان ذلك دم كانديس. من جديد، غمرته موجة أسى وأجهش بالبكاء.

- أنا مَنْ قتلتها! لقد جاءت إلى هنا بسببي!

أراد الشرطي أن يخفّف عنه:

- ما كان بوسعك أن تعرف، يا سيّد. أنا متأسّف.

جلس ناتان على الرصيف وأمسك برأسه بين يديه. ارتعش كلّ جسمه بالتشنّجات. وشعر بأنّ الخطأ خطأه وأنّه قد حمل بنفسه كانديس إلى الموت. لو لم يعرض عليها ذلك المال اللعين، لما وضعت قط قدمها في ذلك المصرف، ولما حصل أيّ شيءٍ من ذلك القبيل! كان هو المسؤول الوحيد عن تلك الدوّامة المشؤومة. لم يكن إلاّ بيدقاً، وجِد هناك في تلك اللحظة المحدّدة ليشارك في حدثٍ عصيبٍ عليه. ولكن كيف يقبل بعالمٍ، الحياة والموت فيه قدريان إلى هذه الدرجة؟

خُيّل إليه أنّه يسمع صوت غودريش وهو يكرّر عليه، كصدى:

لا يمكننا أن نجادل في القرار النهائي وليس لأحدٍ تأثيرٌ على ساعة الموت.

رفع وجهاً غامراً بالدموع نحو الشرطي.

وكأنّه ليواسيه، كرّر له هذا الأخير مرّة جديدة:

- ما كان بوسعك أن تعرف.

13

تأمّل في هذا إذاً، أرجوك، ليلاً ونهاراً.

شيشرون

في البدء، لم يكن الماضي والمستقبل موجودين.

كان ذلك قبل الانفجار الكبير. الانفجار الذي ولّد المادة والفضاء والزمن.

في الموسوعات، يمكننا قراءة أنّ تاريخ عالمنا بدأ منذ خمسة عشر مليار سنة. وهذا هو أيضاً عمر أقدم النجوم.

أمّا الأرض، فقد تشكّلت منذ أقلّ من خمسة مليارات سنة. وسريعاً جدّاً، أي بعد ذلك بمليار سنة، آوت الأرض كائنات حيّة أوّلية: البكتيريا.

ثمّ كان دور الإنسان.

الكلّ يعلم ذلك ولكن الكلّ ينسى ذلك: يظلّ زمن الإنسانية شيئاً لا يُذكَر مقارنة بزمن الكون. وحتى داخل هذا الفتات الضئيل جدّاً، لم يبدأ البشر إلاّ في العصر النيوليتي بالتحضّر وبابتداع الزراعة والمدن والتجارة.

ثمّ حصل انقطاعٌ آخر بعد ذلك بقليل، في نهاية القرن الثامن

عشر. اكتسب الاقتصاد تدريجياً أهمية متزايدة، الأمر الذي أتاح تنامي الثروات المنتجة. ثمّ جرى الحديث في ما بعد عن الثورة الاقتصادية والحداثة.

مع ذلك، وعشية تلك الحقبة، لم يكن معدّل العمر إلاّ خمسة وثلاثين عاماً.

كان الموت منتشراً في كلّ مكان. وكان يُقبَل به.

منذ البدء، أكثر من ثمانين مليار كائن بشري عاشوا قبلنا وبنوا مدناً وكتبوا كتباً وألّفوا موسيقى.

أمّا نحن الأحياء، فلسنا إلاّ ستّة مليارات اليوم. وبالتالي عدد موتانا هو تقريباً أربعة عشر ضعف عددنا. وهم يتفسّخون ويتحلّلون تحت أقدامنا وفي رؤوسنا. وتفوح رائحتهم من أرضنا وأطعمتنا.

ونشتاق إلى بعضهم.

عمّا قريب، خلال بضعة مليارات من السنين، سوف تفقد الشمس احتياطاتها من الهيدروجين وسيتضاعف حجمها مئة مرّة. وستتجاوز درجة حرارة الأرض حينئذٍ 2000 درجة مئوية ولكن من الأرجح سيكون الجنس البشري قد فُني منذ زمنٍ طويل.

أمّا الكون، فسوف يستمرّ بلا شكّ في التمدّد وفي الفراغ من كلّ مجرّاته. ومع الوقت، سينتهي الأمر بالنجوم أيضاً أن تنطفئ، مشكّلة مقبرة شاسعة في الكون.

في هذا المساء، السماء خفيضة والليل هادئ.

في شقّته، استسلم ناتان ديل آميكو لغزو أضواء المدينة التي كانت تعلو نحو سان ريمو.

أصغى إلى ضجيج نيويورك، ذلك الهدير الناجم عن المزامير وأبواق سيارات الإسعاف وسيارات الشرطة.

وحيدٌ.

خائفٌ.

مشتاقٌ لزوجته.

ويعلم أنّه سيموت قريباً.

14

الموتى لا يعرفون إلا شيئاً واحداً: من الأفضل أن يكون المرء حيّاً.

حوار من فيلم: *Full Metal Jacket*

لستانلي كوبريك

15 كانون الأوّل

كان الإطار المقوّس للكوى المزجّجة الواسعة يدع خيوط الشمس تدخل إلى المسكن العالي جدّاً من الشرفة. كانت الجدران المطليّة بأبيضٍ سفوري طافحة بالضياء، وكأنّها في عزّ الصيف. كان الجوّ حارّاً. عمل نظامٌ آليّ بصمت لكي يُنزِل الستائر المعدنية الخارجية.

كان ناتان خائراً في أريكة منخفضة لونها بلون الصوف. وضع قارورة كورونا فارغة على الأرضية الخشبية الصهباء. كانت تلك قارورته الرابعة، ولأنّه لم يكن معتاداً على الشرب، شعر بغثيانٍ شديد.

منذ الصباح، تاه من دون هدفٍ في شقّته.

ماتت كانديس. إذاً كان غاريت يملك حقّاً تلك القدرة الهالكة على الحدس بالموت.

كان الأمر بالنسبة له يعني أنّ الرحلة قد أوشكت على نهايتها. لم

يعد الآن يشكّ في ذلك. حضر غودريش من أجل الشابّ كيڤن ومن أجل كانديس والآن حضر من أجله. إنّها حقيقة من الصعب الإقرار بها ولكنّه مرغمٌ على القبول بها.

كيف سيتصرّف الآن وهو على موعدٍ مع الموت؟ كيف سيواجه هذه الصدمة؟

كان يعيش في عالمٍ تسوده روح المنافسة. عالم يترك مكاناً ضيّقاً للضعفاء. ولشدّة ما لعبَ دور الرجل الفائق القدرة كاد ينسى أنّه إنسانٌ فانٍ.

لقد سبق أن تعرّض لهذا الحادث، في نانتوكيت، ولكن يبدو أنّه لم يأخذ أيّ درسٍ منه. نهض ووقف أمام الكوى المزجّجة التي كانت تقدّم إطلالة خلاّبة على الحديقة. أصابه صداع بسبب الكحول. تدافعت صور مرعبة للانفصال والحداد والألم في ذهنه من جديد. فكّر في جوش. شعر بألمٍ ممزّقٍ حينما جاء موظّف الخدمات الاجتماعية وانتزع منه الصبيّ، بعد عدّة دقائق من انتهاء الهجوم المسلّح. أيّة طفولة ستكون له وهو يتيمٌ عمره سنة واحدة؟ كان معرّضاً لخطر المعاناة من طرف العائلات المستقبِلة له، الأسر التي سيكون دائماً فائضاً عنها، ومن انعدام الحبّ والحماية.

شعر ناتان بأنّه محبط للغاية. كلاّ لم يكن قويّاً. لا أحد كذلك حقّاً. كلّ شيء يتوقّف على خيط: حياته كحياة سين.

ولا سيما أنّه لطالما أراد التحسّب لكلّ شيء!

حتى وإن كان يعلم أنّ ذلك سيغيظ مالوري، وقّع على عقود تأمينٍ للحماية من معظم الأخطار الكبيرة - السطو، الحريق، الفيضان، الصاعقة، الإرهاب... - ولكنّه لم يبذل قطّ أيّ جهدٍ لكي يستعدّ لذلك المصير السيئ.

حينما يُطرَح السؤال عليه، كان يقول إنّه يؤمن بالله، بالطبع. ماذا كان بوسعه أن يجيب بغير ذلك؟ كان في أميركا، يا للعنة! بلدٌ حتى الرئيس يؤدّي فيها اليمين بالقسم على الكتاب المقدّس!

إلا أنّه، في أعماقه، لم يكن يتمنّى أيّ آخرة أو أيّ انتقال للروح.

نظر من حوله، لم تكن هناك آثار تفاخرية في شقّته وإنّما تفنّنٌ في البساطة والحداثة. كان كلّ ما فيها سعة وضياء وشفافية. أحبّ ذلك المكان. كان قد رتّبه بنفسه بعد انفصاله عن مالوري، لأنّ مالوري لم تقبل أبداً أن تسكن في البيت السابق لوالدها. كان يشعر فيه عادةً بالأمان، محمياً بكلّ تلك المواد الطبيعية من خشبٍ ومرمرٍ التي شكّلت بيته وبدت عابرة للزمن من دون خسارة ظاهرة.

على أحد الجدران المغطاة بالزخارف، علّق رسوماتٍ لمالوري مرسومة بقلم الرصاص. رسومات شاهدة على أيامٍ سعيدة.

ارتجف خوفاً، وفي الوقت نفسه، شعر بنفحة غضبٍ قويّة تراوده.

لماذا هو؟ ولماذا هكذا؟

لم يكن يريد أن يموت سريعاً جداً. ما زال لديه الكثير من الأمور التي ينبغي القيام بها: فتاة صغيرة يراها وهي تكبر وامرأة عليه استردادها.

هناك آخرون ينبغي أخذهم قبلي!

ربّما لم أفعل شيئاً عظيماً في حياتي ولكنني لم أفعل شيئاً سيئاً حقّاً.

إذا كان مبشّرو المصيبة هؤلاء موجودين، الا ينبغي أيضاً أن يكون هناك نظامٌ أو ترابطٌ منطقيّ للموت؟

بالطبع كلاّ! هناك أطفال وأبرياء يموتون في كلّ لحظة. الموت لا يحبّ المشاعر النبيلة. يكتفي البشر بتجرّع المرارة قائلين إنّ الله يستدعي من يحبّهم!

هو، لم يكن يرغب في أن يُستدعى إلى أيّ مكان. كان يريد أن يحيا. هنا والآن. محاطاً بمن أحبّهم.

ما العمل؟

لم تكن طبيعته تدعوه إلى انتظار أن تحدث الأمور.

أمام وضعٍ استثنائي، كان عليه أن يتشبّث بشيءٍ ما ولكن كان عليه أن يفعل ذلك بسرعة، الآن وقد تسارع العدّ العكسي.

اقترب من رفّ كان عليه تمثالٌ من الجصّ ليد بوني.

وضع يده على يد ابنته وفكّر من جديد في طفولته.

ظلّت تلك الفترة مشوّشة في ذهنه ولم يكن يحتفظ من تلك المرحلة بألعابٍ ولا بألبوم صور. على أيّ حال، لم تُلتَقَط الكثير من الصور في بيته...

نظر ناتان مرّة أخرى إلى كلّ شيء من حوله. بالقرب من السلّم، كان ملاكٌ توسكانيّ من الصلصال يحرس تحت نظرة نمرٍ حجريّ أحضره له جوردان من راجاستان.

عبثاً أصبح ثريّاً، إذ كان يعلم بأنّ لا شيء يمكنه أن يعوّض شظف عيش سنوات طفولته.

لم يحقد ناتان على أحدٍ. على العكس، كان يعلم جيّداً بأنّه في سنوات الشقاء تلك وجد القوّة ليبني شخصيته.

لأنّه فيما بعد، في الجامعة، تغيّر كلّ شيء. تعلّم ألا يفوّت

فرصته. أراد أن ينجح وعمل بلا توانٍ، ولم يتردّد في البقاء لأيامٍ كاملة في القاعات الفسيحة للمكاتب الجامعية، غارقاً في المواجيز القانونية والدراسات الجنائية.

تردّد على الميادين الرياضية. لم يكن مصارعاً مدهشاً ولكنه على غير ما كان يُتوقّع، كان أحد المفضّلين عند أسياد الهتافات الذين لم يفوّتوا قط فرصةً لتشجيعه.

بدءاً من تلك الفترة، لم يعد يُنظَر إليه على أنّه ابن خادمة من كوينز، وإنّما كمحامٍ مستقبليّ له مستقبل كبير.

وبالمقابل، احتفظ عن تلك الفترة بذكريات كثيرة.

عبر القاعة، أمسك بالسلّم المعدني من الحديد المطروق وصعد وهو يكاد يجري، على الدرج المصنوع الحجر الروماني، الذي يوصل غرفته بمكتبه.

في الطابق العلوي، مرّ من خلف الحائط المبنيّ من الزجاج السميك والمعدن والذي يحجب زاوية صغيرة للاستراحة كان قد أعدّها بنفسه. وهي نوع من قاعة مكتبة رتّب فيها أسطواناته وأقراصه المدمجة.

كان يمكن رؤية مجموعة من القبّعات وسراويل السباحة، المعلّقة على الجدران، على صورة اليانكيين. وعلى رفّ، كانت كرة بيسبول إلى جانب بعض التذكارات الرياضية التي تم حصدها في الجامعة وكذلك صورة له أمام سيارته الأولى، من نوع موستانغ وقد اشتراها مستعملة وعدّادها يشير آنذاك إلى أنّها قد سارت لمئات الآلاف من الكيلومترات.

للمرّة الأولى منذ زمنٍ طويل، قلّب بحنينٍ في أسطواناته القديمة المصنوعة من مادة الفينيل في الثمانينات. كانت تلك حقبة موسيقى

جميلة: بينك فلويد، دير سترايت، فرقة بي جيس، مادونا قبل أن تصبح أيقونة...

كما كانت هناك أسطوانة أكثر قدماً.

عجباً، لا أتذكرها. لا بدّ أنها لمالوري.

أخرج الرفوف الـ 33 للخزانة.

كانت الأسطوانة *Imagine*، الألبوم التعويذة لجون لينون.

على الغلاف كان يظهر رأس العضو السابق في فرقة البيتلز، بعينين خاويتين مفتوحتين مثل نافذة على سماءٍ مليئة بالغيوم. كان لينون بنظارتيه الصغيرتين المستديرتين يشبه شبحاً عائماً في السماء.

حقّاً لم يعد يتذكّر هذه الأسطوانة. كان يعرف الأغنية بالطبع - نشيد السلام العالمي - ولكنّ الأوهام السلمية للمغني كانت تنتمي أكثر للجيل الذي سبق جيله. قلب ناتان علبة الأسطوانة. كان الألبوم قد صدر في أيلول 1971. واستطاع أن يقرأ كلمة إهداء مكتوبة بقلم حبر:

إلى ناتان

لقد كنت شجاعاً جدّاً، يا بطل.

لا تخشَ شيئاً واعتنِ جيّداً بنفسك.

«بطل»؟ لم يتذكّر أنّ أحداً قد ناداه من قبل بلقب البطل.

كان الإهداء مذيّلاً بتوقيعٍ غير مقروء.

أخرج الأسطوانة من علبتها ووضعها على الجهاز.

غريزياً، وضع الإبرة على بداية الجزء الثالث من الشريط المسجّل. كان العنوان يُدعى *Jealous Guy*.

دوّت أولى أنغام البيانو، وطفح كلّ شيء، دفعة واحدة، على السطح.

كان ذلك في عام 1972.

في فصل الخريف.

في غرفة مستوصف نانتوكيت آيسلاند.

15

في الواقع نحن لا نعرف شيئاً، لأنّ
الحقيقة تكمن في عمق الهاوية.

ديموقريط

قفز إلى سيارة الجاكوار وسلك طريق ميستيك.

سار بسرعة شديدة بحيث كاد يتعرّض لحادث عند المخرج نحو نيو هافن. لم يكن بوسعه التركيز على وجهته. لا بدّ من القول إنّ نسبة الكحول الذي في دمه كانت عالية جداً. توالت صورٌ في رأسه.

1972.

كان في الثامنة من عمره.

في تلك الفترة، سجّل التاريخ بداية قضية ووترغيت، والرحلة الإعلامية لنيكسون في الصين، والانتصار الأوّل لأميركي على روسيّ في بطولة العالم للشطرنج...

في كرة البيسبول، فاز أبطال أوكلاند على ريدز سنسيناتي في نهائي البطولة، في حين غلب كاوبويز دالاس السوبربول.

في ذلك الصيف، لحق ناتان بأمّه التي كانت تعمل في نانتوكيت في منزل آل ويكسلر. وكانت تلك أول سفرة حقيقية له. المرّة الأولى التي شاهد فيها شيئاً آخر غير حيّه في كوينز.

وصل إلى أمام منزل غودريش في نهاية فترة ما بعد الظهيرة.

ظلّ الطقس رديئاً. اكتسحت ريح جليدية الشاطئ حيث كادت السماء المضطربة تتمازج مع بحرٍ هائجٍ، نصف محجوبٍ بالكثبان الرملية.

رنّ الجرس لعدّة مرّات ولكن أحداً لم يفتح الباب. أمرٌ غريب. كان اليوم يوم أحدٍ، وحسب ما فهم، كان غودريش يأتي إلى هذا المكان في كلّ عطلة نهاية أسبوع.

إذا كان غودريش غائباً، فعليه أن يستغلّ ذلك. حتى الآن، كان الطبيب هو مَن يمسك بالخيوط وكان واضحاً أنّ هذا الشخص يخفي عنه الكثير من الأمور. كان على ناتان أن يعرف المزيد من خلاله هو إن أراد أن يتمكّن من إفحامه.

نظر إلى من حوله. كان أقرب الجيران موجوداً على بعد أكثر من مئة متر. كان عليه أن يدخل بأيّ ثمنٍ إلى البيت، ولو عن طريق الكسر والخلع. ربّما الأسهل سيكون تسلّق سطح المرآب الملاصق للبيت ومحاولة الوصول، من هناك، إلى إحدى الشرفتين.

لا بدّ أن الأمر ليس معقّداً جدّاً.

حاول أن يقفز ليتشبّث بالحافة ولكن السطح كان عالياً جدّاً. كان يستعدّ للقيام بجولة حول المبنى بحثاً عن شيءٍ قد يفيده كنقطة ارتكاز حينما وصل كلب حراسة ذو فروة سوداء داكنة من خلفه.

كان أضخم كلب شاهده في حياته.

توقّف الحيوان على بعد مترين منه وحدّق فيه وهو يهرّ خفيةً.

لم يكن ينقصني إلاّ هذا!!

كان الكلب المولوسي بحجمه تقريباً. لو أنّه صادفه في ظروف أقلّ خطورة، لربّما وجده ناتان رائعاً بجسمه القويّ والأصيل. ولكن

كلّ ما كان يراه آنذاك هو حارسٌ شرسٌ مليءٌ بالعدوانية له ذيل يرتعش، ورأس وأذنان منتصبتان. وقد غطّى شعره، المملوط واللامع، جلداً مشدوداً على ثمانين كيلوغراماً من العضلات الجاهزة للانفجار.

شعر ناتان بأنّ قطرة عرقٍ باردة تسري في فقرات ظهره. لم يكن قط يألف مع الكلاب. شرع في حركة ولكنّ الحيوان عاود نخيره مكشّراً عن أنيابه.

تراجع المحامي خطوة إلى الوراء. في تلك اللحظة، حاول الكلب، المهتاج في اندفاعٍ شديد، أن يقفز على وجهه. نجح ناتان في تفاديه في اللحظة الأخيرة وردّه بركلةٍ من قدمه. مدفوعاً بطاقة اليأس، قام بقفزة عمودية أتاحت له التعلّق بحافة سقف المرآب. كان يعتقد أنّه قد نجا من الورطة حينما شعر بأنياب الحيوان تُغرز في أسفل ربلة ساقه.

المهمّ ألا تتراخى، إن سقطتَ الآن، فسيلتهمك.

هزّ ساقه بعنف ليفلت من الكلب ولكن دون جدوى. ضغط الفكّ القويّ للحيوان على عرقوبه بشدّة.

هذا الوحش سيقتلع قدمي!

قاوم بكلّ قواه وأفلته الكلب أخيراً. فنجح كيفما كان في اعتلاء السقف بقوّة ذراعيه.

إلى الجحيم!

جلس للحظة ليلتقط أنفاسه وقطّب وجهه ألماً. كان أسفل بنطاله ممزّقاً. رفعه وتأكّد أن جرحه عميق وينزف بغزارة. لا يهمّ. سيهتمّ به في ما بعد. الآن، سيكتفي بضمادة من منديله. في كلّ الأحوال، ليس بوسعه أن يعود على أعقابه: منتصباً على فخذيه المعضلين، كان

الكلب يرمقه وهو يلعق اللعاب المشوب بالدم السائل من أنيابه.

آسفٌ، يا عجوزي، لحمي لا يؤكَل. أتمنى فقط ألا تكون قد نقلت إليّ داء الكلَب عَرَضاً.

رغم جرحه، استطاع المحامي أن يبلغ من دون الكثير من الحركات البهلوانية إحدى الشرفات الصغيرة. وكما تمنّى، لم يكن غودريش قد أقفل النافذة. رفع ناتان المصراع واندسّ إلى داخل البيت.

أهلاً وسهلاً بك في عالم مخالفة القانون، لو أُمسكَ بك اليوم، قد تقول وداعاً لشهادتك في المحاماة.

تخيّل عنوان مقالة صغيرة في جريدة ناشيونال لاوير: «الحكم على محامٍ شهير من مكتب ماربل أند مارش بخمس سنوات سجن لتلبّسه بجريمة السطو على منزل.»

في الطابق العلوي، كان غودريش قد ترك معظم الستائر الخارجية مفتوحة تماماً ولكن بسبب رداءة الطقس، كان البيت غارقاً في شبه ظلام.

كان الكلب الذي لا يزال ينبح في الطريق.

هذا الغبيّ سوف يلمّ عليّ كلّ الحيّ.

عليه أن يكون حذراً ويعمل بسرعة.

كان ممرٌّ، مشرفٌ على البهو، يفضي أوّلاً إلى غرفتين ثمّ إلى مكتبٍ دخل إليه.

حجرة كبيرة ذات أرضية خشبية من اللون الجوزيّ الفاتح، مليئة برفوفٍ معدنية تحتوي على كمية مدهشة من الملفّات والأسطوانات السمعية والمرئية ومن الأقراص المرنة والمدمجة.

تصفّح ناتان سريعاً بعض تلك الوثائق. أدرك أنّ غودريش كان يحتفظ بملفّ طبي لكلّ المرضى الذين عالجهم.

هل هذا إجراء طبيعي؟

كانت الملفات مرتّبة زمنياً، حسب المؤسسات الصحية التي تردّد الطبيب عليها في مهنته، وتذكر حالات تمتدّ منذ 1968 وحتى اليوم.

سار ناتان بنفاد صبر مع الزمن: مستشفى الطبّ العام في بوسطن، المستشفى المشيخي في نيويورك، المركز الطبي للأطفال في واشنطن...

أخيراً، وصل إلى عام 1972.

في تلك السنة، أنهى الدكتور غودريش اختصاصه في الجراحة في مستشفى في العاصمة الاتحادية. وكان في السابعة والعشرين من عمره آنذاك.

وسط كومة الوثائق المؤرّخة في عام 1972، استخرج المحامي كراساً صغيراً بغلافٍ أسمر اللون.

سجلّ يومي

مستوصف نانتوكيت

12 أيلول- 25 أيلول 1972

تأكّدت الشكوك التي راودت ناتان حينما قرأ الإهداء المكتوب على أسطوانة جون لينون. كان غودريش موجوداً في نانتوكيت عام 1972. وقد ناوب لمدة أسبوعين في المستوصف. تماماً في الفترة التي تعرّض فيها ناتان لحادثته! وبالتالي لا غرابة في أن يكون وجهه مألوفاً بالنسبة إليه.

تصفّح بعصبية السجل ووقع على ما كان يبحث عنه.

19 أيلول 1972

اليوم، حالة اضطرابٍ في المستوصف.

في نهاية فترة ما بعد الظهيرة، نقل إلينا طفلٌ صغير في الثامنة من عمره، في حالة موتٍ سريريّ.

حسب المتنزّهين الذين انتشلوه من البحيرة، كان الولد في حالة توقّف عن التنفس منذ عدّة دقائق. وقد استُنجِدَ بهم بصرخات فتاة صغيرة.

أجرينا له الصدمات الكهربائية ولكن من دون جدوى. واصلتُ تمسيد قفصه الصدري بكلّ قواي بينما كانت ممرّضة تنفخ في فمه.

وبخلاف كلّ التوقّعات، نجحنا في إنعاشه. إنّه حيّ ولكنه لا يزال في غيبوبة. هل خيراً فعلنا بإصرارنا؟ لستُ متأكّداً من ذلك، لأنّه حتى وإن استعاد الطفل وعيه، فإنّ دماغه افتقد الأوكسجين لفترة طويلة. لا بدّ أنّ العديد من الخلايا قد أتلِفَت ولا بدّ لسوء الحظ أن نتوّقع آفات ناجمة عن ذلك.

آمل ببساطة ألاّ تكون متعذّرة على العلاج...

كان ناتان مضطرباً. توافدت الذكريات، المكبوتة بعض الشيء إلى ذلك الحين، بلا انتظام. تابع القراءة مرتعش اليدين ونابض القلب بقوّة.

20 أيلول 1972

استعاد الصبيّ وعيه في وقتٍ مبكرٍ من صباح اليوم وقد أُخبرتُ بذلك في الحال.

فحصته بدقّة واعترف بأنني ذُهلت. بالتأكيد هو ضعيف جدّاً

ولكنّه يحرّك كل أعضاء جسمه ويفهم كلّ أسئلتنا. يُدعى ناتان ديل آميكو.

إنّه طفلٌ خجول وكتوم ولكنّه يبدو ذكياً واستطعتُ أن أتبادل معه بعض الكلمات.

ولتسليته، وضعتُ جهاز التسجيل خاصتي في غرفته وأدرجتُ فيه أسطوانة لينون. وبدا أنّه قد أعجِبَ به...

في نهاية فترة الصباح، جاءت أمّه لزيارته. امرأة إيطالية تعمل مدبّرة منزل عند جيفري ويكسلر، رجل الأعمال في بوسطن الذي يملك منزلاً ثانوياً في الجزيرة. كانت قلقة جدّاً وأردتُ أن أطمئنها قائلاً لها إنّ ابنها صلب وشجاع، ولكنّها كانت تتكلّم لغتنا بشكلٍ رديء ولم تفهم بلا شكّ نصف ما شرحته لها.

مرّت صديقته الصغيرة بعد الظهيرة. ابنة آل ويكسلر. كانت قلقة جدّاً بحيث سمحتُ لها بأن ترى الصبي للحظة. بدت أنّها ناضجة جدّاً مقارنة بسنّها وأنّها تكنّ له محبّة كبيرة. كما كانت مدينة له بمعروفٍ كبير لأنّه هو من أنقذها من الغرق.

21 أيلول 1972

ربّما كنتُ مفرطاً في التفاؤل البارحة.

سألت ناتان مطوّلاً هذا الصباح. كان حديثه غير منسجم. تساءلت إن كان الحادث لن يترك في النهاية عواقب.

من جهة أخرى، إنّه طفل جذّاب يمتلك معجماً واسعاً من المفردات ويعبّر عن نفسه بشكلٍ ممتاز مقارنة بسنّه.

سجّلت الحديث على أسطوانة ممغنطة.

لا أعرف تماماً ما رأيي به.

كان لا بدّ أن يضع ناتان يده على ذلك التسجيل. توجّه نحو رفّ آخر مليء بصناديق خشبية ممتلئة بأسطوانات. بدأ ينبش بينها بسرعة كبيرة بحيث قلب نصفها.

وجد أخيراً أسطوانة كُتِبَ عليها: «21-09-72».

على طاولة العمل، وجد مسجّلة بالقرب من الحاسوب. وضع الأسطوانة في المسجّلة وبعد بضع ثوانٍ، سمع بتأثرٍ شديد أصوات منبعثة من الماضي.

غودريش هو من تكلّم أوّلاً، بنبرةٍ أرادها أن تكون مرحة:

- مرحباً، يا بطل.

- صباح الخير، يا سيّد.

كان قد نسي تماماً نبرة صوته، فقد كان صوته، وهو طفل، يكاد لا يُسمَع. رفع درجة الصوت:

- هل نمتَ جيّداً؟

- نعم، يا سيّد.

في خلفية التسجيل، كان يُسمع ضجيج عربة ذات عجلات. لا بدّ أنّ غودريش كان يفحصه بالمسماع فقد طرح عليه بعض الأسئلة التقليدية قبل أن يسأله:

- هل تتذكّر ما حدث لك؟

- تقصد بخصوص الحادثة؟

- نعم، اروِ لي.

ساد صمتٌ أرغم غودريش على أن يكرّر سؤاله:

- اروِ لي، هل يمكنك ذلك؟

بعد توقّفٍ جديد، سمع ناتان وهو يجيب:

- عرفتُ أنني كنتُ ميّتاً.

- ماذا؟
- عرفتُ أنني كنتُ ميّتاً.
- لماذا تفكّر في شيءٍ كهذا؟
- لأنّك قلت ذلك.
- لا أفهمك.
- حينما وصلت على النقّالة، قلتَ إنني ميّت.
- أوه... حقّاً لم أقل هذا وعلى كلٍّ، لم تستطع أن تسمعني.
- بلى، كنتُ خارج جسدي ونظرتُ إليك.
- ماذا تقول؟
- لقد صرخت عالياً بكلماتٍ لم أفهمها.
- أنت ترى حقّاً أنّ...

ولكن ناتان قاطعه:

- دفعت الممرّضة عربة تحمل آلتين حَكَكَتْهما ببعضهما قبل أن تعلّقهما على قفص صدري. ثمّ صرخت «هيّا!» وانتفض كلّ جسمي.

باستماعه إلى ذلك الصوت الناعم الذي كان صوته، توتّر ناتان تماماً. أراد لو أنّه أوقف التسجيل لأنّه شعر بأنّ التتمّة لن تجلب له سوى الألم، ولكنّ الفضول كان أقوى رغم كلّ شيء.

- كيف عرفت كلّ هذا؟ من روى لك ذلك؟
- لا أحد. كنتُ أحلّق عند السقف ورأيتُ كلّ شيء. كان بوسعي أن أحلّق في المستشفى برمّته.
- أظنّ أنك تهذي.

لم يجب ناتان بشيء وساد صمتٌ جديد، قبل أن يستأنف غودريش الكلام بلهجة شكّاكة:

- ثمّ ماذا رأيت؟

- لم أعد أرغب في الحديث معك.

- اسمع، أنا آسف، لم أقصد أنّك كنت تهذي ولكنّ ما تقوله هو مدهش جدّاً بحيث يصعب عليّ تصديقه. هيّا، أخبرني ماذا رأيت بعد ذلك، يا بطل.

- سحبني ما يشبه النفق، بسرعة فائقة.

ساد صمتٌ للحظة، ثمّ حثّه غاريت على المتابعة.

- أنا أصغي إليك.

- بينما كنتُ في النفق، تراءت لي حياتي قبل الحادثة ولمحتُ أناساً. أعتقد أنّهم كانوا موتى.

- أناسٌ موتى؟ ماذا كانوا يفعلون هناك؟

- كانوا يساعدونني على اجتياز النفق.

- وماذا كان يوجد في نهاية النفق؟

- لن أتمكّن من التعبير عن ذلك.

- حاول، من فضلك.

فتابع الطفل، بصوتٍ متزايد الرقّة.

- نوعٌ من ضوءٍ أبيض، هادئ وقويّ في آنٍ واحد.

- حدّثني أكثر.

- كنتُ أعلم بأنني سأموت. أردتُ أن أغرق في النور ولكن ما يشبه باباً منعني من بلوغه.

- ماذا كان يوجد أمام ذلك الباب؟

- لن أتمكّن من التعبير عن ذلك.

- حاول، يا بطل، أرجوك.

أصبحت نبرة غودريش توسّلية، وبعد توقّف آخر، استطرد ناتان:

- كانت هناك «كائنات».

- «كائنات»؟

- أحدهم فتح الباب ليدعني أدخل إلى النور.

- هل خفتَ؟

- كلا، على العكس. كنتُ بخير.

لم يعد غودريش يفهم منطق الطفل.

- ولكنك قلت لي إنّك كنت تعرف أنك ستموت.

- نعم، ولكن ذلك لم يكن مقلقاً. وثمّ...

- تابع، يا ناتان.

- شعرتُ بأنّه تُرِك لي الخيار...

- ماذا تعني؟

- كان يُتاح لي ألاّ أموت إن لم أكن مستعداً.

- وهذا ما اخترته؟

- كلا. أردتُ أن أموت. كنتُ مرتاحاً جدّاً وسط ذلك النور.

- كيف يمكنك قول هذا؟

- ربّما أردتُ أن أذوب وسط ذلك النور.

- لماذا؟

- هو هكذا.

- ماذا؟

- الموت.

- ولماذا لم تمت؟

- لأنّه في اللحظة الأخيرة، أُرسلت إليّ رؤية وقرّرتُ العودة.

- وماذا كانت، تلك الرؤية؟

مغشيّ العينين، سمع ناتان نفسه يجيب بصوتٍ يكاد يكون غير مسموعٍ.

- آسف.

- ماذا؟

- هذا لا يعنيك.

- ماذا كانت، يا ناتان؟

- هذا لا يعنيك، آسف.

- لا مشكلة، يا بطل، لا مشكلة. لكلٍّ الحقّ في أن تكون له أسراره.

توقّف التسجيل. وأخذ ناتان يبكي. بكى بكاءً حارّاً ومن دون أيّ تحفّظ، مثل الأطفال الذين وحدهم يجرؤون على فعل ذلك، ثمّ تمالك نفسه وضغط على زرّ التقديم السريع ولكن لم يكن هناك أيّ شيءٍ آخر.

فعاد واستغرق في السجلّ.

23 أيلول 1972

منذ يومين، وأنا لا اكفّ عن التفكير في كلمات ناتان وما زلتُ لا أفهم كيف استطاع أن يعطيني التفاصيل الدقيقة إلى هذه الدرجة حول العناية الطبية التي قدّمناها له.

كان وكأنّه قد عاد من الآخرة.

لم أسمع قط شيئاً مماثلاً من فم مريض، فما بالك من فم طفل. هذا حقّاً أمرٌ مشوّش وددت لو أناقشه مع بعض الزملاء ولكنني خفت أن يكون الأمر محظوراً في الوسط الطبي.

بالتأكيد، كانت هناك تلك السويسرية الصغيرة، الآنسة كوبلر-روس، من مستشفى بيلينغز في شيكاغو. أتذكّر أنني قرأت في مجلّة *Life* بأنّها أقامت حلقة حوار مع محتضرين. أعتقد أنّ المقالة أثارت ضجّة وأنّها فُصِلَت من عملها بسبب ذلك. ومع ذلك، يُروى أنّها بدأت بجمع العشرات من شهادات أشخاص عاشوا تجارب مماثلة.

تساءلتُ إن كان عليّ الاتصال بها.

25 أيلول 1972

خرج الولد من المستشفى اليوم. فبعد أن اعتبرت حالته العامّة مُرضية، لم يعد بوسعي أن أبقيه أكثر. البارحة مساءً، حاولت الحصول على حديثٍ جديدٍ معه ولكنّه انغلق على نفسه مثل محارٍ واعتقد أنني لن أنتزع منه أيّ شيءٍ إضافي. حينما جاءت أمّه هذا الصباح لتأخذه، سألتها إن كان من عادتها أن تحدّث ابنها عن الملائكة أو عن الفردوس. أكّدت لي أنّها لا تفعل ولم ألحّ عليها أكثر.

حينما غادر، قدّمتُ لناتان المسجّلة وأسطوانة لينون.

حلّ الليل الآن على القاعة.

كان الجوّ بارداً، ولكن ناتان لم يشعر بذلك. كان غارقاً في ماضيه، في تلك الطفولة التي اعتقد أنّه قد نسيها والتي انبعثت فجأة؛ وكذلك لم يسمع السيارة التي توقّفت لتوّها أمام البيت.

أشعل أحدٌ ما النور في المكتب.

قفز ناتان واستدار نحو الباب.

16

كلّ الايام تسير نحو الموت، اليوم الأخير يصل.

مونتين

- أرى آنّك قد تعرّفت على كوجو[1].

كان غاريت غودريش واقفاً بعتبة الباب ويعاين باهتمامٍ طبّي ساق ناتان المجروحة.

- ماذا تفعل هنا، يا غاريت؟ سأل المحامي وهو يغلق السجلّ مثل ولدٍ ضُبِطَ مذنباً.

ردّ غودريش، وعلى شفتيه ابتسامة خادعة، بلهجة ساخرة:

- ألا تعتقد بأنّه أنا من يجب أن يسألك هذا السؤال؟

انفجر ناتان فجأة، يرتعش غضباً:

- لماذا لم تخبرني؟ لماذا أخفيت عنّي آنّك قد عالجتني قبل ثلاثين عاماً؟

هزّ الطبيب كتفيه.

- لم أعتقد أنّك قد تنسى مَنْ أنقذ حياتك. الحق يقال، لقد أغاظني ذلك كثيراً...

---

(1) عنوان رواية لستيفن كينغ تتحدّث عن المسيرة القاتلة لكلب مسعورٍ ضخم من فصيلة سنبرنار.

- اذهب و . . .

- ياه! بانتظار ذلك، سأعقّم بالأحرى جرحك.

- لست بحاجة إليك، قال ناتان وهو يتّجه نحو السلالم.

- أنت مخطئ: إنّ عضّة كلب تجلب دائماً ميكروبات.

حينما وصل إلى أسفل الدرجات، استدار المحامي.

- مهما يكن، لن أعاني من ذلك طويلاً، فأنا . . .

- هذا ليس سبباً لاستعجال الأمور، صرخ فيه غودريش.

كانت نارٌ قويّة تفرقع في المدفأة.

في الخارج، سُمع هدير الرياح التي هزّت زجاج النوافذ. وتركّزت زوبعة ثلجية أمام البيت. كانت حقّاً ليلة عاصفة، ليلة بهيّة ومفزعة في آنٍ واحد.

جالساً في أريكة، وضع ناتان قدميه على منضدة خفيضة وبين يديه مشروب ساخن يتصاعد منه الدخان. كان قد هدأ بشكلٍ ملحوظ وبات أقلّ عدائية. وضع غودريش نظارته نصف الدائرية لكي ينظّف الجرح بالماء والصابون.

- آخخخخخ! آههههه!

- أوه . . . آسف.

- أَهو القدر ما أرسل كلبك السيئ لاستعجالي نحو الموت؟ قال ناتان ساخراً.

- لا تقلق، أجاب الطبيب وهو يغسل كمادته، قلّما يموت المرء بعضّة كلب.

- وماذا عن داء الكلب والكزاز؟

- سأزوّدك بكراس اللقاحات الخاصّة بذلك، ولكنك ستكون بخير، طبعاً، تحسّباً للكزاز.

ثمّ عقّم الجرح بمطهّر.

- آخ! آه!

- أنت حسّاس جدّاً! حسناً، هذا صحيح: أقرّ بأنّ الجرح عميق جدّاً. لقد أُصيبت أوتارك. أعتقد أنّه سيكون عليك مراجعة المستشفى غداً.

أخذ ناتان جرعة من المشروب الساخن وترك نظرته تزوغ في الفراغ قبل أن يسأل:

- اشرح لي، يا غاريت. كيف استطعتُ النجاة من ذلك الغرق؟

- الظاهرة، في حدّ ذاتها، ليست فريدة من نوعها: غالباً ما جرى إنعاش أطفال سقطوا في بحيرات أو أنهار.

- كيف يُمكن هذا؟

تنهّد غودريش بعمق، وكأنّه يبحث عن جوابٍ بسيط لسؤالٍ صعب.

- في معظم الحالات، يموت الغرقى من جراء الاختناق: يُصابون بالهلع ويحاولون منع رئتيهم من الامتلاء بالمياه. فينضب الأوكسجين فيهما ويموتون اختناقاً.

- وماذا حصل خلال غرقي؟

- لا شكّ أنّك تركت الماء يدخل إلى رئتيك، الأمر الذي أحدث عندك حالة من فتور الحرارة[1]. فتباطأ قلبك إلى درجة كاد يتوقّف عن النبض تماماً.

---

(1) نزول حرارة الجسم إلى ما دون الحرارة الطبيعية. (المترجم)

- وكلّ تلك الرؤى، كانت *Near Death Experience*[1]، أليس كذلك؟

- تماماً، ولكن في بداية السبعينات، لم يكن أحد يتحدّث عن NDE. اليوم، هذه الظاهرة معروفة جيّداً: وقد عاش آلاف الأشخاص عبر العالم تجارب مماثلة لتجربتك. وقد جُمِعت كلّ حكاياتهم ودُرِسَت من قبل المجمع العلمي.

- وهل وجدت تشابهات مع حكايتي أنا؟

- نعم، ذكر الكثير من الأشخاص النفق نفسه والنور القويّ نفسه وذلك الاحساس بالانغمار في حبٍّ لامتناهٍ.

- ولكن لماذا لم أمت؟

- لم تحن ساعتك، هذا كلّ ما في الأمر.

- آخخخخ! أههههه! هذا غير صحيح، أتتعمّد ذلك أم ماذا؟

- اعذرني، انزلقت يدي.

- هذا هو... اعتبرني أبله.

جدّد الطبيب اعتذاره واستعمل ضمادة سميكة مع مرهمٍ مضادٍ للالتهاب. ولكن فضول ناتان لم يُشبَع وتابع طرح أسئلته:

- ألا يمكن تفسير هذه الـ NDE كدليلٍ على الحياة بعد الموت؟

- لا بالتأكيد، أجاب الطبيب بلهجة قاطعة. إذا كنت لا تزال موجوداً، فهذا لأنّك لم تمت.

- ولكن أين كنتُ آنذاك؟

- في مكانٍ ما بين الحياة والموت. ولكنّه لم يكن العالم الآخر

---

(1) تجربة الموت الداهم.

بعد. يمكننا ببساطة القول إنّه من الممكن أن تستمر حالة من الشعور خارج العمل الطبيعي للدماغ.

- ولكن أليس هناك أيّ شيء يبرهن أنّ هذه الحالة مستمرة؟

- هذا هو الحال، أقرّ الطبيب.

ومثلما فعل في الماضي، حاول أن ينتزع الأسرار من المحامي.

- قل لي، ماذا كانت تلك الرؤية، ياناتان؟

تكدّر وجه هذا الأخير.

- أنا بنفسي لم أعد أتذكّر.

- هيا، لا تتصرف كولد. أنا بحاجة إلى أن أعرف، ألا تفهم؟

ولكنّ ناتان كان عازماً من جديد على السكوت.

- قلتُ لك إنني لا أتذكّر!

أدرك ناتان أنّه لن يحصل على شيءٍ منه. في النهاية، كان إحجامه عن الكلام مفهوماً. لقد قارب الموت كثيراً بعد غرقه، وعاش تجربة شديد الغرابة بحيث يكاد يكون من الطبيعي أن يحرص على الاحتفاظ لنفسه بجزءٍ من ذلك اللغز، من تلك النجاة الأعجوبة.

وكأنّه لكسر الصمت الذي بدأ يسود بينهما، أمسك غودريش بمعدته وقال بلهجة شبه مرحة:

- حسنٌ، وما رأيك بوجبة طعام خفيفة؟

أكمل الرجلان وجبتهما، جالسين إلى المائدة في المطبخ. سكب غودريش لنفسه الكثير من الطعام لمرّات عديدة، في حين أنّ ناتان لم يلمس الطعام تقريباً.

قبل ذلك بعشرين دقيقة، أغرق انقطاعٌ للتيار الكهربائي القاعة في

ظلامٍ دامس. وقد ذهب غودريش ليتدبّر بطريقة ما أمر العدّاد الكهربائي ولكنّه عاد وهو يعتذر لنفاد المواد القابلة للانصهار. فأشعل مصباحين قديمين نشرا في القاعة ضوءاً مترجرجاً.

أدار المحامي رأسه نحو النافذة. كان لا يزال الطقس عاصفاً، وكانت هناك تغيّرات كثيرة وعنيفة في اتجاه الريح التي بدت وكأنّها تهبّ من كلّ الجهات في آنٍ واحد. كان كلّ شيء كثيفاً وسميكاً جدّاً بحيث لم يكن يُرى أيّ شيء تقريباً عبر زجاج النوافذ. ولم يكن من الوارد مجرّد التفكير في الخروج في تلك اللحظة.

هزّ ناتان رأسه وغمم وكأنّه يتحدث مع نفسه:

- المبشّرون...

تردّد غودريش في الكلام. كان مدركاً تماماً للصدمة العاطفية التي تعرّض لها المحامي.

- ألم تعد متشكّكاً؟ سأل بحذر.

- أنا مذهول. ماذا تظنّ؟ سأقفز إلى السقف لأنني الشخص المقبل على اللائحة؟ لم يرد غودريش بشيء. ماذا يمكنه أن يجيب.

- أنا صغير السّنّ جدّاً على الموت! أكّد ناتان مع إدراكه لضعف هذه الحجّة.

- لا أحد صغير السّنّ جدّاً على الموت، ردّ غاريت بقسوة. يموت المرء في اللحظة المقدّرة، هذا كلّ ما في الأمر.

- لستُ مهيّأً، يا غاريت.

تنهّد الطبيب.

- نادراً ما يكون المرء مهيّأً، أنت تعلم.

- يجب أن يُترَك لي المزيد من الوقت، صرخ ناتان وهو ينهض عن المائدة.

حاول الطبيب أن يهدّئ من روعه.

- إلى أين أنت ذاهب؟

- لقد تجمّدتُ هنا، سأعود لأتدفّأ في الصالون.

لفّ نفسه بغطاءٍ كان ممدوداً على الأريكة واتجه وهو يعرج، ليجلس بالقرب من المدفأة. لحق به الطبيب بعد دقيقتين.

- أنت بحاجة إلى القليل من مشروبٍ منشّط، قال وهو يمدّ له كأساً من النبيذ الأبيض.

ابتلعه ناتان بجرعة واحدة. كان للنبيذ طعم العسل واللوز المحمّص.

- آمل ألا تسعى إلى تسميمي.

- أنت تمزح، هذه خمرة مؤرّخة!

كان لا يزال يمسك بالقارورة في يده. سكب لنفسه كأساً ثمّ جلس بجانب المحامي. ألسنة اللهب العالية للمدفأة أضاءت الصالون بلونٍ قرمزيّ. وتراقص الخيالان المشوّهان للرجلين بغرابة على الجدران.

- أليس هناك من تفاوض ممكن؟ سأل ناتان ببصيص أمل.

- لا تفكّر مجرّد تفكير في ذلك.

- حتى لمن يحسّنون سلوكهم.

- لا تكن مضحكاً، لنرَ.

أشعل المحامي سيجارة وسحب منها نفثة طويلة.

- إذاً حدّثني، يا غاريت، أخبرني بكلّ ما تعرفه عن المبشّرين. يبدو لي أنّ من حقّي أن أعرف.

- لقد سبق أن شرحت لك الأمر الأساسيّ. يمكنني أن أستشعر مسبقاً مَنْ سيموت ولكن ليست لدي قدرات أخرى: لا العلم بكلّ شيء ولا قوّة خاصّة.

- لست الوحيد على هذه الحال، أليس كذلك؟
- تماماً، علّمتني التجربة أنّ هناك مبشّرين آخرين.
- نوعٌ من الأخوية؟
- إن أردت ذلك. العالم مأهولٌ بالمبشّرين، ولكن القليل من الناس يعلمون بوجودهم.
- أنا أيضاً يصعب عليّ تصديق ذلك.
- أنا أفهمك.
- وكيف تتعرّفون بعضكم على بعض؟ أقصد، فيما بينكم...
- ليست هناك علامات ظاهرة. غالباً يكفي أمرٌ بسيط. تبادلٌ للحديث، نظرة و... أنت تفهم.
- ألستم خالدين؟
اتّخذ وجه غودريش هيئة فزعٍ زائفة.
- طبعاً لا، المبشرون يحيَون ويموتون ككلّ الناس. لا تنظر إليّ هكذا. لستُ نصف إله. لستُ إلا إنساناً، مثلك تماماً.
انساق ناتان لفضوله.
- ولكن ليست لكم دائماً هذه القدرة، أليس كذلك؟ لم تكن تمتلكها حينما عالجتني عام 1972.
- كلا، ولكن حقيقة مصادفتي لطريقك أثارت اهتمامي بـ NDE وبالعناية المسكّنة.
- وكيف بدأ كلّ هذا؟ هل يستيقظ المرء ذات صباح ليقول في نفسه: «تمام، أنا مبشّر»؟
ظلّ غودريش يراوغ ويتهرّب:
- حينما يحدث ذلك، سوف تعرف.
- مَنْ كان على علمٍ؟ كنتَ متزوّجاً، يا غاريت.

- ينبغي ألا يعرف أحدٌ أبداً. أبداً. هل تودّ أن تعيش مع شخصٍ يملك هذه القدرة؟

- هل هذا أمرٌ يختاره المرء؟

- إنّها أمورٌ صعبة على الرفض. أمّا القول إنّ المرء يختارها...

- ولكن كيف يُجنّد المبشّرون؟ أهو عقابٌ أم ثواب؟

اكفهرّ وجه غودريش وتردّد طويلاً.

- لا يمكنني أن أجيبك، يا ناتان.

- هل يمكنني أن أعرف لماذا يحقّ لبعض الأشخاص أن يكونوا مبشّرين؟

- الحقّ يقال، أنا بنفسي أجهل ذلك. نحن نوعٌ من العاملين الاجتماعيين، أنت تعلم. نحن لا نختار مَنْ نكون على صلة بهم.

- و... هل يوجد... شيءٌ ما بعد الموت؟

نهض غودريش ليضع حطبةً في المدفأة. نظر إلى ناتان بتمعّن ووجد فيه شيئاً مؤثّراً. لبضع ثوانٍ، فكّر من جديد في ذلك الطفل الصغير الذي عالجه قبل ثلاثين عاماً. من جديد، أراد أن يهبّ لنجدته.

- ساعدني، يا غاريت.

- لا أعرف أكثر منك عن الحياة بعد الموت. كلّ هذا يقع في حقل الإيمان.

- لماذا لستَ أكثر وضوحاً؟ قل لي على الأقلّ إن كنتُ على حق. الوقت يضغط، أليس كذلك؟

- نعم، وافقه غودريش، الوقت يضغط.

- إذاً، بماذا تنصحني؟

باعد غودريش بين ذراعيه علامةً على العجز.

- كلّ شيء يحمل على الاعتقاد بأنّك لا تزال تحبّ زوجتك. حاول أن تجعلها تعرف ذلك.

لكنّ ناتان هزّ رأسه ليظهر استهجانه.

- أعتقد أنّ هذه ليست اللحظة المناسبة. أعتقد أننا لسنا مهيّأَيْن بعد.

- لستما مهيّأين؟ ولكن أسرع، تبّاً! كما قلت بنفسك، الوقت يمرّ.

- أعتقد أنّ الأمر قد انتهى، يا غاريت. لقد التقت رجلاً آخر منذ بعض الوقت.

- لا أعتقد أنّ هذه عقبة لا يمكن تجاوزها بالنسبة لرجلٍ مثلك.

- لستُ رجلاً خارقاً.

- هذا صحيح، وافقه الطبيب بابتسامة رقيقة.

ثمّ، مقطّباً حاجبيه وكأنّه يجهد لأن يتذكّر، أضاف:

- لقد تذكّرت... أمراً.

- أنا أُصغي إليك، قال ناتان بهيئة متلهّفة.

- هذا يعود إلى فترة حادثتك. كان ذلك في اليوم الثاني أو الثالث. كانت مالوري قد جاءت لزيارتك بعد الظهيرة. كنتَ تغطّ في نوم عميق ومنعتها من إيقاظك. ومع ذلك ظلّت لساعة كاملة تنظر إليكَ وأنت نائم. وعند المغادرة، قبّلتك.

- كيف تتذكّر ذلك؟

رأى عينيه تبرقان تحت نور المصباح.

- لأنّ ذلك كان مبهراً جدّاً. كانت تأتي كلّ يوم لتراك، أضاف بلهجة متأثّرة.

بدا ناتان، الذي استسلم للهدوء بفعل حكاية غاريت، وكأنّه يعود إلى واقعٍ أكثر حزناً.

- لا تُبنى حياةٌ على بعض ذكريات الطفولة، أنت تعرف ذلك جيّداً. كانت علاقاتي مع مالوري دائماً معقّدة.

نهض غودريش.

- هذا حال الكثير من الأزواج، قال وهو يرتدي معطفه.

- هيه! أين تذهب هكذا؟

- سأعود إلى نيويورك.

- في عزّ الليل؟ في هذا الطقس الرديء؟

- الوقت ليس متأخّراً جدّاً ومع حركة السير قد تكون الطرقات لا تزال سالكة، ولا شكّ أنّ الحال ستختلف غداً صباحاً. كما أنصحك أن تفعل الأمر ذاته إن لم ترغب في البقاء محصوراً هنا طوال الأسبوع.

في طرفة عين، أصبح على عتبة الباب.

- لا تنسَ أن تترك المفتاح في صندوق البريد.

استدار نحو المحامي وأضاف:

- لقد أعدتُ كوجو إلى المرآب، فتجنّب التجوّل فيه.

وإذ بقي وحيداً، استغرق ناتان طويلاً في تأمّل النار التي بدأت تخفت في المدفأة، وهو يتساءل كيف يمكن لغودريش أنّ يغوص في بيئته الكئيبة اليومية ويواصل في الوقت ذاته الاحتفاظ بابتسامته.

ومع ذلك، وهو لا يزال تحت تأثير الصدمة، قال في نفسه إنّه هو أيضاً عليه أن يصمد. كان لا يزال منهاراً. لم يكن يعرف تماماً بعد كيف سيتصرّف، ولكنّه لن يبقى مكتوف اليدين.

لأنّه بدأ يشعر بالإلحاح.

الوقت قليل وكلّ شيء ملحّ.

كان التيار الكهربائي لا يزال مقطوعاً. أخذ ناتان أحد المصباحين وصعد الدرج وهو يعرج من إحدى ساقيه لكي يصل إلى المكتب الذي توجد فيه الملفات الطبية الموثّقة.

كان البرد في تلك الحجرة رهيباً بحيث اقشعرّ جلده.

وضع ناتان المصباح على الأرض. شعر بأنّه في معرضٍ للجثث المجهولة، محاطاً بالمصائر المهدّدة لعشرات الموتى.

استولى على أسطوانة غودريش السمعية وسجلّه الطبي الذي يتحدّث عن حالته ليضعهما في جيبه.

قبل أن يخرج، لم يتوانَ عن نبش بقية الرفوف، لم يكن يعرف تماماً عمّا كان يفتّش. فلاحظ أنّ هناك، خارج الملفات الطبية المصنّفة زمنياً، العديد من العلب الكرتونية المخصّصة بالكامل لبعض المرضى. كانت اثنتان منها تحملان البيان:

ايميلي غودريش (1947-1976)

فتح العلبة الأولى وأمسك بالملفّ الموضوع على قمّة كومة الوثائق.

كان الملفّ الطبيّ لزوجة غاريت الأولى.

تربّع على الأرضية لكي يتصفّح محتواه.

كان فيه كل التوثيق المفصّل حول مرض هودكين، وهو عبارة عن تكاثر خبيث في الجهاز المناعي، أُصيبت به ايميلي.

كانت الوثائق الأخرى تلخّص الصراع الذي خاضته هذه المرأة ضدّ المرض، منذ اكتشاف إصابتها به عام 1974 وحتى وفاتها بعد

ذلك بعامين: التحاليل الطبية، الاستشارات الطبية في مختلف المستشفيات، جلسات المعالجة الكيميائية. . .

بفتحه للعلبة الثانية، وضع يده على مجلّد سميك.

قرّب المصباح. كان ألبوماً يضمّ كلّ شيء. كان عبارة عن سجل يوميات خاصّ مكتوب بكتابة دائرية لزوجة غاريت اتّخذ شكل وقائع يومية لآخر سنتين من حياتها.

كان على وشك أن يغامر في الحديقة السرية لايميلي غودريش. هل كان من حقّه أن ينتهك حرمتها؟ ليس هناك ما هو أسوأ من الرغبة في الدخول إلى الحياة الخاصّة للناس، فكّر في داخله. النبش في أرشيف غودريش كان شيئاً، ولكن كشف يوميات هذه المرأة شيء مختلف عن ذلك. أغلق الألبوم.

ومع ذلك، عذّبته الرغبة في المعرفة. لم يكن ذلك فضولاً مرضياً ولكن ايميلي كانت قد كتبت عن آخر أيام حياتها وكانت إلى حدّ ما في نفس وضعه هو. أيمكن أن يحصل على أشياء يتعلّمها منها؟

أخيراً، عاود فتح الألبوم وتصفّحه.

بقلب الصفحات، اكتشف صوراً، ورسومات، ومقالات صحف، وأزهاراً يابسة. . .

لم يكن هناك أيّ شيء يدعو للبكاء. كانت بالأحرى يوميات مليئة بالحساسية الفنية. قرأ بانتباه بعض الملاحظات المتّجهة كلّها نحو الفكرة الوحيدة ذاتها: إدراك الموت القادم يحثّ على العيش بطريقة مختلفة، والتلذّذ تماماً بلحظات الراحة المتبقية لنا، والاستعداد لتعذيب الذات في سبيل العيش لوقتٍ قليلٍ إضافيّ.

خلف إحدى صورها التي تمارس فيها رياضة الركض، كانت قد حرّرت ما يشبه نقشاً:

«أركض سريعاً جدّاً بحيث لن يلحق بي الموت أبداً.»

كانت قد ألصقت خصلة من شعرها على صفحة، في بداية معالجتها الكيميائية.

كما كانت هناك أسئلة مطروحة. سؤالٌ واحدٌ على نحوٍ خاصّ، تكرّر على عدّة صفحات: «هل هناك مكانٌ نذهب إليه جميعاً؟»

انتهت اليوميات باستذكار رحلة في جنوب فرنسا. كانت ايميلي احتفظت بفاتورة الفندق وبطاقة بريدية عليها صورة غابة صنوبر وصخور وشمس. كانت تعود إلى حزيران 1976، أي قبل موتها ببضعة أشهر.

في أسفل البطاقة من جهة اليمين، كان يمكن أن نقرأ: «منظر من رأس آنتيب».

وقد ألصقت إلى جانبها مغلّفين صغيرين: يحتوي الأوّل على رملٍ أصهب. والثاني على نبتات مجفّفة.

قرّب المغلّف من أنفه وشمّ رائحة الخزامى، ولكن ربّما لم يكن ذلك سوى ثمرة خياله. كانت رسالة مشبوكة على الصفحة الأخيرة. تعرّف ناتان مباشرة على كتابة غودريش. كان قد كتبها وكأنّها لزوجته ولكنّ الرسالة كانت تعود إلى... عام 1977. بعد عامٍ من وفاتها!

اشرحي لي، يا ايميلي.

كيف استطعتِ أن تعيشي شهراً من السعادة في رأس آنتيب وانتِ تعلمين بأنك محكومة بالموت؟

ماذا كنتِ تفعلين لتظلّي جميلة وفكِهة؟ وأين كنتُ اجد الشجاعة في الا انهار؟

كنا أمضينا لحظات تكاد تكون مشرقة. لقد سبحنا، واصطدنا

وشوينا سمكاً. وخرجنا غالباً للتنزّه على الشاطئ، وسط برودة المساء ونداوته.

وأنا أراكِ تركضين على الرمل بثوبك الصيفيّ القصير، كنتُ أعتقد أيضاً بأنّ الموت سيتجنّبك، وأنّك ستصبحين أعجوبة، القديسة ايميلي، والتي ستترك حالتها أطباء العالم أجمع في حيرة.

ذات يوم، على الرصيف، وضعت الموسيقى بصوتٍ عالٍ: منوعات غولدبيرغ لباخ التي كنا نستمع إليها غالباً. كنتُ أنظر إليك من بعيد وأرغب في البكاء. وبدل ذلك، ابتسمتُ لك وأخذتِ ترقصين وسط الشمس. مددت ذراعك في الهواء لتشيري إليّ بالمجيء والانضمام إليك، وأردتِ أن نسبح.

في ذلك اليوم، كان فمك رطباً ومالحاً، وانتِ تغمرينني بالقبلات، فسّرتِ لي من جديد معنى السماء والبحر والرعشة الباردة للأجساد التي تجفّ بالشمس.

لقد مضى عامٌ تقريباً على رحيلكِ عنّي.

أشتاقُ إليكِ كثيراً...

البارحة، كان عيد ميلادي، ولكنني شعرتُ بأنّه لم يعد لدي عمر.

تصفّح ناتان أيضاً بعض صفحات الألبوم. من جديد وقع على نصٍّ بخط يد غودريش.

كان مقطعاً قاسياً جدّاً يذكر احتضار ايميلي.

الآن نحن في تشرين الأوّل، إنّها النهاية.

لم تعد ايميلي تستيقظ.

قبل ثلاثة أيام، في لحظة راحة، عزفت على البيانو للمرّة الأخيرة. معزوفة لسكارلاتي مع تبديلات متكررة لأصابع اليد اليمنى ونغمات سريعة متعاقبة من اليد اليسرى.

أدهشتني سرعتها في العزف مرّة أخرى. كانت قد تعلّمت هذه المعزوفة وهي صغيرة جداً.

حينما حملتها إلى سريرها، قالت لي:

- لقد عزفتها لك.

كانت هناك أعاصير وعاصفة خلال عدّة أيام. كان البحر قد نقل جذوعاً ضخمة رماها على الضفّة.

لن تستيقظ ايميلي أبداً.

نصبتُ سريرها في الصالون، حجرة منارة جيّداً.

أصرّت على ألاّ تُنقَل إلى المستشفى وهكذا كان. جاء طبيبٌ ليراها يومياً. خفتُ من أحكامي الطبيّة.

تزايدت صعوبة تنفّسها. كانت محمومة بشكلٍ شبه دائم، ترتعش، وتقول دائماً إنّها تشعر بالبرد في حين كان جسمها مشتعلاً.

علاوة على التدفئة المركزية، أوقدت النار في المدفأة.

عدا ايميلي والدكتور، لم أعد أتكلّم مع أحدٍ منذ شهر.

نظرتُ إلى السماء وإلى المحيط. أفرطتُ في الشرب. كاد حالي يكون مثيراً للشفقة. اعتقدتُ أنني مختلف جداً عن الآخرين وانغمست في الخمر مثل أيّ شخص. اعتقدتُ أن ذلك قد يخفّف ألمي ويتيح لي نسيان ذلك الجحيم. كان العكس تماماً. أثار الخمر أحاسيسي وفاقم من شدّة ألمي. ولم يكن بوسعي مساعدة ايميلي بتصرّفي بتلك الطريقة.

لم تعد تكلّمني.

فقدت اثنين من أسنانها.

هذا فظيع.

لم اتحسّب لذلك. لم أتهيّأ لذلك. لقد سبق أن رأيت الكثير من الناس يموتون. الموت هو جزء من مهنتي. ولكن ليس لذلك أي صلة بما أعيشه في هذه اللحظة.

فتحتُ زجاجة أخرى، زجاجة نبيذٍ.

اليوم، في لحظة صفاء، طلبت أن نحقنها بجرعة من المورفين. «جرعة» المورفين. الجرعة التي كنتُ أخشاها، مدركاً تماماً أنّها ستطلبها منّي عاجلاً أم آجلاً.

تحدثت في الأمر مع الدكتور. لم يمانع.

أغلق ناتان المجلّد ثانية، مضطرباً بما قرأه لتوّه.

نزل إلى الصالون، أطفأ المصباحين، أغلق الباب، وخرج وسط عتمة الليل.

هل هناك مكانٌ نذهب إليه جميعاً؟

17

وقت تعلّم الحياة، لقد فات الأوان...

آراغون

سار ليلاً على الطرقات المغطاة بالثلج.

كانت تلك السهرة أليمة جدّاً. وقد أغرقته انفعالاته في موجة من الكآبة تحوّلت، شيئاً فشيئاً، إلى قلقٍ نفسي، مشوبٍ بذلك الإحساس الفظيع بفقدان السيطرة على حياته.

آنذاك، على تلك الطرقات المقفرة، تراءى له أنّه لم يعد من هذا العالم، أنّه قد أصبح شبحاً متسكّعاً في براري إنكلترا الجديدة.

غالباً ما كان يتذمّر من حياته: الكثير من العمل، الكثير من الضرائب، الكثير من الضغوط...

تبّاً له، كم كان غبياً! لم يكن هناك أيّ شيء ممتع أكثر من حياته. حتى يومٌ من الحزن كان يوماً مُعاشاً في النهاية. أدرك ذلك الآن. الخسارة هي أنّه لم يدرك ذلك على نحوٍ مبكر.

هاه! ولكنك لست أوّل مَن يشعر بهذا، يا سيّدي العجوز. هذه هي كلّ المشكلة مع الموت: إنّه يعود إلى الأسئلة الجوهرية بعد فوات الأوان.

بشّ بابتسامة متقزّزة ثمّ ألقى نظرة على المرآة العاكسة. عكست

له المرآة الصغيرة صورة رجلٍ ميّتٍ مع وقف التنفيذ. ماذا كان رأيه حقّاً بالموت في أعماقه؟

هيا، لم تعد الساعة ساعة كذبٍ، يا عزيزي نات الصغير. سأخبرك بما سيحدث: يتوقّف القلب عن الخفقان، هذا كلّ ما في الأمر. لا يعود الإنسان سوى كومة خلايا. يتحلّل جسده في التراب أو يُحرَق في فرن لحرق الأموات وينتهي الأمر. كفى. وكلّ ما تبقى ليس إلاّ سخرية كبيرة.

هذا ما اعتقده حقّاً وهو يغوص في حلكة الليل.

اشتدّ البرد. تصاعد بخارٌ من فمه. رفع درجة التدفئة وهو يواصل تأمّله.

وماذا لو أنّ الإنسان، رغم كلّ شيء، لا يُختَزَل في غلافه الجسدي؟ ماذا لو كان هناك شيءٌ آخر؟ لغزٌ.

لو كان هناك حقّاً قوّة منفصلة عن الجسد؟ روحٌ.

لِمَ لا، ما دام هناك أناسٌ قادرون على التنبّؤ بالموت. لو حدّثه أحدهم عن المبشّرين قبل عام مضى، لسخر من ذلك بهدوء. إلاّ أنّه، اليوم، لم يعد يشكّ في حقيقتهم.

ولكن، حتى إذا قبلنا بوجود طاقة تغادر الجسد بعد الموت، فأيّ مسلكٍ ستسلك؟ ستذهب إلى أين؟ في ذلك «العالم الآخر» الذي ظنّ أنّه قد اقترب منه حينما كان طفلاً؟

قادته تجربة الموت الوشيك تلك بلا ريب إلى شيءٍ ما. بدا الموت آنذاك وديعاً على نحوٍ خطير، جذّاباً جدّاً، مثل النوم الاصطناعي الناجم عن التخدير. كان يشعر بأنّه في أفضل حال. لماذا عاد إذاً؟ بذل جهداً لكي يطرد تلك الذكرى. كان يعرف بغموض أنّه لا يزال غير مهيّئ لمواجهة تلك الحادثة في حياته.

كان القلق يخنقه. كان سيدفع الكثير لكي يحظى بحقّ المشاركة في اللعبة لوقتٍ إضافي. ولو لبضعة أيام، ولو لبضع ساعات.

بينما كان يعود إلى المدينة، تكثّفت حركة السير. وسرعان ما دلّت لافتة طُرُق على أنّه يقترب من نيويورك، وأنه سيبلغ عمارته بعد ساعة من الزمن.

عبر بهو مدخل سان ريمو، البهيّ جدّاً بنوره الخفيف وزخارفه القديمة النمط. من بعيد، لمح بيتر، الوفيّ لموقعه، وهو يتحادث مع مستأجرة عجوز. بانتظار المصعد، التقط نتفاً من حديثهما.

- مساء الخير، مدام فيتزجيرالد، وعيدٌ سعيد.

- وعيدُك سعيد، يا بيتر. قبّل ميليسا والأولاد.

ميليسا والأولاد؟

لم يكن ناتان يعرف حتى أنّ لبيتر أولاداً. لم يحدّثه عن ذلك قط. هذا هو ما لم يكن يسير سيراً طبيعياً في حياته: لم يكن يعير ما يكفي من الانتباه إلى الآخرين. فعاودت ذاكرته جملة غالباً ما ردّدتها مالوري: «الاهتمام بالآخرين، هو اهتمامٌ بالذات.»

أغلق ناتان باب شقّته.

كان يحتاج إلى ساعتين تقريباً ليعود إلى مانهاتن وكان منهوكاً. كانت قيادة السيارة بمثابة الجحيم لأنّ الثلج بدأ يتكدّس ويشكّل طبقة جليدية على الطرقات. ناهيك عن جرح قدمه وربلة ساقه التي كانت تؤلمه ألماً فظيعاً.

منذ بضعة أيام، أصبح أكثر حساسية حيال الألم الجسدي، متسائلاً باستمرار كيف سيتصرّف جسده حيال اقتراب الموت. هل ستكون النهاية هادئة أم عنيفة؟ إحم! كان من الأفضل ألاّ يثير الكثير

من الأوهام، نظراً للطريقة التي مات بها كيڤن وكانديس. عرج في مشيته إلى أن وصل إلى رفّ الصيدلية المنزلية، وابتلع قرصين من الأسبرين لتهدئة الألم قبل أن يدع نفسه يهوي في أريكة. إلى يساره، على رفٍّ، كانت شجرة قزمة باهظة الثمن قد فقدت أوراقها.

لم يعرف قط كيف يهتمّ بتلك الشجرة الصغيرة، هديّة مالوري. عبثاً شذّبها وسقاها بانتظام بواسطة رشّاشة مياه، ولكن من دون جدوى: كلّ يوم، كانت الشجرة تصفرّ أكثر وتتعرّى من أوراقها بلا رحمة.

حتماً، كان يفتقر إلى مهارة زوجته أيضاً في كلّ هذه الأمور الصغيرة التي تجعل الحياة أكثر لطفاً.

أغمض عينيه.

سار كلّ شيء بسرعة. شعر بأنّه نجح في نيل شهادته أوّل من أمس وأصبح أباً يوم أمس. وعليه أن يستعدّ للرحيل؟ كلا، كان ذلك مستحيلاً.

عذّبته فكرة أخرى. تخيّل ڤينس تايلر وهو يقبّل شفتي مالوري، ويداعب شعرها، ويجرّدها من ملابسها ببطء قبل أن يمارس الحبّ معها.

يا ربّ، كان ذلك مقزّزاً! لم يكن ڤينس سوى مخبولٍ يرثى له، ولا ذرّة من حدّة الذهن أو الحسّ النقدي. كانت مالوري تستحقّ فعلاً رجلاً أفضل.

فتح بصعوبة عيناً اصطدمت بلوحة بيضاء بأكملها تقريباً، مخترقة من وسطها ببقعة داكنة بلونٍ فولاذيّ صدِئ. إحدى لوحات زوجته التي يحبّها كثيراً من دون أن يفهمها حقّاً.

أمسك بجهاز التحكّم لينتقل من قناة إلى أخرى: الهبوط الجديد

لأسهم ناسداك؛ كليب أوزي أوسبورن؛ هيلاري كلينتون في بيت ديفيد ليترمان؛ وجه طوني سوبرانو المتشنّج في مغطس الحمام؛ وثائق عن صدّام؛ موعظة قسّ إنجيلي؛ وفي الختام، لورين باكال في مرفأ القلق، وهو يعد بوغارت: «إن احتجت إليّ، صفّر.»

كان سيركّز للحظة على تلك القناة الأخيرة، حينما لاحظ أنّ مجيب هاتفه يومض. بذل مجهوداً لينهض ويضغط على زرّ الجهاز. وفي الحال، دوّى صوت بوني المرح في أرجاء البيت:

«مرحباً بابي، هذه أنا. هل كلّ شيء بخير؟

أَتَعْلَم، اليوم، درسنا الحوتيّات في المدرسة. لذا كنتُ أريد أن أسألك: هل سنستطيع الذهاب إلى ستيلويغن بانك في الربيع المقبل لرؤية هجرة الحيتان؟ أخبرتني ماما بأنّك قد أخذتها إلى هناك منذ زمنٍ طويل وبأنّ ذلك كان رائعاً. أودّ كثيراً أن أذهب أنا أيضاً إلى هناك. لا تنسَ أنني أريد أن أصبح طبيبة بيطرية مستقبلاً وهذا قد يفيدني. حسناً، إلى اللقاء القريب، هناك آل سمبسون في التلفزيون. قبلاتي.»

فكّر ناتان من جديد في تلك الرحلة. من بداية الربيع وحتى أواسط تشرين الأوّل، تسير الحيتان من الكاراييب نحو غرونلاند سالكة خليج ماين. إنّه مشهدٌ يستحقّ فعلاً السفر من أجله. بالطبع كان يجب أن ترى بوني ذلك.

ولكنّه قد لا يكون هو من سيصطحبها إلى هناك: كان لا يزال شهر نيسان بعيداً، وفي مكان ما من الكون، كان أحدٌ ما قد قرّر أنّه لن يكون هناك «ربيعٌ مقبل» في حياة ناتان ديل آميكو.

آنذاك، ترك ذهنه ينجرف حتى شهر أيار 1994، بنهاية ما بعد ظهيرة نديّة ولكنّها مشمسة، في عرض بحر ماساشوسيتس.

جلس مع مالوري في مقدّمة قارب استأجراه، رمى المرساة تماماً فوق جرفٍ واسعٍ مغمورٍ بين كاب كود وكاب آن.

جلس خلفها تماماً، واضعاً ذقنه على كتفها. تفحّص الاثنان الأفق الهادئ للبحر.

فجأةً، أشارت مالوري إلى مكانٍ في عرض البحر. صعد سربٌ من حوالى خمسة عشر حوتاً من أعماق المحيط نافثةً بصخب مياهاً فوّارة إلى ارتفاع بضعة أمتار على شكل ألعاب نارية باهرة.

سريعاً، برزت رؤوسها وجزء كبير من ظهورها على مقربة من القارب. لامست تلك الحيوانات الضخمة، التي تزن خمسين طناً، القارب وهي تُطلق صرخات عذبة. التفتت مالوري إليه، عيناها واسعتان والبسمة على شفتيها، لقد شعرا بأنّهما يعيشان لحظة استثنائية.

سريعاً، قامت الحيتان بآخر غوصٍ. بأناقة لامتناهية، رفعت عالياً جدّاً ذيلها ذي السعفتين قبل أن تتوارى في المحيط، باعثة صفيراً حادّاً ومتزايد القوّة.

ثم لم يتبقّ أيّ شيء، عدا الطيور البحرية التي جابت السماء من جديد لتستعيد مملكتها.

في طريق العودة، روى لهما مالك القارب، وهو صيّاد عجوز من بروڤانستاون، حكاية طريفة.

قبل خمسة أعوام خلت، عُثِرَ على الشاطئ على حوتين صغيرين ذوي حدبة وقد انقلبا جانباً على الرمل.

كان أكبرهما، وهو ذكر، جريحاً وينزف بغزارة من أذنه اليسرى. وبدا الثاني في صحّة جيّدة. لم يكن المدّ والجزر قويّين جدّاً في ذلك المكان وكان هناك شعورٌ بأنّه لو أراد الحوتان ذلك لاستطاعا العودة

إلى عرض البحر في أيّ لحظة. خلال ثمان وأربعين ساعة، حاول خفر السواحل إنقاذ الحيوان السليم بجرّه إلى عرض البحر بواسطة قوارب صغيرة وحبال.

ولكن كلّما كانوا يضعونها في المياه، كانت الأنثى تطلق صرخات نائحة وتعود فوراً إلى رفيقها على الشاطئ، ساعية إلى ملامسته وكأنّها تشكّل سوراً حامياً له.

صباح اليوم الثالث، مات الذكر، وحاولوا للمرّة الأخيرة إعادة الأنثى الناجية إلى المياه. هذه المرّة، لم تحاول العودة والانقلاب جانباً على الشاطئ ولكنّها ظلّت بالقرب من حافة الشاطئ تماماً، راسمة باستمرار دوائر ومطلقة صفيراً طويلاً جدّاً وكئيباً أرعب المتنزّهين على الشاطئ.

استمرّ ذلك طويلاً ومن ثمّ، بالطريقة المفاجئة نفسها التي بدأ بها، توقّف الطقس الجنائزي أخيراً وعادت الأنثى بهدوء لتنقلب جانباً على الرمل حيث ماتت بدورها.

- إنّه لعجيبٌ التعلّق الذي كان بين الحيوانين الصغيرين، أبدى الصياد الملاحظة وهو يشعل سيجارة.

- بل هذا شيءٌ من الحماقة، أبدى ناتان هذا الرأي دون أيّ تفكير.

- إطلاقاً، قالت مالوري بعد صمتٍ قصير.

- ماذا تعنين؟

مالت إلى الأمام لتوشوش في أذنه:

- لو أنّك كنتَ محكوماً بالموت، لانقلبت أنا أيضاً جانباً بالقرب منك.

استدار نحوها وقبّلها.

- أتمنّى من كلّ قلبي ألا يكون ذلك، أجاب وهو يضع يديه على بطنها.

كانت حاملاً في شهرها السادس.

نهض ناتان متوثّباً.

ماذا أفعل، وحيداً، مترهّلاً على هذه الأريكة، مجترّاً الماضي، بدل أن أكون مع زوجتي وابنتي؟

كانت الساعة المنبّهة تشير إلى الثانية و14 دقيقة فجراً، ولكن مع فارق التوقيت، لم تكن الساعة تزيد على الحادية عشرة إلا بقليل في كاليفورنيا.

رفع سمّاعة هاتفه وضغط على زرٍّ لكي يطلب أوّل رقمٍ موضوعٍ على الذاكرة.

بعد رنّات عديدة، ردّ صوتٌ متعَب:

- نعم؟

- مساء الخير، يا مالوري. أتمنى ألا أكون أيقظتكِ؟

- لماذا تتّصل بي في هذا الوقت المتأخّر جدّاً؟ ماذا حدث؟

- لا شيء خطيراً.

- ماذا تريد إذاً؟ سألت بقسوة.

- ربما بضع كلمات أقلّ عدوانية.

تجاهلت ملاحظته ولكنّها ردّدت بضجر هذه المرّة:

- ماذا تريد، يا ناتان؟

- أن أخبركِ بنيّتي المجيء لآخذ بوني غداً.

- ماذا؟ لستَ جادّاً!

- دعيني أشرح لكِ...

- لا شيء لتشرحه لي، ردّت بعنف، يجب أن تذهب بوني إلى المدرسة حتى نهاية الأسبوع!

تنهّد.

- يمكنها التغيّب لبضعة أيام. لن يكون ذلك مشكلة و. . .

لم تدعه ينهي:

- هل يمكنني أن أعرف لماذا تريد تقديم مجيئك؟

سوف أموت، يا عزيزتي.

- لقد أخذت إجازة لبضعة أيام وأحتاج إلى رؤية بوني.

- لقد اتّفقنا على أصولٍ.

- صحيح، ولكن هذه ابنتي أيضاً، أوضح بصوتٍ كان يخون قلقه. أدعوك لأن نربّيها معاً.

- أعرف، قبلت وقد هدأت قليلاً.

- لو أنّكِ أنتِ طلبتِ منّي ذلك، لما مانعت.

لم تردّ بأيّ شيء ولكنّها كانت تسمعه وهو يتنفّس على الطرف الآخر من الخطّ. راودته فجأة فكرة تسوية.

- أَلا يزال والداكِ في بيركشايرز؟

- نعم، إنّهما ينويان قضاء الأعياد هناك.

- اسمعي، إذا سمحتِ لي بالمجيء لأخذ بوني غداً، فأنا مستعدّ لأن آخذها لقضاء يومين معهما.

أبدت تردّداً قبل أن تسأل بلهجة شكّاكة:

- أنت، ستفعل هذا؟

- إذا كان ينبغي ذلك، نعم.

- إنّها لم ترَ جدّيها منذ زمنٍ طويل، أقرّت مالوري.

- اتّفقنا إذاً؟

- لا أعرف. دعني أفكّر أكثر.

وكانت ستغلق السماعة.

ولأنّه لم يعد يحتمل تلك المناقشات الجافّة، قرّر أن يطرح عليها السؤال الذي يكتمه في قلبه منذ زمنٍ طويل.

- هل تتذكّرين تلك الفترة التي كان كلٌّ منا يحكي للآخر كلّ شيء؟

ظلّت منذهلة. واصل كلامه بسرعة:

- الفترة التي كنا نمسك فيها دائماً بأيدي بعضنا ونحن نسير في الشارع، التي كنّا ندعى فيها إلى العمل ثلاث مرّات في اليوم، التي كنا نمضي فيها ساعات من النقاش...

- لماذا العودة إلى تلك الفترة؟

- لأنني أفكّر فيها كلّ يوم.

- لا أدري إن كان هذا أفضل وقت للحديث عن ذلك، قالت بنبرة متعبة.

- أشعر أحياناً بأنّكِ نسيتِ كلّ شيء. لا يمكنكِ شطب ما عشناه معاً.

- ليس هذا ما أفعله.

تغيّرت نبرة صوتها. بشكلٍ خفيّ.

- اسمعي... تخيّلي أنّ مكروهاً حصل لي... أنّ سيارة صدمتني غداً في الشارع. الصورة الأخيرة التي ستحتفظين بها عنّا ستكون صورة زوجين منفصلين.

قالت بصوتٍ حزين:

- هذا ما نحن عليه، يا ناتان.

- سنكون قد افترقنا وسط الغضب والنزق. أعتقد أنّك ستلومين

نفسك على ذلك لسنوات وأنّه سيكون من الصعب عليك التعايش مع هذه الحالة.

انفجرت غاضبة.

- قلتُ لك إن ذلك حصل بسببك إذا. . .

ولكنها، إذ شعرت بالغصّة في حلقها، لم تكمل جملتها وأغلقت السمّاعة.

ابتلعت مالوري دموعها لئلا توقِظَ ابنتها ثمّ ذهبت وجلست على درجات السلّم.

مسحت عينيها المحمرّتين بمنديلٍ ورقي. وحينما رفعت رأسها، أبكتها صورتها المنعكسة في مرآة بهو المدخل.

منذ وفاة ابنها، نَحُفت كثيراً وتلاشت كلّ بهجتها بالحياة. استعادت تلك الشخصية الباردة التي قاومتها كلّ حياتها. في الماضي، حينما كانت شابّة، لم تستطع تحمّل غريس كيلي: تلك المسافة الجليدية، ذلك الوقار التامّ الذي كانت النساء تعتمده حينما كانت تتلقى تعليمها. كانت دائماً حذرة من الكمال. لم تشأ أن تنعزل عن الناس؛ على العكس، أرادت أن تغوص وسط العالم، منفتحة على الآخرين. ولذلك كانت ترتدي غالباً سراويل جينز وبلوزات فضفاضة ومريحة. في الحقيقة، لم ترتدِ ثوباً نسائياً منذ أمدٍ بعيد.

نهضت، أطفأت كلّ مصابيح الغرفة ثمّ أشعلت بعض الشموع وإصبعاً من البخور.

في نظر غالبية الناس، اشتهرت بأنّها امرأة مستقرة ومتّزنة. مع ذلك، كان فيها ضعفٌ يعود إلى فترة مراهقتها التي عانت خلالها من عدّة نوبات فقدان الشهية.

لوقتٍ طويل، اعتقدت أنّها تخلّصت من ذلك نهائياً. . . إلى حين وفاة سين.

انقضت على المأساة ثلاثة أعوام ولكن الألم كان لا يزال بالحدّة نفسها. كانت مالوري تُنهَش باليقين غير المنطقي بأنّ كلّ شيء كان ليختلف تماماً لو أنّها كانت في البيت تلك الليلة الشهيرة. لم يمضِ يوم من دون أن تعود بالذاكرة إلى الوراء مستعيدة الأشهر الأولى من حياة ابنها. هل كان هناك شيءٌ ما لم تلاحظه؟ ألم يفتها أن تلاحظ عرضاً، علامةً؟

حينما كانت طفلة، بعد أن كادت تغرق في تلك البحيرة، كانت تُظهر خوفاً عنيفاً من الموت. لم تكن لتتصوّر أبداً أنّ هناك ما هو أسوأ من موتها، ولكن ما إن أصبحت أمّاً، أدركت أنّ أقسى المحن سيكون في الواقع أن تشهد وفاة الكائن الذي ولدته. كان عليها آنذاك أن ترضخ للواقع: نعم، هناك حقّاً ما هو أسوأ من الموت.

بالتأكيد، ستكون قد قرأت في مكانٍ ما أنّه في القرن الثامن عشر، لم يكن 90% من الأطفال يبلغون سنّ الثلاثة أعوام. ولكن كان ذلك في الماضي، في عصرٍ كان الموت حاضراً في كلّ مكان وكان الناس أفضل استعداداً لتقبّل موت أقربائهم. في حين بالنسبة لها، كانت الحياة قد توقّفت منذ أشهر طويلة ومرعبة. وإذ أضاعت رشدها تماماً، فقدت كلّ معالمها. ستبقى وفاة سين إلى الأبد المأساة الكبرى لحياتها، الخيمة الكبرى فشل زواجها. منذ أن أقاما معاً، في فترة الجامعة، اعتقدت على الدوام أنّها ستستيقظ كلّ صباح إلى جانب ناتان، إلى أن يموت أحدهما. إلا أنّها شاهدت عاجزةً إخفاق حياتها الزوجية. مقتنعة بارتكابِ خطأ ينبغي التكفير عنه، فقبلت من دون مقاومة الانفصال عن زوجها.

للمرّة الأولى في حياتها، شعرت بأنّها غريبة عنه وبأنّهما لم يعودا قادرَيْن على التواصل. في اللحظة التي كانت بأمسّ الحاجة إلى مساندته، كان منهمكاً أكثر في حياته المهنية بينما هي تغرق في ألمها.

لكي تتحمّل وتنجو من الانهيار، انتهت إلى الانغماس في الأنشطة الاجتماعية. وفي الأشهر الأخيرة، عملت على تأسيس موقع على الشبكة الإلكترونية لمنظمة غير حكومية تكافح من أجل أخذ الأخلاق بالحسبان في السلوك. واشتمل عملها على تنظيم الشركات المتعددة الجنسيات تبعاً للمعايير الخاصّة بقوانين العمل والبيئة. ثمّ اهتمّت المنظمة بتعبئة جمعيات المستهلكين لمقاطعة الشركات التي تشغّل الأطفال أو لا تحترم القوانين السارية المفعول.

ولم يتوقّف التزامها عند هذا الحدّ. كان هناك الكثير مما ينبغي القيام به! كانت تسكن في لاغولا، أحد الأحياء الثرية في سان دييغو، ولكن المدينة لم تكن جزيرة صغيرة بمنأى عن كلّ أشكال البؤس. خلف البريق الخدّاع للشواطئ والعمارات المتلألئة فوق جبين البحر، كانت أقلية مهمّشة من السكان تعيش يوماً بيوم، بقليلٍ من الموارد، وأحياناً من دون مسكنٍ حقيقي. كانت تزور ثلاث مرّات في الأسبوع ملجأً للمشرّدين. وعلى الرغم من أنّ ذلك العمل كان متعباً، إلاّ أنّها كانت تشعر هناك، على الأقلّ، بأنّها نافعة، خاصّة في تلك الفترة من السنة حيث ينقضّ نصف سكّان المدينة على الأسواق الكبيرة لتبديد دولاراتهم على مشتريات غير ضرورية. مع الوقت، لم تعد تحتمل كلّ ذلك الضغط الناجم عن الاستهلاك الذي أفسد المعنى الحقيقي لعيد الميلاد منذ زمنٍ طويل.

في مرحلة ما، أرادت حقّاً أن ينخرط زوجها معها في حركات الاحتجاج. كان ناتان محامياً لامعاً ويمكنه أن يضع قدراته في خدمة مثلٍ أعلى. ولكن الأمور لم تجرِ بتلك الطريقة. من دون أن يدركا ذلك حقّاً، كانت حياتهما الزوجية قد بنيت على نوع من سوء الفهم. ومع ذلك حاول كلّ منهما أن يخطو خطوة نحو الآخر. من جهتها، كانت قد عاشت باستمرار بعيدةً عن الاجتماعيات، ولم تعاشر إلاّ

القليل من الناس من وسطها الاجتماعي. وكانت رسالتها في ما يتعلّق بزوجها واضحة: «لا يزعجني أن تكون من منبتٍ اجتماعيٍّ متواضع.»

أمّا هو، وعلى العكس منها، أراد أن يثبت لها أنّها لم تتزوّج رجلاً بائساً وأنّه قادرٌ على ارتقاء درجات السلّم الاجتماعي وإعالة أسرةٍ في رفاهية.

لقد ظنّنا أنّ كلاً منهما يخطو خطوة نحو الآخر، ولكنّهما لم يكونا على وفاق.

بالنسبة لناتان، كانت الحياة كفاحاً متواصلاً حيث كان عليه أن يبلغ أعلى مراتب النجاح المهني لكي يثبت... أمراً لم تكن هي تعرف تماماً ما هو.

حاولت عبثاً أن تشرح له مئة مرّة أنها لم ترغب في أن تكون متزوجة من رجلٍ خارق، ولكن دون جدوى: ظلّ يعتقد بأنّه مرغمٌ على بذل المزيد، وكأنّه يخشى أن يخيّب أملها، ومنذ البداية، لم يفعل ذلك سوى إغاظتها.

رغم كلّ شيء، كانت مولعة به دائماً. «مجنونة به» كانت الأغنية تقول.

أغمضت عينيها. تواردت صور متتالية من الماضي في ذهنها كما في فيلم.

18

لا يكون المرء شابّاً إلاّ مرّة وحيدة
ولكنّه يتذكر ذلك كلّ حياته.
من حوار فيلم *Liberty Heights*
لـ باري ليفستون

1972

نانتوكيت، في بداية الصيف

كانت في الثامنة من عمرها. وكان ذلك لقاءهما الأوّل.

مساء أمس، وصلت من بوسطن. وهذا الصباح، تنزّهت في الحديقة العائلية الشاسعة. ارتدت ثوباً قطنياً يصل إلى تحت ركبتيها، كانت تكرهه. مع هذه الحرارة، كانت لتفضّل ارتداء سروالٍ قصير وقميصٍ رياضيّ ولكنّ أمّها كانت ترغمها دائماً على أن تلبس كفتاة صغيرة نموذجية.

لمرات عديدة، لمحت صبيّاً ذا شعرٍ أسود جميل لم يجرؤ على الحديث معها وفرّ راكضاً ما إن اقتربت منه.

فسألت، حائرة، أمّها التي أجابتها بألا تعره انتباهاً: إنّه ليس «سوى» ابن مدبّرة المنزل.

بعد الظهيرة، صادفته من جديد على الشاطئ. كان يتلهّى بطيارة ورقية صنعها بنفسه من أعواد خيزرانٍ وقطعة من ستار أخذها من صياد

سمكٍ. ولاستخدام مقبضٍ للتوجيه، فكّر في ربط حلقة انتزعها من قضيب قديم لستارةٍ.

رغم صناعتها اليدوية، حلّقت الطائرة الورقية عالياً جدّاً في السماء.

جلبت مالوري، هي الأخرى، طائرتها الورقية، المعقّدة التي اشتروها من مخزنٍ كبيرٍ للألعاب في بوسطن.

ومع ذلك لم تقلع طائرتها. عبثاً هاجت وركضت بسرعة في كلّ الاتجاهات، فقد سقطت الطائرة الورقية على الرمل.

وإن تظاهر الصبيّ بأنّه لا ينظر إليها، أدركت مالوري أنّه في الحقيقة يلقي عليها نظرات عديدة.

ولكنها لم تستسلم وقامت بمحاولة جديدة. ولسوء الحظّ، سقطت لعبتها الرائعة من جديد في المياه. والآن، أصبح الشراع مبلّلاً ومليئاً بالرمل. ملأت الدموع عينيها.

اقترب منها وبادر إلى وضع حلقة الطائرة في قبضتها. شرح لها أنّه ينبغي إدارة الظهر للريح ثمّ ساعدها على إرخاء الخيط تدريجياً. وهكذا ارتفعت الطائرة الورقية سريعاً جدّاً في السماء.

أطلقت صيحات فرحٍ وابتهاج. تلألأت عيناها بالبريق وضحكت كثيراً.

في ما بعد، لإظهار معارفه، أعلمها بأنّ الصينيين يعتبرون أنّ الطائرة الورقية تجلب الحظّ. ولكي لا تبدو متخلّفة عنه، قالت له إنّ بنيامين فرانكلين قد استخدمها لدراسة الصاعقة واختراع واقية الصواعق (قرأت ذلك على الغلاف الكرتوني للعبة).

ثمّ، فخوراً جدّاً، أطلعها على طائرته الورقية عن قربٍ أكثر لكي تبدي إعجابها بصورة الحيوان الغريب الذي رسمه على شراعها.

- أنا من رسمته.
- هل هذه سلحفاة؟ سألت.
- كلا، إنّه تنين، أجاب مغتاظاً بعض الشيء.
ومن جديد، انفجرت الفتاة الصغيرة في الضحك. كان ذلك المزاج الرائق معدياً، وسرعان ما امتزجت ضحكتان طفوليتان مع هدير الأمواج.
أبعد منهما بقليل، كان جهاز ترانزستور، موضوع فوق الرمل، يبثّ *You've Got a Friend* لكارول كينغ، إحدى الأغنيات الشائعة في الصيف.
أصبحت تراقبه الآن بانتباه شديد ووجدت أنّه أظرف صبيّ رأته في حياتها.
قدّم نفسه بطريقة احتفالية:
- أُدعى ناتان.
وردّت عليه، بطريقة لا تقلّ وقاراً:
- اسمي مالوري.

خريف 1972
نانتوكيت
- نات!
بطريقة غير منتظمة، لفظت ماء البحيرة الذي غمر فمها. مشلولة من البرد، كانت تعاني على نحوٍ متزايد من صعوبة التنفّس. لمرّتين، مدّت يائسةً ذراعيها على أمل التعلّق بغصنٍ ولكن حافة البحيرة كانت عاليةً جداً.
لاهثة من التعب، وممتلئة بالذعر، شعرت بأنّها ستغرق. ولكنّ ناتان سبح باتجاهها. أدركت أنّه فرصتها الأخيرة.

- تمسّكي بي، لا تخافي.

منهوكة القوى، تشبّثت به كأنّها تتشبّث بعوّامة إنقاذ. فجأةً، شعرت بأنّها قذفَت إلى الأعلى ونجحت، في اللحظة الأخيرة، في التعلّق بباقة من العشب ومن ثمّ اعتلاء حافة البحيرة.

لقد نجَت.

- ناتان!

مذعورةً تماماً، والدموع تملأ عينيها، نادته بكلّ قواها:

- ناتان! ناتان!

ولكنّه لم يطفُ على السطح. فكّرت سريعاً جداً. يجب أن تفعل شيئاً.

مبلّلة من أخمص القدمين حتى الرأس، مرتعشة برداً، مزرقّة الشفتين، هرعت للاستنجاد بشخصٍ بالغ.

اركضي بسرعة، يا مالوري!

13 تموز 1977

نانتوكيت

كانا في الثالثة عشرة من العمر.

أخذا دراجتهما وسلكا الحلبة الخاصّة بالدراجات التي قادتهما إلى سورفسايد بيش، الشاطئ الأكبر للجزيرة.

بدأ الطقس يغيّم، أزبدت الأمواج. ومع ذلك، لم يتردّدا للحظة في السباحة. على العكس، بقيا لوقتٍ طويل في المحيط وسبحا إلى أن أعياهما التعب. لم يخرجا من الماء إلا حينما بدأت الأمواج تصبح خطيرة. هبّت الرياح قويّة. ارتعشت مالوري. لم يجلبا سوى منشفة واحدة. جفّف ناتان شعرها وظهرها بينما كانت أسنانها تصطكّ.

أغرق المطر الرمل بقطرات كبيرة وخلال بضع دقائق فرغ الشاطئ من الناس. والآن، ليس هناك غيرهما وسط المطر والريح. هو من نهض أوّلاً وساعدها على الوقوف. فجأةً، أمال رأسه نحوها. رفعت مالوري عفوياً عينيها ووقفت على أطراف قدميها. لفّ يديه حول خصرها. مرّرت ذراعيها حول رقبته. في اللحظة التي التقت شفاههما، اجتاحتها رعشة مجهولة. شعرت بملوحة البحر على شفتيها.

كانت القبلة الأولى العذبة جدّاً والتي امتدّت إلى أن تصادمت أسنانهما.

6 آب 1982

بيفورت، كارولاينا الشمالية

كان عمرها ثمانية عشر عاماً.

في ذلك الصيف، رحلت بعيداً عن بيتها لتقيم في مخيّم خلال العطلة الصيفية.

الآن، الساعة هي الثامنة مساءً. خرجت لتجول في قاربٍ في الميناء الصغير حيث تتجاور السفن الشراعية مع قوارب الصيادين. مالت الشمس البرتقالية على الأفق وألهبت السماء. من بعيد، كانت السفن تبدو وكأنّها تعوم على حممٍ منصهرة. ولكن بالنسبة لها، كان ذلك مساءً للبلوز[1]. في الوقت الذي استسلمت للتأرجح بهدير الأمواج المرتطمة بالرصيف البحري، أجرت مراجعة للأشهر القليلة المنصرمة.

---

(1) موسيقى هادئة للجاز أبدعها زنوج أميركا. (المترجم)

كانت سنتها الجامعية الأولى إخفاقاً. ليس من ناحية الدراسة، إنما من ناحية صحّتها وحياتها العاطفية: لقد أخطأت بخروجها لمرّتين مع أشخاص لا خير فيهم وليست لديها أيّ صديقة حقيقية. قرأت كتباً كثيرة، واهتمّت بالأحداث وبالواقع المحيط بها ولكن ساد ذهنها نوعٌ من الفوضى.

على مرّ الأشهر، انطوت على نفسها بكلّ هدوء، هي التي كانت منفتحة جداً على الآخرين. كما أنّها قلّلت، لاشعورياً، من طعامها، متخلّية عن وجبات الفطور والوجبات الخفيفة ومقلّلة من الأكل خلال الوجبات الرئيسية. وهي وسيلة كغيرها لموازنة تلك الفوضى التي شعرت بها في رأسها بخلق نوعٍ من الفراغ في جسدها. ولكن من فرط اللعب بالنار، انتهى الأمر بها إلى توعّكٍ تدريجيّ وكان على الجامعة أن تستدعي طبيباً.

في الفترة الأخيرة، كانت في حالٍ أفضلٍ بعض الشيء ولكنها كانت تعرف جيّداً أنّها ليست في منأى عن انتكاسٍ في حالتها.

قريباً ستنقضي ثلاثة أعوام لم تعد تسمع خلالها أيّة أخبار عن ناتان. منذ أن كفّت اليانور ديل آميكو عن خدمة والديها، لم تعد تراه. في البداية، كانا يتراسلان برسائل مطوّلة، ثمّ تغلّب الغياب على حبّهما.

مع ذلك، لم تنسه أبداً. كان دائماً حاضراً، في مكانٍ ما من زاوية صغيرة في رأسها.

ذلك المساء، تساءلت عمّا حلّ به. ألا يزال يقيم في نيويورك؟ أيكون قد التحق بجامعة مرموقة كما كان ينوي؟ أيرغب في لقائها من جديد؟

ظلّت تسير بمحاذاة الحاجز ولكن بسرعة متزايدة. فجأة، شعرت بالحاجة الملحّة للحديث إليه. هناك، في ذلك المساء، وحالاً.

هرعت إلى هاتفٍ عمومي، اتّصلت بالاستعلامات وحصلت على الرقم الذي تبحث عنه.

ثمّ جرت هذه المكالمة خلال الليل.

شريطة أن يكون هو من يردّ.

- آلو؟

إنّه هو.

تحادثا مطوّلاً. اعترف لها بأنّه حاول عدّة مرات أن ينضمّ إليها في الصيف الماضي. «ألم يسلّمكِ والداكِ رسائلي؟» شعرت بأنّ الأمر الأساسي بينهما لم يتغيّر وبأنّهما لا يزالان يتصرّفان وكأنّهما التقيا أمس.

أخيراً، اتّفقا على أن يلتقيا في نهاية الشهر.

أغلقت السمّاعة. في المرفأ، غابت الشمس تماماً.

سلكت طريق المخيّم، خفيفة الحركة. أصبحت امرأة أخرى.

تردّد نبض قلبها حتى في رأسها.

ناتان... ناتان... ناتان...

28 آب 1982

سيسايد هايتز، نيوجرسي

الساعة الثانية فجراً

على شاطئ البحر، كانت مصابيح أعمدة الكهرباء لا تزال تومض، وإن كانت منصّات الحفل المتجوّل قد بدأت بالإغلاق. امتزجت روائح المقالي مع روائح السمك والطماطم. بالقرب من العجلة الكبيرة، كانت الأسوار العملاقة تبثّ *Up Where We Belong* لجو كوكر للمرّة المئة في السهرة.

أوقفت مالوري سيارتها في المرآب في الهواء الطلق. جاءت

تنتظره. كان ناتان قد وجد عملاً لفترة الصيف في محطّة الحمّامات الصغيرة تلك التي تبعد لمدّة ساعة عن مانهاتن. لقاء بضعة دولارات، عمل في إحدى الوكالات العديدة للقشدة المجمّدة المحاذية للواجهة البحرية.

منذ أن التقيا في عطلة نهاية الأسبوع الأخيرة، تواصلا هاتفياً كلّ مساء.

في الحالة الطبيعية، لم يتوقّعا أن يلتقيا إلا الأحد التالي ولكنّها فاجأته بالقدوم من بوسطن. فقد استقلت إحدى سيارات والدها، وهي سيارة قوية من طراز آستون مارتين لونها أخضر غامق أتاحت لها قطع المسافة في أقلّ من أربع ساعات بقليل.

وصل أخيراً، يرتدي بنطالاً قصيراً وتي شيرت مطبوعاً عليه شعار المخزن الذي يعمل فيه. كان محاطاً بعمالٍ موسميين آخرين. وتعرّفت على لكنات لاتينية وإيرلندية.

ولأنّه لم يتوقّع رؤيتها، تساءل، من بعيد، مَنْ تكون البطلة السينمائية، المستندة إلى سيارتها السريعة والتي تبدو أنّها تنظر باتجاهه.

ثمّ تعرّف عليها.

ركض نحوها، وصل إليها، أخذها بين ذراعيه ورفعها ليدور بها. لفّت ذراعيها حول رقبته ضاحكة وشدّته إليها لتستلذّ بشفتيه بينما يقفز قلبها في صدرها.

هكذا كان الحبّ في بداياته.

20 أيلول 1982

ناتان،

فقط بعض الكلمات لأخبرك بأنّ اللحظات التي أمضيتها معك في نهاية الصيف كانت رائعة.

أنا مشتاقة إليك.

لقد استأنفت دروسي هذا الصباح ولكنني لا أكفّ عن التفكير فيك.

لمرات عديدة في اليوم، حينما تنزّهت في الحرم الجامعي، تخيّلتُ أنّك معي وأننا نواصل حديثنا. لا بدّ أنّ بعض الطلبة الذين صادفتهم قد تساءلوا مَنْ هذه المجنونة التي تتكلّم وحدها رافعة أنفها في الهواء!

أنا في أحسن حالٍ معك، تعجبني قدرتك على رؤية داخلي وعلى فهمي من دون أن أحتاج إلى الكلام.

أتمنى أن تكون سعيداً كذلك.

أقبّلك وأحبّك.

مالوري

[على المغلّف، بالقلم الأحمر، كتبت كلمة للفت انتباه ساعي البريد: يا ساعي البريد، أيّها الساعي اللطيف، حاول أن توزّع البريد في وقته لكي يتلقّى حبيبي كلماتي العاشقة بأسرع ما يمكن!]

27 أيلول 1982

مالوري،

لقد أغلقت بالكاد سمّاعة هاتفي و... ها قد اشتقتُ إليك.

كلّ اللحظات التي أمضيتها معكِ تمنحني الرغبة في أن أمضي المزيد منها.

أنا سعيدٌ معكِ. سعيدٌ إلى أقصى حدّ.

من الآن فصاعداً، حينما أفكّر في المستقبل، لا أقول «سوف أفعل» وإنّما «سوف نفعل».

وهذا يغيّر كلّ شيء.

ناتان

[على المغلّف، الصق بطاقة السينما لآخر فيلم شاهداه معاً، إي. تي. الكائن الفضائي. في الواقع، لم يشاهدا ما يذكر من الفيلم لكونهما لم يفعلا سوى تبادل القبلات طوال العرض.]

ذات يوم أحدٍ من كانون الأوّل 1982

في غرفتها الجامعية في كامبريدج

ارتفعت من جهاز التسجيل بعض أنغام كونشيرتو دفوراك الذي عزفته بحماسة جاكلين دي بري على كَمَانها الستراديفاريوس[1] الشهير.

تعانقا وتبادلا القبلات على السرير لمدّة ساعة.

نزع رافعة نهديها وداعب صدرها كأنّه يلمس شيئاً ثميناً.

إنّها المرّة الأولى التي سيمارسان فيها الحبّ.

- أأنتِ متأكّدة من أنّك تريدين ذلك الآن؟

- نعم، أجابت من دون تردّد.

هذا هو ما كانت تحبّ فيه أيضاً: هذا المزيج من الرقّة والمودّة الذي يجعل منه شخصاً مختلفاً.

لاشعورياً، كانت على يقين بأنّها لو أنجبت أطفالاً ذات يوم، فلن يكون ذلك إلاّ معه.

---

(1) كمان من اختراع ستراديفاريوس. (المترجم)

3 كانون الثاني 1983

ناتان، حبيبي

لقد انتهت عطلة عيد الميلاد.

خلال هذه الأيام القليلة، عشقتُ أن أتقاسم لياليَّ معك.

ولكن هذا المساء، أنا حزينة.

لقد غادرتَ للتوّ بالسيارة لتعود إلى مانهاتن.

هذا المساء، أشعر بأنّه سيكون من الصعب انتظار العطلة المقبلة قبل أن أراك.

حتى وإن كنتُ أعلم بأنّنا سنتحادث هاتفياً غداً.

ما يخيفني هو أن ينتهي كلّ هذا.

لأنّ ما أعيشه معك استثنائيّ.

أنا مغرمة بك بجنون.

مالوري.

[على المغلّف، تركت آثاراً عديدة لأحمر الشفاه متبوعة بالكلمات التالية: تفضّلوا بإيداع هذه الرسالة وكذلك كلّ هذه القُبل في صندوق رسائل السيد ناتان ديل آميكو. وحذارِ أن تُخْتَلَس قبلاتي!]

6 كانون الثاني 1983

مالوري، يا بوصلتي الحلوة،

أنا مشتاق إليكِ ولكن حضورك يطفو في كلّ مكان في الهواء قريباً جدّاً منيّ.

لو كنتِ تعلمين كم أنا متعجّل لأن أضمّكِ من جديد بين ذراعيّ وأن أستيقظ إلى جانبك.

تحلّق قبلات كثيرة من غرفتي وتسلك طريق كامبريدج.

أعشقكِ

ناتان.

[في المغلّف، دسّ صورة لها التُقِطَت خلال العطلة الأخيرة في حديقة الحرم الجامعي لكامبريدج. وكتب خلفها جملة مأخوذة من روميو وجولييت: هناك خطر عليّ في نظرتك أكثر من مئة سيفٍ من سيوفهم.]

1984

بيت العائلة في بوسطن

زمّرت سيارة في الشارع.

ألقت نظرة من النافذة. كان ناتان ينتظرها أمام البوابة خلف مقود سيارته القديمة من طراز موستانغ.

هرعت نحو الباب لكنّ والدها وقف ليقطع عليها الطريق.

- من غير الوارد أن تواصلي الخروج مع هذا الصبيّ.

- وهل يمكنني معرفة السبب، من فضلك؟

- هكذا من دون سبب.

من جهتها، حاولت والدتها أن تقنعها:

- يمكنك أن تجدي أفضل منه بكثير، يا عزيزتي.

- أفضل لِمَن؟ لي أم لكما؟

تقدّمت نحو المخرج ولكنّ جيفري لم يوافقها.

- مالوري، أحذّركِ، لو عبرتِ عتبة هذا الباب...

- لو عبرتُ عتبة هذا الباب... ماذا؟ سوف تطردني خارجاً؟ سوف تحرمني من الميراث؟ على كلٍّ، ليس لدي ما أفعله بأموالك...

- ومع ذلك تعيشين بهذه الأموال وتدفعين نفقات دراستك. ثمّ يكفي، لستِ إلاّ مراهِقة!

- أذكّرك بأنّي في العشرين من عمري...

- أنصحكِ ألا تعارضينا!

- وأنا، سأنصحكما نصيحة أخرى: لا ترغماني على الاختيار بينه وبينكما.

صمتت لبضع ثوانٍ، تاركةً لجوابها السريع الوقت ليفعل فعله، قبل أن تضيف:

- لأنّي لو اضطررت للاختيار، فسأختاره هو.

معتبرة الحديثَ منتهياً، خرجت من البيت صافقة الباب.

صيف 1987

أوّل عطلة فعلية لهما في الخارج

حديقة في فلورنسا، شهيرة بتماثيلها

كانا أمام نافورة كبيرة محاطةٍ بأشجار البرتقال والتين والسّرو.

كان انبجاس الماء يتلألأ في الشمس ويشكل أقواس قزحٍ صغيرة.

ألقت قطعة نقدية في الماء وحثّته على فعل الشيء ذاته.

- تمنّ أمنية.

رفض.

- لا أؤمن بهذه الخدَع.

- هيّا، يا نات، تمنّ أمنية.

هزّ رأسه رافضاً ولكنّها ألحّت عليه.

- افعل ذلك من أجلنا.

بطيبة خاطر، أخذ قطعة نقد من جيبه وأغمض عينيه وألقاها في النافورة.

أمّا في ما يخصّها، فلم تستطع أن تتمنّى أيّ شيء أكثر ممّا تحظى به الآن.

تمنّت فقط أن يستمرّ هذا.

For always. For ever

صيف 1990

قضاء العطلة في اسبانيا

إنّهما في حدائق تيه هورتا، في برشلونة.

هذا شجارهما الحقيقي الأوّل.

في الليل، أخبرها بأنّه سيضطرّ للعودة قبل يومين، بسبب العمل.

كانا هنا، في أحد أكثر أمكنة العالم رومانسية، وهي لا تزال غاضبة منه.

حاول أن يمسك بيدها ولكنها ابتعدت عنه وخاضت وحيدة في المتاهة الخضراء.

- أنت تجازف بأن تخسرني ذات يوم، قالت لكي تثيره.

- سوف أستردّك.

- أنت واثق بنفسك كثيراً.

- أنا واثقٌ بنفسينا.

خريف 1993

صباح يوم أحدٍ في شقّتهما

راقبته من ثقب قفل باب الحمّام.

كان تحت الدوش، وقد حوّل كالعادة الحمام إلى ساونا.

غنّى بأعلى صوته (بطريقة خاطئة) أغنية لـ U2.
ثمّ أغلق صنبور الماء الساخن، وسحب ستارة الدوش وأطلق صيحة فرح.
تكثّف البخار على المرآة، مما أدى إلى ظهور كتابةٍ.
ستكون أباً!

1993

اليوم نفسه

بعد عشر دقائق من ذلك

كانا معاً تحت الدوش وتبادلا بضع كلمات بين قبلتين.

- إذا كانت بنتاً؟

هي منْ وجّهت الحديث نحو اختيار الاسم.

- لماذا لا نسمّيها بونيتا.

- بونيتا؟

- بونيتا أو بوني. في كلّ الأحوال شيءٌ يدلّ على «الطيبة». هذه الكلمة التي أودّ أن أسمعها كلّما أناديها.

ابتسمت، فتحت عبوة وصبّت على جذعه مرهماً للحمام.

- موافقة، بشرطٍ واحد.

- ما هو؟

- سوف أختار اسم الطفل المقبل.

أمسك بقالب صابون بالخزامى وأخذ يدعك ظهرها.

- المقبل؟

- اسم طفلنا الثاني.

شدّته إليها. انزلق جسداهما المغطّيان بالصابون على بعضهما.

1994

حاملاً في شهرها الثامن، كانت مستلقية على سريرها وتتصفّح مجلةً.

ألصق ناتان رأسه ببطنها وهو يترصّد حركات الطفل.

على جهاز التسجيل الليزري، كان باڤاروتي يصدح مدوياً بأحد ألحان ڤيردي.

منذ أن قرأ ناتان كتاباً يمجّد منافع الموسيقى الكلاسيكية على ذكاء الطفل، لم يمرّ مساء من دون أن يصدح في منزلهما مقطعاً من الأوبرا.

اعتقدت مالوري أنّ هذه الموسيقى قد تكون مفيدة للطفل ولكن ليس لها.

وضعت سمّاعة الووكمان على أذنيها واستمعت إلى *About a Girl* لنيرڤانا.

1999

في مطعم في ويست ڤيليج

طلبا زجاجة شمبانيا.

- وإذا كان صبيّاً. . .

- سيكون صبياً، يا ناتان.

- كيف عرفتِ ذلك؟

- أعرف ذلك لأنني امرأة ولأنّني أنتظر هذا الطفل منذ خمس سنوات.

- إذا كان صبيّاً فكّرت في. . .

- لا نقاش في هذا الأمر، يا ناتان، سيكون اسمه سين.

- سين؟

- يعني «هبة الله» باللغة الإيرلندية.

كشّر.

- لا أرى ما يفعله الله هنا في الداخل.

- على العكس، أنت ترى جيّداً.

بالطبع يرى جيداً. بعد ولادة بوني، أكّد الأطباء لهما أنّهما لن ينجبا أبداً طفلاً آخر. ومع ذلك، لم تُصدّقهم أبداً. هي تعرف أنّ ناتان لا يحبّ هذه الإحالة إلى الدين ولكن، هذا المساء، هو سعيد جدّاً بحيث سيقبل بأيّ شيءٍ كان.

- ممتاز، قال وهو يرفع كأسه، نحن بانتظار سين الصغير.

فتحت مالوري عينيها وانقطع شريط الأيام السعيدة بقسوة وكأنّ بكرة الفيلم قد انكسرت على الفور.

اقشعرّ جلد جسمها بأكمله. كانت تلك العودة إلى الوراء أليمة. وككلّ مرّة، غمرتها ذكرى تلك المرحلة من السعادة الغامرة بفيضٍ من الانفعالات لم تعرف كيف تسيطر عليها.

سحبت محرمة أخرى من جيبها وهي تشعر بأنّ الدموع على وشك الانبجاس من زاوية عينيها.

يا إلهي، لقد أفسدنا حقّا كلّ شيء.

كانت بالتأكيد مشتاقة لناتان ولكنّ الهوّة بينهما كانت عميقة جدّاً بحيث لم تشعر بأنّها قادرة على أن تخطو خطوة حقيقية نحوه.

كان بوسعها أن تقدّم الحساء للمشرّدين في حمى الليل، وأن تناضل ضدّ الشركات المتعددة الجنسيات المستغلّة للأطفال، وأن تتظاهر ضدّ منتجي المواد العضوية المعدّلة وراثياً: لم يكن هذا يخيفها.

لكن أن تجد نفسها من جديد أمام ناتان كان شيئاً مختلفاً تماماً.

وقفت أمام النافذة المطلّة على الشارع ونظرت مطوّلاً إلى السماء. تفرّقت الغيوم وأضاء شعاعٌ من القمر الطاولة التي عليها الهاتف.

تردّدت في رفع سمّاعة الجهاز. كان عليها أن تقوم على الأقلّ ببادرة.

ردّ سريعاً جدّاً:

- مالوري؟

- نعم، يا ناتان، يمكنك أن تأتي وتأخذ بوني في وقتٍ أبكر.

- شكراً، قال بارتياح، سأحاول أن أكون هناك في بداية ما بعد الظهيرة، طابت ليلتك.

- هناك أمر آخر...

- ماذا؟

اتّخذت لهجة تحدٍّ:

- أتذكّر كلّ شيء، يا نات: أتذكّر كلّ اللحظات التي قضيناها معاً، كلّ التفاصيل، أتذكّر لون السماء ورائحة الرمل حين قبلتنا الأولى، أتذكّر كلماتك حينما أخبرتك بأنّي حامل، أتذكّر ليالي أمضيناها بالقبل إلى أن تألّمت شفاهنا... أتذكّر كلّ شيء ولم يعد يهمّني أي شيء في حياتي غيرك. وبالتالي ليس لك الحقّ في أن تتكلّم بالطريقة التي تفعل بها.

- أنا...

كان سيقول شيئاً ولكنّها أغلقت السمّاعة.

ذهب ناتان إلى النافذة. لا يزال الثلج يتساقط على سنترال بارك.

تزوبعت سحابة من الندف الضخمة أمام الزجاج وتراكمت على حرف النوافذ.

للحظة، ترك نظرته تشرد دون هدفٍ وهو يفكّر في ما قالته زوجته للتوّ.

ثمّ، مسح بكمّ قميصه عينيه المغشيتين بالدموع التي انهمرت وحدها.

19

المغفّلون الأقذار ممثّلون على نحوٍ
واسعٍ على هذا الكوكب.

بات كونروي

هوستون ستريت
مقاطعة سوهو
16 كانون الثاني- الساعة السادسة صباحاً

نزل غاريت غودريش بحذر الدرجات المغطاة بالجليد للسلّم الخارجي لمسكنه، وهو عبارة عن مبنى من القرميد الداكن يطلّ مباشرة على الشارع.

كانت طبقة ثلجية بسماكة حوالى عشرة سنتمترات تغطّي سيارته التي تركها في الخارج ليلة أمس. أخرج مجرفة من جيبه وكشط واقية السيارة. ولأنّه كان متأخراً، اكتفى بتنظيف الزجاج من جهة السائق. جلس خلف المقود، فرك يديه ليتدفأ، أدخل مفتاح التشغيل و. . .

- إلى المطار، من فضلك!

ارتجف رجفةً ثمّ استدار بحركة مفاجئة ليرى ناتان جالساً إلى اليمين، على المقعد الخلفي.

- تبّاً لك، يا ديل آميكو. لا تفزعني هكذا مرّة أخرى! كيف دخلت إلى سيارتي؟

- ما كان ينبغي أن تترك لي النسخة الاحتياطية من مفاتيحك، أجاب المحامي وهو يهزّ رزمة صغيرة من المفاتيح تحت أنف الطبيب. نسيت أن أضعها في صندوق الرسائل البارحة مساءً.

- حسناً، ما الذي تفعله هنا؟

- سوف أشرح لك كلّ شيء في الطريق، سنستقلّ طائرة إلى كاليفورنيا.

هزّ الطبيب رأسه.

- أنت تحلم! لدي يوم مثقل بالعمل وقد تأخّرت، إذاً أنت. . .

- سوف أذهب لاصطحاب ابنتي من سان دييغو، أوضح ناتان.

- يسعدني أن أعرف ذلك، قال غاريت وهو يهزّ كتفيه.

- لا أريد أن أعرّضها لأدنى خطر، أكّد المحامي وهو يرفع من نبرته.

- متأسّف، يا صديقي العجوز، ولكن لا أرى جيّداً ما يمكنني أن أفيدك به.

ومع ذلك أدار المحرّك ليتمكّن من تشغيل التدفئة.

اقترب ناتان منه.

- لننظر إلى الوضع بموضوعية، يا غاريت. أنا «ميّت مع وقف التنفيذ» في حين أنّك في مأمن. هل أفترض أنّه لم يراودك هاجسٌ سيّئ يتعلّق بساعاتك الأربع والعشرين القادمة؟ ألم ترَ ضوءاً أبيض وأنت تنظر في المرآة هذا الصباح؟

- كلاّ، أقرّ غودريش منهكاً، ولكن ما زلت لا أفهم أيّ شيء من تبريرك.

- أعترف أنّك نجحت في إثارة الهلع في داخلي. لم أعد أستطيع أن أضع قدمي خارجاً من دون أن أخشى من أن تصدمني

سيارة أجرة أو تنزل صقالة فوقي. وأيضاً، ها هو ما أعتقده: ما دمتُ معك، فهناك القليل من الفرص لأن يحدث لي مكروه.

- هذا أمرٌ موهومٌ تماماً. اسمعني...

- كلا، قاطعه ناتان بعنف، أنتَ مَنْ سيسمعني: ليست لابنتي أي علاقة بتنبّؤاتك المرضية اللعينة. لا أريد أن أخاطر بأن يقع لها أدنى حادث وهي معي في الطائرة. إذاً سنبقى معاً، أنت وأنا، إلى أن أصحبها إلى هنا بسلام.

- تريد أن أكون... ضمان حياتك! صرخ غاريت.

- بالضبط.

هزّ الطبيب رأسه.

- أنت أبله. لا تسير الأمور هكذا، يا ناتان.

- يجب الاعتقاد بأن بلى. تغيّرت قواعد اللعبة، هذا كلّ ما في الأمر.

- من العبث أن تلحّ عليّ، قال الطبيب بشدّة. لن أرافقك إلى أيّ مكان، يا ناتان، هل فهمتني؟ ولا أيّ مكان.

بعد ذلك ببضع ساعات

ألقى ناتان نظرة على ساعة يده.

الرحلة 211 للخطوط الجويّة المتّحدة لن تتأخّر عن الهبوط في سان دييغو. لأنّهما لم يجدا رحلة مباشرة، اضطرا لأن يمرّا أولاً بواشنطن، الأمر الذي أطال الرحلة بعض الشيء.

نظر المحامي إلى غودريش، الجالس بجانبه. كان الطبيب ينهي من دون استعجال الطبق الذي قدّمته له المضيفة قبل نصف ساعة خلت.

لم يعد ناتان يدري ما هو رأيه حقّاً بخصوص غاريت. كان أمرٌ واحدٌ مؤكّداً: بدأت المنغصات حينما اقتحم حياته. من جهة أخرى، لم يستطع الامتناع عن الشعور حياله بشعورٍ غريب من الإعجاب والتعاطف. لأنّه لو كان ما يزعمه غودريش صحيحاً (وقد تيّقن ناتان الآن من أنّ غودريش مبشّر) فإنّ حياته الخاصّة لا بدّ ألا تكون وظيفة عاطلة: كيف يمكنه أن يعيش حياةً طبيعيّة مع هكذا موهبة؟ لا بدّ أن تكون رؤيته المتواصلة لموتى مع وقف التنفيذ يجولون من حوله عبئاً ثقيلاً على الحَمْل.

طبعاً، سيفضّل لو أنّه لم يلتقِ به أبداً - أو على الأقلّ لو التقى به في ظروف أخرى - لكنّه كان معجباً بهذا الرجل: كان شخصاً حسّاساً ومطمئِناً. رجلٌ جريح أحبّ بشغفٍ زوجته ويكرّس نفسه الآن جسداً وروحاً لمرضاه.

لم يكن من السهل إقناعه بالقيام بهذه الرحلة إلى كاليفورنيا. فقد كانت لدى الجرّاح عملية مهمّة من المقرّر إجراؤها في النهار ناهيك عن أنّه لم يكن يستطيع التغيّب عن مركز العناية المسكّنة من دون إجراء بعض الترتيبات.

بعد أن جرّب ناتان عبثاً كلّ تهديدات الدنيا، اضطرّ للتخلّي عن تلك النبرة. وقام ناتان بعرض حقيقة وضعه ومشاعره: رجلٌ سيلتقي ابنته ربّما للمرّة الأخيرة؛ رجلٌ لا يزال مغرمٌ بشدّة بزوجته ويريد أن يحاول التقرّب منها للمرّة الأخيرة؛ رجلٌ يتعقّبه الموت ويتوسّل مساعدته.

متأثّراً بنداء الاستغاثة هذا، وافق غاريت على أن يؤجّل موعد عملياته الجراحية ليرافق ناتان إلى سان دييغو. علاوة على ذلك، كان يشعر بأنه مسؤولٌ جزئياً عن القلاقل التي أصابت حياة المحامي.

- ألا تأكل خبزك المحمّص ببيض السلمون؟ سأل غودريش بينما

كانت المضيفة قد بدأت بلمّ الأطباق من أمامهما.

- بالي مشغولٌ بأمورٍ أخرى، أجاب ناتان. كُلْهُ إن أردت.

لم يدعه غاريت يكرّر ذلك. التقط الخبز المحمّص بخفّة، قبل أن تستولي المضيفة على الطبق بنصف ثانية.

- لماذا أنت مضطرب لهذه الدرجة؟ سأل وفمه مليءٌ بالطعام.

تنهّد المحامي:

- هذا يحدث لي كلّما أُخبَر بأنّني سأموت عمّا قريب. عادةٌ سيئة عندي.

- ربّما عليك أن تتذوّق هذه الزجاجة الصغيرة من النبيذ الأسترالي الذي قُدِّم لنا للتوّ. قد يكون بمثابة البلسم لقلبك.

- أرى أنّك تفرط في الشراب قليلاً، يا غاريت، لو أستطيع أن أسمح لنفسي.

كان لدى غودريش تفسيرٌ مختلف:

- ببساطة، أنا أعتني بنفسي: أنت لا تجهل أنّ للخمر فوائد لعروق القلب.

- كلّ هذا الكلام، هذه نكتة، قال المحامي وهو ينفي الحجّة بحركة من يده. هذه طريقة كغيرها لإزالة الشعور بالذنب.

- ليس تماماً! ثار غودريش، هذا مثبتٌ علمياً: أحماض الكربوليك المتعددة الموجودة في قشرة العنب تمنع إنتاج اللاندوتولين المسبب الأساسي لانقباض العروق...

قاطعه ناتان وهو يهزّ كتفيه:

- لا بأس، لا بأس، إن كنت تظن أنك ستؤثّر عليّ بتفسيرك الطبيّ.

- لا يمكنك سوى الانحناء أمام العلم، قال غودريش بابتهاج.

فكشف ناتان ورقته الأخيرة:

- إذا قبلنا بأنّ ما تقوله صحيح، يبدو لي أنني قد قرأت في مكانٍ ما أنّ هذه «الفوائد لعروق القلب» ليست صحيحة إلا بالنسبة للنبيذ الأحمر.

- أوه... هذا صحيح، اضطرّ الطبيب للاعتراف وهو لم يكن يتوقّع هذه الحجّة.

- أوقفني إن كنتُ مخطئاً، يا غاريت، ولكن يبدو لي أنّ هذا النبيذ الأسترالي الذي تشيد لي بفوائده هو نبيذٌ أبيض، أليس كذلك؟

- أنت حقّاً منكّدٌ عظيم! قال غودريش مغتاظاً بعض الشيء.

ثمّ أضاف:

-... ولكن عليك أن تكون محامياً ناجحاً عظيماً.

في هذه اللحظة تماماً، أعلنت المضيفة:

«سيداتي، سادتي، ستبدأ طائرتنا عما قريب هبوطها. من فضلكم تأكّدوا أنّ حزامكم مربوط وأنّ مسند مقعدكم مرفوع».

استدار ناتان نحو نافذة الطائرة. ونظر من خلالها إلى الجبال، وإلى أبعد من ذلك، إلى الساحل الكاليفورني الذي كانت تنبعث منه برودة صحراوية.

سيلتقي عما قريب مالوري.

«وصول رحلة الخطوط الجوية المتّحدة 435 القادمة من واشنطن. الركاب مدعوون لأن يسلكوا البوابة رقم 9».

ولأنّه لم تكن لديهما أمتعة لم يتأخّرا في المطار. استأجر ناتان سيارة من وكالة آڤيس وعلى غير ما كان يتوقّع، أصرّ غودريش أن يقود السيارة.

كان الجو مختلفاً حقّاً عن جوّ نيويورك: كان الهواء لطيفاً، والسماء صافية وكانت درجة الحرارة 20 درجة مئوية. فلم ينتظرا طويلاً ليتركا اللفحات والمعاطف على المقعد الخلفي.

كانت مدينة سان دييغو تمتد لكيلومترات على طول شبه جزيرتين. طلب ناتان من غودريش أن يتجنّب مركز المدينة، حيث تكون حركة السير فيه كثيفة بشكلٍ عام في فترة الغداء. قاده حتى الساحل وجعله يسلك اتّجاه الشمال، محاذياً شواطئ الرمل التي تتخلّلها حواجز صخرية وخلجان صغيرة.

كانت محطّة حمامات لاغالا قد بنيت على رابية صغيرة يمكن الوصول إليها عبر شاطئٍ متعرج تحاذيه بيوت أنيقة. لم يكن غودريش قد وضع قدميه قطّ في هذا المكان ولكنّه فكّر مباشرة في موناكو والريفييرا الفرنسية التي زارها منذ سنوات عديدة خلال سفره إلى فرنسا. منبهراً بالإطلالة المذهلة على المحيط، انحنى عدّة مرّات من النافذة، حيث تُشاهَد الأمواج العالية التي يحاول المتزلّجون قهرها قبل أن تتحطّم على الشواطئ الصخرية.

- لا تنسَ النظر إلى الطريق!

أبطأ الطبيب من السرعة ليتسنى له الاستمتاع بالمشهد وبالهواء البحري المنعش المتصاعد من المحيط. ترك سيارة فورد موستانغ مدهونة باللون البنفسجي تتجاوزه، وفي إثرها سيارتا هارلي دافيدسون يركبها رجالٌ ستينيّون لهم هيئة الهيبييّن القدماء.

- حلاوة الحياة في كاليفورنيا أمرٌ مختلف، قال غودريش بينما عبر سنجابٌ أمامهما.

بمطاعمها ومتاجرها الصغيرة، كانت محطة لاغالا تحظى بسحرٍ خاصٍّ فعلاً وتمنح جوّاً لطيفاً للحياة. ترك الرجلان السيارة في أحد الشوارع الرئيسية وقطعا ما تبقى من المسافة سيراً على الأقدام.

كان ناتان مستعجلاً الوصول. رغم جرحه، تقدّم بإيقاعٍ ثابتٍ، متبوعاً بغاريت.

- حسناً، هلاّ استعجلت؟ صرخ وهو يلتفت إلى الوراء.

كان غودريش قد توقّف ليشتري صحيفة، وكالعادة استغلّ ذلك ليجري محادثة مختصرة مع البائع.

دائماً يهتمّ بأحدٍ ما، حتى بشخصٍ مجهولٍ تماماً! هذا الرجل عجيب.

وصل غاريت إلى جانبه:

- هل رأيت الأسعار قليلاً؟ قال وهو يشير إلى واجهة مكتبٍ عقاري.

كان الطبيب محقّاً: في السنوات الأخيرة هذه، كانت أسعار التأجير قد ارتفعت ارتفاعاً شديداً في هذه الزاوية من البلاد. ولحسن الحظّ، لم تعانِ مالوري من نتائج ذلك، لكونها كانت تقيم في بيتٍ اشترته جدّتها حينما لم تكن لاغالا سوى قرية للصيادين لا تثير اهتمام أحدٍ.

وصلا إلى جانب بيتٍ صغيرٍ خشبيّ.

- لقد وصلنا، قال وهو يلتفت إلى الطبيب.

على الباب، ثُبّتت لافتة.

منزلٌ محظور على الحيوانات.

دقّ ناتان الباب وقلبه يخفق.

- عجباً، ها هو العجوز الطيّب ديل آميكو.

ڤينس تايلر!

كان قد تحسّب لكلّ شيء، إلا أن يفتح له ڤينس تايلر الباب.

طويل القامة، وشعره أشقر وطويل بعض الشيء، وسماره تامّ، أفسح له المجال ليدخل، مفرجاً عن ابتسامة أبانت أسنانه المنظّفة حديثاً.

ماذا يفعل هنا في عزّ النهار؟ أين بوني ومالوري؟

حاول ناتان أن يخفي ضيقه وهو يقدّم غاريت لتايلر.

- لن تتأخّر ابنتك في المجيء، إنّها عند زميلتها.

- ومالوري معها؟

- كلاّ، لوري في الطابق العلوي، إنّها تحضّر نفسها.

لوري؟ لم ينادِ أحدٌ قطّ زوجته لوري. لم تكن تحبّ تصغير الأسماء ولا الألقاب.

لم تكن لناتان سوى رغبة وحيدة: رؤية زوجته. ومع ذلك تردّد في أن يصعد مباشرةً إلى غرفتها لأنّه لم يكن متأكّداً تماماً من أنّ مالوري ستستحسن ذلك. كان من الأفضل أن ينتظرها هنا.

وكأنّما ليغيظه أكثر، أوضح تايلر:

- سأصطحبها لتناول الكركند في كراب كاتشر.

كان كراب كاتشر مطعماً فاخراً في روسبيكت ستريت يطلّ على المحيط.

مطعمنا المفضّل، فكّر ناتان، هناك حيث طلبتها للزواج، هناك حيث كنا نحتفل بأعياد ميلاد بوني...

حينما كان ناتان طالباً، كان يوفّر أسبوعاً بعد آخر ليتمكّن من دعوة مالوري إلى مكانٍ مماثل.

- أَلَم تكن نادلاً هناك، سابقاً؟ تظاهر تايلر بأنّه يتذكّر.

حدّق ناتان في عيني الكاليفورني، عاقداً العزم على ألا يتنكّر لأصوله.

- هذا صحيح، كنتُ أمضي غالباً عطلي الصيفية في جزّ المرج والعمل نادلاً. وإذا كان لهذا أن يسعدك، أتذكّر أيضاً أنني كنت أمسح سيارتك حينما كنتُ أشتغل في محطّة غسل السيارات.

بدا تايلر أنّه لم يتوقّع ذلك الردّ. جلس في الأريكة، أخذ راحته وهو يرتشف بهدوء كأساً من الويسكي. كان، بقميصه المفتوح واسعاً تحت سترة كحلية اللون، العلامة الزائفة الوحيدة في الغرفة. كان يمسك بين يديه نشرة إعلانية للمطعم ويدقّق في لائحة أنواع النبيذ:

- . . . بوردو، سوتيرن، كيانتي: أعشق كلّ أنواع نبيذهم الفرنسي. . .

- الكيانتي نبيذٌ إيطاليّ، أبدى غودريش الملاحظة.

أحسنت، يا غاريت.

- لا يهمّ، قال تايلر محاولاً كظم غيظه.

استغلّ ذلك ليغيّر النقاش:

- المهمّ، كيف تسير الأمور في نيويورك؟ هل تعرف آخر شيء عن زملائك.

وأخذ يروي نكتة مبتذلة عن المحامين.

- إذاً، ها هي: لدى العودة من مؤتمرٍ قانوني، تعرّضت حافلة مليئة بالمحامين لحادث سير في مزرعة. . .

لم يكن ناتان قد سمع تلك النكتة أبداً من قبل. تساءل إلى أي مرحلة وصلت العلاقة بين مالوري وفينس. ظاهرياً، كانت العلاقة مع هذا الأبله تبدو مؤكّدة. حتى الآن، لم يضطرّ لأنّ يوسوس كثيراً بسبب العدائية المعلنة من قبل بوني حياله. ولكن كيف سيكون الحال بعد وجبة مع جلسة حميمية في مطعم كراب كاتشر؟

قلّب المحامي عبثاً المشكلة مئة مرّة في ذهنه، فلم يفهم الجاذبية

التي يمكن لهذا الرجل أن يمارسها على امرأة ذكية مثل مالوري.

كان كلاهما يعرفانه منذ زمنٍ طويلٍ بما يكفي لأن يدركا أنّه كان متعجرفاً ودعياً. خلال فترة حبّهما، غالباً ما تكلّما معاً عن تايلر. آنذاك، كان الحديث عموماً للسخرية من محاولاته غير الحاذقة للتقرّب إلى مالوري. ولكن، حتى في تلك الفترة، كانت زوجته تجد له الأعذار أحياناً مذكّرة بمزاجه الرائق المنفتح ولطافته.

لم يكن ناتان قد اختبر طيبة القلب المزعومة هذه ولكنه كان يعلم بالمقابل أن بوسع تايلر أن يخدع. كان رجلاً لعوباً بالولادة نجح أحياناً في إخفاء ادّعائه خلف طيبة قلبٍ خدّاعة.

ومؤخّراً، كشف على قوله عن شعورٍ اجتماعي بتأسيسه مؤسّسة مخصّصة لتقديم قروض إلى جمعيات مساعدة الطفولة. وقد سمّاها *Tyler Foundation*.

يا له من تواضع!

كان ناتان يعرف جيّداً أنّ وراء هذه الموجة الخيرية تختفي بشكلٍ خاص رغبة في الحصول على منافع مالية وفي نيل رضا مالوري.

عصفوران بحجرٍ واحد، كما يُقال.

تمنّى فقط ألاّ تكون زوجته قد خُدِعت.

أكمل تايلر نكتته:

- ... هل أنت متأكّد من أنّهم جميعاً كانوا موتى حينما دفنتهم؟ سأل الشرطيّ. وأجاب المزارع: زعم البعض أن كلا، ولكنك تعرف جيّداً أنّ المحامين كذّابون حقراء! وانفجر الكاليفورني آنذاك في قهقهة.

- اعترف بأنّها ليست سيّئة أبداً، أَليس كذلك يا ولدي؟

- لستُ ولدك، ردّ ناتان بحدّة، عازماً على أن يصدمه بعنف.

- دائماً نزِق، ديل آميكو، أليس كذلك؟ هذا ما قلته البارحة مساءً للوري حينما. . .

- زوجتي تُدعى مالوري.

بالكاد أنهى جملته حينما أدرك ناتان أنّه وقع في الفخّ.

- لم تعد زوجتك، يا ولدي الصغير، ردّ تايلر في الحال.

كان يضمر في كلامه استهزاءً لم ينطلِ على المحامي. ثمّ اقترب منه وهمس في أذنه وكأنّه ليحرّك السكين في الجرح:

- لم تعد زوجتك وتكاد تكون زوجتي.

في هذه اللحظة، أدرك ناتان أنّه لكي لا يفقد مكانته، لم يعد له سوى أن يوجّه قبضته إلى وجه تايلر. طوال حياته، لم يسمح أن يُهان من قبل أشخاصٍ بهذه الطريقة. كان سيقدم على الخطوة، وإن كان ذلك تصرفاً غير صائب وغير لائق، وإن كان ذلك سيبعده أكثر عن زوجته. أدرك، بغرابة، أنّ أمراً تافهاً كان كافياً لكي يترك المحامي الكبير في بارك آڤينيو مكانه لابن الخادمة الإيطالية، للصبيّ الشرير الذي، للدفاع عن نفسه، لم يكن يتردّد في توجيه اللكمات في شوارع كوينس حينما كان فتيّاً. يستعيد المرء سريعاً ماضيه، حتى وإن عمل طوال حياته على الابتعاد عنه. انفتح باب المدخل وظهرت بوني، قاطعة على الفور فورة غضبه.

- *Buenos días*[1]

قالت مبتهجةً وهي تدخل الغرفة.

كانت لاغولا تقع على بعد أقلّ من عشرين كيلومتراً عن الحدود المكسيكية، وكانت بوني تتسلّى غالباً بترطين بعض الكلمات الاسبانية التي تسمعها في الشارع أو في المدرسة.

---

(1) صباح الخير، بالاسبانية.

وصلت ابنته وفجأةً أصبح وكأنّ كلّ الحقد والغضب المتراكم ضدّ تايلر قد تلاشى. جاءت ابنته ولم يعد يهمّه أي شيء آخر.

ارتمت بوني بين ذراعيه. رفعها نحو السقف ودار بها.

كانت ترتدي ثياباً ملوّنة أظهرت جيّداً سمارها الجميل وكذلك طاقية بيروفية تنزل حواشيها الجانبية على أذنيها. كانت، بهذا الزيّ المضحك، مسلّية حقاً.

- لم يعد ينقصك سوى بونشو[1] وتصبيحن جاهزة لترافقي قطيعاً من اللامات[2] عبر سلسلة جبال الأنديز، قال وهو يضعها على الأرض.

- هل يمكنني الحصول على واحدة منها في عيد الميلاد؟ سارعت في السؤال.

- بونشو؟

- كلا، لامة.

- كانت مزحة، يا عزيزتي، قال صوتُ مالوري.

استدار ناتان. كانت مالوري تنزل درجات السلّم وهي تجرّ خلفها حقيبة سفر بوني.

قالت له خلسةً صباح الخير. قدّم لها غاريت على أنّه جرّاح شهير عائد من مؤتمرٍ في سان فرانسيسكو وتربطه به علاقة عمل. مندهشة بعض الشيء، حيّته هذه المرّة بلطف.

- لقد تأخّرنا كثيراً، قالت وهي تلقي نظرة ظاهرة على ساعة يدها.

---

(1) معطف في أميركا الجنوبية مصنوع من غطاء مثقوب الوسط لإخراج الرأس منه. (المترجم)

(2) لامة: جمل أميركا. (المترجم)

هذا هو الأمر! وكأنك لستِ معنية تماماً بالوصول في الوقت المحدّد إلى المطعم!

قرّر ناتان ألاّ يعارضها. فهذا لن يجدي في شيء وآخر ما كان يرغب فيه هو أن يتشاجر معها أمام ڤينس. اكتفى بالردّ باللهجة نفسها:

- ونحن كذلك ليس لدينا وقت، فطائرتنا ستقلع بعد ساعة.

- هل ستمرّون بلوس أنجلس؟ سألت وهي تشغّل جهاز الإنذار.

أكّد ناتان ذلك.

خرج ڤينس أوّلاً وهو يهزّ مفاتيح سيارته وسار في إثره الجميع.

في الخارج، بدأت السماء تكفهرّ. وشعروا بأنّ العاصفة وشيكة. أغلقت مالوري الباب من ورائها، قبل أن تقبّل ابنتها وتحضنها مطوّلاً.

- رحلة سعيدة ولا تنسَ أن تتّصل بي حينما تصلون إلى نيويورك!

ابتعدت، سالكة الطريق نحو سيارة ڤينس البورش، المركونة بعيداً بعض الشيء.

- *Hasta luego!*[1]، قالت بوني وهي تلوّح بقبّعتها البيروڤية.

استدارت مالوري نحوها لتلوّح لها بإشارة صغيرة. لم تبحث مرّة واحدة عن نظرة ناتان.

- «صحّتين وهناء»، صرخ قائلاً لها بالفرنسية، واضعاً في صوته كلّ ما شعر به من مرارة وحزن.

لم تردّ بشيء.

أمسك ناتان بيد بوني ونزلا على طول الرصيف وهما يتبعان غاريت الذي استولى، عنوة، على حقيبة السفر.

---

(1) إلى اللقاء.

أقلعت البورش بصخب واتّجهت نحوهم. وكأنّه يتحدّاه، استغلّ تايلر ذلك ليسير قريباً جدّاً من المحامي. نوعٌ من الحماقات التي يلجأ الرجال إليها أحياناً لاختبار قوّتهم...

جالسة على المقعد الجانبي، كانت مالوري قد انحنت لتأخذ شيئاً ما من حقيبة يدها ولم تنتبه لمناورة تايلر. ولا سيما أنّ هذا الأخير قد وجّه، بعد ذلك مباشرةً، إشارة من يده إلى المحامي.

الأبله القذر، فكّر ناتان وهو يرى السيارة تبتعد.

مطار سان دييغو الدولي

«سيّداتي، سادتي، ركاب رحلة الخطوط الجوية المتّحدة 5214 المتوجّهة إلى لوس أنجلس، يرجى التوجّه إلى البوابة رقم 25، الرجاء التزوّد ببطاقة السفر ووثيقة إثبات الهويّة.»

مع ذلك النداء، قام حوالى أربعين مسافراً كرجلٍ واحدٍ من المقاعد المعدنية ليشكّلوا صفّاً مزدوجاً أمام مكتب المغادرة. سيكونون أوّل الصاعدين إلى الطائرة.

من بينهم، كانت بوني تستمع إلى الموسيقى من جهاز MP3 وتهزّ رأسها على إيقاع أوتار كمان هيلاري هان. كان غاريت يقضم لوحه الخامس من الشوكولا، وبدا ناتان، تائه النظرة خلف زجاج نوافذ الطائرة، مهتماً بالنشاط الكثيف للطائرات الذي ينظّمه المراقبون الجويّون.

منذ بضع دقائق، اجتاحه شعورٌ داخليّ مشؤوم: وماذا لو لم يرَ مالوري ثانية؟ لا يمكن لحكايتهما أن تنتهي بهذه الطريقة. كان عليه أن يلتقي زوجته، على الأقلّ للمرّة الأخيرة.

كان لقاؤه بمالوري أفضل ما قد يحدث له على الإطلاق. كان قد

فات الأوان لكي يستفيد من فرصة ثانية ولكنّه كان قد حظي على الأقلّ بالحقّ في أن يقول لها إلى اللقاء من دون أن يسمع تهكّمات ڤينس تايلر خلف ظهره.

مدّ غاريت بطاقة سفره إلى المضيفة. سحبه ناتان من كمّ سترته.

- لن أغادر، قال ببساطة.

- تريد العودة إلى هناك؟

- يجب أن أراها للمرّة الأخيرة. يجب أن تعرف...

قاطعه غودريش:

- افعل ما عليك فعله، صرّح بلهجة محايدة.

- سأصطحب بوني.

- دعها معي، إنّها لا تخاف شيئاً برفقتي.

أفسحا المجال لمرور المسافرين الآخرين الذين نفد صبرهم.

انحنى ناتان ليكون على مستوى ابنته. رفعت بوني سمّاعتيها وابتسمت له.

- اسمعي، عزيزتي، نسيت أن أخبر ماما بأمرٍ، ولذا أعتقد أنّنا سنسافر، أنتِ وأنا، في الرحلة التالية.

رفعت الفتاة الصغيرة عينيها نحو غودريش. وقد شعرت، وهي الفزعة، في الحال بالأمان مع ذلك العملاق. تردّدت قليلاً ثمّ اقترحت:

- ربّما يمكنني العودة مع غودريش؟

فوجِئ ناتان كثيراً بردّ فعلها. مرّر يده عبر شعرها.

- هل أنت متأكّدة من أنّك ستكونين بخير، عزيزتي؟

- *Muy bien*

أجابت وهي تعانقه.

ثبّت ناتان نظرته في نظرة غودريش. هناك القليل من الأشخاص على وجه الأرض قد يعهد بابنته إليهم، ولو لساعات، وكان الطبيب أحدهم بلا شكّ.

نعم كان يثق بغودريش، ورغم القدرة المرضية بعض الشيء لهذا الأخير، ستكون بوني في أمانٍ برفقته. في كلّ الأحوال، لم يكن المبشّر هنا من أجلها وإنّما . . . من أجله هو.

- لن تخشى شيئاً برفقتي، كرّر غودريش. لا تنسَ: أنا ضمانة حياة.

لم يستطع ناتان كتم ابتسامة. أخرج من جيبه تذكرة بوني لتسليمها إلى الطبيب.

- سأتدبّر أمري لأحظى بمكانٍ في الرحلة التالية، قال وهو يشقّ طريقه بين الحشد في الاتجاه المعاكس.

- تعالَ وخذها من المركز، أخبره غودريش صارخاً. لا تقلق. سأتكفّل بكلّ شيء.

خرج ناتان جرياً من منطقة الإقلاع. انطلق إلى خارج المطار، استدعى سيارة أجرة وطلب من السائق التوجّه نحو لاغولا.

20

من دون أدنى شك، هناك تشابه بين الصداقة والحبّ.
بل سنقول عن الحبّ إنّه جنون الصداقة.

سينيك

كان المطر يهطل مدراراً.

قَرَع الباب ولكن مالوري لم تكن قد عادت بعد.

من الطرف الثاني من الشارع، راقب السيارات النادرة التي تسلك ذلك المعبر الضيّق لتصل إلى الشارع الرئيسي.

يا للعنة، إنّه طوفان حقيقي! ولم يكن هناك مكانٌ يلوذ به. وكان من العبث التفكير في الاحتماء تحت إحدى شرفات البيوت المحيطة. كان أهل المنطقة معروفين بأنّهم يستدعون الشرطة لأيّ شخصٍ مشتبه فيه. وبالتالي كان من الأفضل له ألاّ يفضح نفسه، مع احتمال أن يجد نفسه مبلّلاً حتى العظم.

حلاوة الحياة في كاليفورنيا، تقول! فكّر وهو يعطس بصخب.

شعر بأنّه كان غبياً وبائساً، خاضعاً لسطوة الموت الذي يثقل كاهله.

ماذا أفعل هنا؟

ربّما لن تعود مالوري خلال النهار، أو ستكون عند عودتها برفقة

تايلر. في كلّ الأحوال، كان يعلم بأنّها، وإن كانت وحدها، لن يكون لديها ما تقدّمه له سوى اللامبالاة والانفصال.

اللعنة! كان مبلّلاً بالكامل. ويرتعش برداً. لم يشعر قطّ بهذا القدر من الإخفاق في حياته.

في اللحظة التي تضاعفت فيها شدّة المطر، توقّفت البورش على الفور أمام البيت الصغير.

غضّن ناتان عينيه. من مكانه، لم يميّز شيئاً يُذكَر ولكنّه شعر بأن لا مالوري ولا تايلر نزلا من السيارة. وكأنّهما كانا يتباحثان في أمرٍ. بل ربّما كانا... يتعانقان؟

حاول أن يقترب قليلاً، ولكن الستار المطري كان يحمي قمرة السيارة من النظرات الفضولية. بعد دقيقتين أو ثلاث، خرجت مالوري من السيارة، وبدت متردّدة للحظة ثمّ توجّهت راكضة نحو الدار.

فابتعدت السيارة بأقصى سرعة، ملطّخةً كلّ شيء في طريقها.

بعد لحظة من ذلك، اشتعلت المصابيح تباعاً في البيت، مظهرةً شبح مالوري خلف الستائر المصنوعة من النسيج الموصلّي.

شعر بأنّه وحيد وضعيف وحائر. هو الذي كان يتباهي بأنّه رجلٌ نشيط، وجد نفسه الآن مشلولاً تماماً. هل كان هناك أدنى معنى لرغبته في أن يقول لهذه المرأة إنّه لا يزال يحبّها؟

فجأةً، انفتح الباب ورآها تتقدّم إلى وسط الشارع، وكأنّها مخطوفة بالستار المطري.

ماذا دهاها لتعاود الخروج دون مظلّة؟ تساءل.

في اللحظة نفسها، شُقّت السماء ببروقٍ ودوّى الرعد.

استدارت حول نفسها، وهي تنظر في كلّ الاتجاهات، ثم صرخت:

ناتان؟

فاحت رائحة القرفة من الشموع.

كان قد نزع قميصه وأخذ ينشّف بعنف نفسه بمنشفة.

كان الجوّ الحزين والماطر يعزّز أكثر الروح المضيافة لمنزل مالوري. تزيّن الزهور والألوان كلّ زاوية من الصالون. لاحظ غياب شجرة الميلاد وزينة العيد ولكن ذلك لم يفاجئه: لطالما أثار عيد الميلاد شعوراً بالهمّ عند زوجته.

علّق سترته وسرواله على علاّقةٍ ووضعهما فوق جهاز أنابيب التدفئة. ومن ثمّ لفّ نفسه بغطاءٍ سميك قبل أن يغوص في كومة المخدات المتعددة الألوان الملقاة على الأريكة. أزعج، بذلك، هرّاً مخطّطاً كان يخلد إلى قيلولته. غير راضٍ من أن يُزعَج في مأواه الوثير، أطلق الحيوان مواءً عدائياً.

لم يكن قطّاً فارسياً ولا سياميّاً وإنّما قطّاً ذكراً ضخماً كان قد تاه في المنطقة وآوته مالوري ليكون رفيقاً لأرنب بوني.

- مرحباً، يا أنت، لا تخف.

أمسك به المحامي بمهارة ليضعه إلى جانبه. بعد بضع مداعبات لأسفل جمجمته، وافق القطّ أن يتقاسم منطقته وأظهر رضاه بهريرٍ مطوّل. استقرّ ناتان في وضعية مريحة أكثر، تاركاً نفسه يتهدهد بالصخب المنتظم للقطّ، ثمّ شعر بأنّه متعبٌ جدّاً بحيث أغمض عينيه بدوره.

في الخارج، تضاعفت شدّة العاصفة واخترقت بروقٌ متواصلة السماء في دويّ متوعّد.

كانت مالوري تعدّ القهوة في المطبخ.

أدارت الراديو الذي بثّ في صوتٍ خفيفٍ أغنية قديمة لفان موريسون كانت تحبّها كثيراً.

كان الباب يطلّ على الصالون. مالت جانباً لتنظر إلى ناتان خلسةً. لمحت أنّه قد أغمض عينيه وقد غمرت وجهه مسحة حنان تماماً مثلما كانت تنظر إليه في الماضي وهو نائم.

كيف شعرت بوجوده، في الحال، حتى من دون أن تعرف أنّه لم يستقلّ طائرته؟ لن تفهم ذلك أبداً. هكذا جرى الأمر. دفعتها قوّة سحرية فجأةً إلى الخروج تحت المطر لكي تلتقي ناتان. كانت على يقين بأنّه سيكون هناك، بانتظارها، في الجانب الآخر من الشارع. لم تكن تلك المرّة الأولى التي تحدث فيها ظاهرة كهذه. حالها كحال زوجها، لم تكن على إيمان دينيّ عميق. مع ذلك، كان بينهما نوعٌ من العلاقة الروحية المطمئِنة والغامضة في آنٍ واحد والتي لم تتحدّث عنها مع أيّ شخص خشية أن تبدو مضحكة وكانت تمتد إلى طفولتهما.

نظرت إليه من جديد. لماذا عاد؟ سبق لها أن احتارت هذا الصباح في أمر ذلك الطبيب الجرّاح الذي كان يرافقه وبدا لها على نحوٍ غامضٍ أنّ شيئاً ما ليس على ما يُرام. هل ناتان مريض؟ في الأيام الأخيرة، على الهاتف، شعرت لمرات عديدة بما يشبه القلق في صوته والآن، تحت المطر، قرأت الخوف في نظرته.

كانت تعرف جيّداً الرجل المستلقي في أريكتها. تعرفه كما لم تعرف قط شخصاً على وجه الأرض. وبقدر ما تتذكّر، لم يكن أيّ شيء على الإطلاق قد أخاف ناتان ديل آميكو.

شتاء 1984

مطار جنيف

مالوري تنتظر في قاعة الوافدين.

تحادثا للمرّة الأخيرة قبل ثلاثة أيام واليوم تتهيّأ لقضاء عيد

ميلادها العشرين وحيدة، في هذه المؤسسة التي تبعد عن بلدها ستة آلاف كيلومتر.

طلبت منه الآتي: كانت رحلة نيويورك - جنيف باهظة الثمن وكانت تعلم جيّداً أنّه لا يملك المال وأنّه يعاني من ذلك. بالطبع، كان سيمكنها أن تساعده في دفع ثمن التذكرة ولكنّه ما كان ليقبل أبداً. ومع ذلك جاءت تترقّب وصول طائرة الخطوط الجوية السويسرية. فقط لكي إن حدث و...

مرتجفة ومضطربة، دقّقت في المسافرين الأوائل الذين بدأوا بالنزول من الطائرة.

قبل بضعة أشهر، في حين اعتقدت جازمة أنّها قد تخلّصت من المأزق، عادت وانتكست. ولم تسعفها لقاءاتها الجديدة مع ناتان في شيء. وقد اصطدم حبها الوليد بالكثير من الأشياء: معاداة والديها، الحواجز الاجتماعية، البعد الجغرافي... بحيث إنّها تركت نفسها تنحف من جديد إلى حدّ أنّها لم تعد تزن أكثر من أربعين كيلوغراماً.

في البداية، نجحت دون عناءٍ كثير في إخفاء فقدان وزنها عن والديها وعن ناتان. حينما عادت إلى البيت في العطلة الصيفية، استطاعت أن توحي بأنّها في صحّة جيّدة. ولكنّ أمّها لم تتأخّر في ملاحظة تغيّرها. فتصرّف والداها كعادتهما: تجنّب أنصاف الحلول وتفضيل حلّ جذري سينهي، كما اعتقدا، المشكلة.

وهكذا نزلت في تلك العيادة السويسرية، وهي مؤسسة مكلفة جداً، متخصّصة في الأمراض النفسية عند المراهقين. انقضت ثلاثة أشهر بالضبط وهي في هذا البيت السيئ المخصّص للراحة. كانت تشتكي منه ولكن، موضوعياً، لا بدّ من الاعتراف بأنّ العلاج فيه كان فعّالاً إذ إنّها بدأت تأكل بشكلٍ طبيعي وتستعيد جزءاً من طاقتها. ومع

ذلك كان كلّ يوم من أيامها بمثابة معركة دائمة، صراع مع القوّة المدمّرة التي كانت تسري في داخلها.

شرح لها جميع الأطباء أنّ رفضها تناول الطعام يعبّر عن معاناة ينبغي عليها أوّلاً تحديد نوعها إن أرادت الشفاء.

ولكن هل كان ذلك حقّاً معاناة؟

نعم، يمكننا بالتأكيد رؤية الأمور بهذه الطريقة. أوه! لم تكن طفولتها شاقّة ولم تتعرّض لصدمة نفسية واضحة. كلا، كان ذلك شيئاً أكبر من ذلك، إحساسٌ يسكنها منذ الطفولة ويزداد ضغطاً عليها كلّما كبرت.

كان يمكن لهذا أن يحدث في أيّ وقت، وفي أيّ مكان. في الشوارع الواسعة مثلاً، حينما كانت تتنزّه مع صديقاتها لتجول على المتاجر الأنيقة للمدينة. كان يكفيها المرور من أمام المشرّدين الذين ينامون في صناديق الكرتون تحت الثلج. وفي كلّ مرّة، كان الأمر ذاته: لا أحد يعيرهم انتباهاً. لا أحد يلاحظهم حقّاً. ولكنّها هي، مالوري، لم تعد ترى غير هذا: هذه الوجوه المحترقة بالبرد والتي تفرض نفسها عليها، في حين أنّها كانت تبدو شفّافة للآخرين. كيف سنندهش بعد هذا من أنّه يشقّ عليها الاهتمام بسخافات الحياة! كانت مدركة تماماً أنّها متميّزة وكانت تتعذّب بنوعٍ من الإحساس بالذنب جعل هذا التجاور بين الرخاء والبؤس أمراً لا يُطاق بالنسبة لها.

شارف نزول الركاب على نهايته الآن. نزل آخر المسافرين من السلّم الآلي بعد المرور بقسم الجمارك.

شبّكت أصابعها بشدّة.

إذا كانت قد عاودت تناول الطعام، فهذا في جزءٍ كبيرٍ من أجله: فعلاقتها مع ناتان تشكّل مرساة حياتها، ختم سعادة ترغب في الحفاظ عليه بأيّ ثمن.

حينما بدأت تفقد الأمل، ظهر فجأة فوق الدرجات. كان هو حقّاً، مع قبّعة اليانكيين التي يضعها على رأسه والكنزة الصوفية المحلزنة السماوية اللون التي أهدته إياها بمناسبة عيد ميلاده.

ولأنّه لم يتوقّع أنها تنتظره، لم يتكبّد عناء النظر من حوله. لم تؤشّر له في الحال، تاركة إياه يتّجه نحو السجّاد الآلي الذي ينقل الأمتعة.

ثمّ تجرأت على الصياح لتناديه.

استدار، وتفاجأ فعلاً، وضع حقيبته ليقبل نحوها ويعانقها بهياج.

استرخت بين ذراعيه، مستمتعة تماماً بتلك اللحظة الثمينة. دسّت رأسها برهافة في تجويف كتفه، وهي تشمّه كعطرٍ مسْكِر. منتعشة بعناقه، لدقيقة كاملة، أغمضت عينيها وبدا لها أنها تستعيد روائح طيّبة لطفولة لم تشهد العذابات وصعوبة الحياة.

- كنتُ أعرف جيّداً أنك ستأتي بحثاً عنّي حتى في آخر الدنيا، قالت مازحة، قبل أن تقبّله قبلة صغيرة.

نظر إلى عينيها وقال بلهجة احتفالية:

- بل سوف أذهب أبعد من ذلك، أبعد من نهاية الدنيا...

في تلك اللحظة بالضبط، عرفت بيقين أنّه رجل حياتها.

وأنّه سيبقى كذلك إلى الأبد.

- لم أسمعكِ وأنتِ تأتين، غمغم ناتان وهو يفتح عينيه.

وضعت فنجاناً من القهوة الساخنة على طاولة خفيضة من الخشب الطبيعي.

- وضعتُ بنطالك على النشّافة. سيمكنك أن تلبسه بعد قليل.

- شكراً.

كانا مرتبكين، بلا معالم، كعاشقين قديمين معروفين جيّداً في ما مضى قبل أن يفترقا بسبب صروف الحياة.

- ما هذه الأمتعة؟ سأل وهو يشير إلى حقيبتي سفر موضوعتين قرب المدخل.

- لقد طُلِب منّي المشاركة في مؤتمرٍ تحضيريّ للمنتدى الاجتماعي في بورتو أليغري. رفضتُ في البداية بسبب بوني ولكن بما أنّك أخذتها مبكراً...

- ماذا! ستسافرين إلى البرازيل؟

- فقط لثلاثة أو أربعة أيام. وسوف أعود من أجل عيد الميلاد.

فتحت مالوري إحدى الحقيبتين وأخرجت من داخلها شيئاً ما.

- تفضّل، البس هذه وإلاّ ستموت برداً، قالت وهي تمد إليه قميصاً رياضياً مكويّاً. إنّه قديم ولكنني أعتقد أنّه لا يزال يناسبك.

نشر القميص وعرف أنّه القميص الذي كان يرتديه في المساء الشهير حيث مارسا الحبّ لأوّل مرّة. كان ذلك منذ زمنٍ طويل.

- لم أكن أعلم بأنّك قد احتفظتِ به.

لكي لا تدع الانزعاج يسود، أخذت وشاحاً مطروحاً على الأريكة وتغطّت به.

- بررر... صحيحٌ أنّ الجوّ ليس حارّاً، ارتعشت.

توارت لبضع ثوان، قبل أن تأتي وفي يديها زجاجة تيكيلا مكسيكية.

- هذه إحدى الوسائل المفضّلة لنتدفأ. واصلت كلامها وهي تقدّم له كأساً.

للمرّة الأولى منذ مدّة طويلة، رأى ابتسامة على وجه زوجته موجّهة له.

- *A tu salud!*، كما تقول بوني.
- *A tu salud!*، ردّ ناتان.

تصادم الكأسان ثمّ، كما يقتضي التقليد، ازدردا الكحول جرعة واحدة. سحبت نحوها طرفاً من غطائه وجلست إلى جانبه في الأريكة. وضعت رأسها على كتفه قبل أن تغمض عينيها.

- لقد مضى وقتٌ ليس بقصير ولم نتحادث، أليس كذلك؟

كان المطر يواصل هطوله، وهو يضرب البلاط ويترك خيوطاً شاقولية طويلة على زجاج النوافذ.

- قل لي ما يقلقك.
- لا شيء، كذب ناتان.

قرّر ألاّ يكلّمها عن المبشّرين. كانت تلك الحكاية منافية للعقل كثيراً، إلى حدٍّ فوق طبيعي. قد تعتبره مالوري مجنوناً وتقلق لتركه بوني بين يدي غودريش.

ولكنّها ألحّت:

- لا يبدو عليك أنّك على ما يرام. ممَّ تخاف؟

لم يكذب هذه المرّة:

- أن أخسرك.

هزّت كتفيها بتقزّز.

- أعتقد أنّ كلاً منا خسر الآخر منذ وقتٍ غير قليل.
- يمكننا أن نخسر شخصاً ما بمستويات مختلفة.

رفعت خصلة من الشعر عن وجهها.

- ماذا تعني؟

بدلاً من أن يجيب عن سؤالها، سألها:

- كيف وصلنا إلى هنا، يا مالوري؟

- أنت تعرف ذلك جيّداً.
ترك عينيه تشردان في الفراغ.
- ما كان أيّ شيءٍ سيحدث من دون موت سين.
احتدّت:
- دع سين حيث هو! ما عدتَ ذلك الرجل الذي أحببت، يا ناتان، هذا كلّ شيء.
- الحبّ لا يزول بهذه الطريقة.
- لم أقل إنني لم أعد أحبّك. تأكّدت فقط من أنك ما عدتَ ذلك الرجل الذي أحببته في البداية.
- أنتِ تعرفينني مذ كنتُ في الثامنة! لحسن الحظّ أنني تغيّرت. الجميع يتغيّر.
- لا تتظاهر بأنّك لا تفهمني: دارت حياتك كلّها حول مهنتك. ما عدتَ تهتمّ بي.
- كان عليّ حقاً أن أعمل، دافع عن نفسه.
- لم يكن عملك يرغمك على أن تهين أبي في تلك القضية! لقد فضّلت كبرياءك على زوجتك.
- جيفري هو من سعى إلى ذلك. لا تنسي كلّ ما فعلته عائلتك بأمّي.
- ولكن أنا لستُ عائلتي وأنتَ لم تفكّر فيَّ. لقد ابتعدت عني كثيراً، يا ناتان؛ كنتَ دائماً غير راضٍ، باحثاً عن السعادة التامّة.
حاول أن يبرّر موقفه:
- كنتُ أريد تلك السعادة من أجلنا. من أجلك، من أجل أولادنا...
- ولكنّنا كنا نحظى بتلك السعادة، يا ناتان. لم تكن تشعر بها، ولكننا كنّا نحظى بها! ما الذي كنت تحتاج إليه أكثر؟ المزيد من

المال؟ ولكن لأجل ماذا؟ لشراء سيارة ثالثة وثمّ رابعة؟ لعب لعبة الغولف البليدة تلك في نادٍ فاخر؟

- كنتُ أريد أن أكون جديراً بك. أن أُظهِر أنني قد نجحت.

- هكذا إذن! أن تُظهِر أنّك قد نجحت: الطموح الكبير لناتان ديل آميكو!

- لا يمكنك أن تفهمي. في الوسط الذي ولدتُ فيه...

لم تدعه يكمل.

- أنا أعلم أين ولِدت وكم كان ذلك صعباً بالنسبة لك، قالت وهي توقّع كل كلمة من كلماتها، ولكن الحياة ليست مبارزة ولا حرباً ولست مضطراً لأن تُثبِت نجاحك في كلّ آن.

نهضت متوثّبة من الأريكة.

- مالوري!

حاول أن يستبقيها ولكنّها لم تستجب لندائه. لاذت بالزاوية المقابلة من الحجرة. هناك، وكأنّها تسعى لتهدئة نفسها، أشعلت العديد من الشموع الصغيرة التي تراقصت في كوبٍ زجاجيٍّ عميق حوّلَ إلى ما يشبه مصباح المناجم.

اقترب ناتان منها وحاول أن يضع يديه على كتفيها. تملّصت منه بقسوة.

- انظر قليلاً إلى هذه، قالت وهي تشير إلى نسخة من صحيفة نيويورك تايمز مرمية على طاولة الصالون.

حتى وهي تقيم في كاليفورنيا، ظلّت مالوري مشتركة في اليومية النيويوركية التي كانت تقرأها برغبة مذ كانت طالبة.

أمسك ناتان بالصحيفة في الهواء ونظر إلى العناوين في الصفحة الرئيسية.

أوهايو: مسلّحاً بمسدس، مراهقٌ يقتل ثلاثة أشخاص في مدرسته.

التشيلي: ثوران بركان ينذر بكارثة إنسانية.

أفريقيا: مئات آلاف اللاجئين على الطرقات في إقليم البحيرات الكبرى.

الشرق الأدنى: توتّرٌ جديد بعد هجومٍ انتحاري.

بعد بضع ثوان، سألت بلهجة حزينة جدّاً:

- أيّ معنى لهذه الحياة إن لم نستطع تقاسمها مع شخصٍ؟

تغشّت عيناها بالدموع. كانت تحدّق فيه بغضب.

- ما الذي قد يكون أكثر أهمية بالنسبة لك من أن تقاسمنا حبّك؟

وبما أنّه لم يردّ، استجوبته من جديد:

- لم يطمئنني العيش مع شخصٍ بلا عيوب. كان بوسعك ربّما أن تقرّ بنقاط ضعفك، على الأقلّ أمامي. كان بوسعك ربّما أن تثق بي...

كانت هذه الكلمات تعني: لقد خيّبت أملي كثيراً.

نظر إلى مالوري ملتمع العينين. كلّ ما قالته للتوّ كان صحيحاً. مع ذلك لم يكن يستأهل أن يُلقى بكلّ الدَّور السلبي على كاهله وحده.

- على أيّ حال، أنا حافظتُ على زواجي، قال وهو يلوّح ببنصره. أنا حافظتُ على زواجي في حين أنّكِ، تجاسرتِ على مصاحبة هذا البائس المحدود الذكاء لتناول الطعام في المطعم خاصتنا!

كان لا يزال يلوّح بخاتم زواجه تحت ناظري مالوري بطريقة شبيهة بطريقة محامٍ يُبرِز وثيقة إدانة قاطعة أمام المحلّفين.

ولكنّه لم يكن في إحدى مرافعاته. كان أمام المرأة التي أحبّها وكانت هذه الأخيرة تنظر إليه بهيئة أرادت أن تقول: **لا تبخسني قيمتي في هذا الميدان، لا تلحق بي هذا العار.** بهدوء أخرجت إلى خارج بلوزتها ذات الياقة المطوية سلسلة صغيرة يتدلّى منها خاتمٌ من الذهب الأبيض.

- وأنا أيضاً حافظتُ على زواجي، يا ناتان ديل آميكو، ولكن هذا لا يبرهن أيّ شيء.

الآن، كانت دموعٌ تتلألأ في عينيها. بيد أنّها حاولت أن تكمل ما كان عليها أن تقوله.

- وبما أنّك تريد أن نتحدّث عن ڤينس، اعلم أن ليس له أي علاقة بنا.

ثمّ أضافت وهي تهزّ كتفيها.

- من جهة أخرى، إن كنت لم تفهم بعد أنني أتلاعب بهذا الأبله المسكين، فهذا لأنّك لست حادّ الذهن جدّاً.

- غالباً ما أفقد حدّة ذهني حينما يتعلّق الأمر بكِ.

- أنا أستخدمه. لستُ فخورةً حقّاً بذلك ولكنني أستغله. هذا الشخص يتصرّف بثروة حقيقية وإذا ما استطعت فعل شيءٍ ما لكي يخصّص جزءاً منها لمساعدة الأكثر فقراً، سوف أرافقه إلى كلّ مطاعم الدنيا.

- هذه طريقة وقحة جدّاً في التصرّف، أبدى ملاحظة.

ضحكت ضحكة حزينة.

- «الوقاحة والجرأة هما ركنا البزنس» أنتَ من علّمتني هذا، أيّها المحامي العظيم، أنسيت؟

أخرجت علبة محارم من جيبها ومسحت عينيها. لم يعد يجرؤ

على الاقتراب منها خشية أن يُصَدّ. وبدلاً من ذلك، جال في الحجرة بصمت، فتح النافذة ليستنشق هواءً عليلاً. بدت الغيوم الثقيلة السوداء تسير نحو الشمال.

- يكاد المطر يتوقّف، أبدى الملاحظة لكي يخفّف الضغط.

- المطر لا يعنيني في شيء، ردّت مالوري.

استدار نحوها. كان خدّاها ذابلين وبشرتها شاحبة. أراد أن يخبرها بأنّها كانت دائماً تحتلّ المكانة الأولى في حياته وأنّه سيحافظ عليها إلى الأبد. ولكن كلّ ما وجد ليقوله كان:

- أعرف كلّ هذا، يا مالوري.

- تعرف ماذا؟

- كل ما أخبرتِني به للتوّ: إنّ السعادة لا تختصر على الرفاهية المادية. السعادة هي قبل كلّ شيء التقاسم: تقاسم المسرّات والمرارات، تقاسم السقف نفسه والعائلة ذاتها... أعرف كلّ هذا، الآن.

باعد بين ذراعيه بمثابة عجزٍ وبشّ لها بابتسامة خجولة.

نظرت إليه برأفة. رؤيته على تلك الحالة، جعلتها تفكّر دائماً في الصبي الصغير الذي كانه والذي لم تستطع مقاومته.

تركت ملاماتها جانباً الآن وراحت وتكوّرت على جذعه. ما كان ينبغي أن تجور عليه كثيراً لأنّها كانت تعلم بأنّه بعد موت سين، كان بالنسبة لناتان الانكفاء نحو عمله هو المهرب الوحيد الذي وجده في عذابه. ولم يكن بوسعها أن تلومه على ذلك، حتى وإن كانت تتحسّر على أنّهما لم يجيدا البقاء متّحدين، هما اللذان تقاسما الفجيعة نفسها.

أغمضت عينيها. لم يكن قد غادر بعد ولكنّها كانت تعرف أنها، بعد بضع دقائق، ستشعر على نحوٍ أليمٍ بغيابه.

بالنسبة للبيولوجيين، يقتصر جزءٌ لا بأس به من الشعور الغرامي على مسألة جزيئات ومواد كيماوية تتحرّر داخل الدماغ، محرّضة الرغبة والحبّ. إذا كانت الحال هكذا، فإنّ ظاهرة بهذا الاتّساع كانت تولد بالتأكيد كلّما كانت على تماسٍ به.

أرادت لو أنّ هذه اللحظة تمتدّ على الأقلّ لزمنٍ طويلٍ جدّاً. رغم ذلك، بذلت جهداً خارقاً لتضع حدّاً لها. لم تكن اللحظة مناسبة. كانت مغرمة به ولكنّها لا تزال حانقة عليه بشدّة.

- يجب أن تغادر، وإلاّ ستتخلّف عن آخر طائرة، قالت وهي تتملّص منه.

كان يتواجد الآن على عتبة الباب من دون أن يكون متأكداً من قراره بالمغادرة. كان محرّك السيارة التي استدعاها يدور منذ خمس دقائق.

كيف سيشرح لها أنّ هذا قد يكون آخر وداع، آخر ابتسامة، المرّة الأخيرة التي يتلامس فيها جلداهما؟

- إذا ما حدث لي شيء، أودّ حقاً أن...

- لا تقل أيّ كلاّم، قاطعته.

- هذا ليس أيّ كلام، يا مالوري، تخيّلي أنّ...

- قلت لك إننا ستتقابل ثانية، يا نات. أعدك بذلك.

ولأنّها لم تكن قد كذبت عليه أبداً، سيكون قد أراد أن يصدّقها، حتى هذه المرّة.

وضعت قبلة في قعر يدها ثمّ داعبت بلطف خدّ زوجها. كان سيذهب ويندسّ في السيارة حينما لم يستطع الامتناع عن الالتفاف إلى الوراء ليلقي عليها نظرة أخيرة. النظرة الأخيرة لرجلٍ يخشى أن يفقد إلى الأبد المرأة التي عشقها. العلامة الأخيرة لامتنانٍ من روحٍ حظيت على هذه الأرض بفرصة العثور على نصفها الآخر.

وهي تنظر إليه يبتعد وسط الهواء الذي نقّاه المطر، أمسكت مالوري بالخاتم المدلّى بطرف سلسلتها.

ضغطت على الخاتم بكلّ قواها، وغنّت في ذهنها ما يشبه تعزيماً:

حبّنا محتومٌ مثل الموت.

لن تجيد البحار إطفاءه،

ولن تغمره الأنهار.

21

لو أنّ لي طفلاً، لقلت: لقد ولِدتُ، وتذوّقت
طعم الحياة لأوّل مرّة وتأكّدت من أنّها حلوة
جدّاً بحيث إنّها جديرة بأن نتذوّقها مراراً.

ميلان كونديرا

17 كانون الثاني

- Qué hora es?[1]

سألت بوني وهي تفرك عينيها.

استيقظت الفتاة الصغيرة للتوّ.

- احزري! أجابها والدها وهو يأخذها بين ذراعيه.

عاد ناتان من سان دييغو برحلة الساعة السادسة صباحاً. وقد وافى ابنته النائمة على أريكة في مكتب غودريش. «لقد نامت في وقتٍ متأخرٍ جدّاً»، أوضح له الطبيب. «تأخّرت رحلتنا إلى نيويورك بسبب سوء الأحوال الجوية.»

أخذ بوني التي كانت لا تزال نائمة بين ذراعيه وعادا إلى سان ريمو. وأخيراً نامت في الساعة الثامنة بينما كانت شمس الصباح قد طلعت.

---

(1) كم الساعة؟

حدّقت في ساعة حائط المطبخ وهي غير مصدّقة.

- إنّها الثالثة من بعد الظهر؟

- أجل! يا طفلتي، لقد نمتِ طويلاً.

- لستُ طفلة، دافعت عن نفسها متثائبةً.

- بلى! قال وهو يضعها فوق طاولة خفيضة أمام قدحٍ من الشوكولا الساخنة، أنتِ طفلتي.

- هذه أوّل مرّة في حياتي أستيقظ فيها متأخّرة إلى هذه الدرجة، قالت مازحة وهي تمسك بفطيرة بيغل بالسمسم.

نظر إليها بحنان. كان وجوده معها راحة حقيقية. البارحة، وجدها في هيئة جيّدة، بدت فرِحة ومنشرحة، أقلّ قلقاً بكثير مما كانت عليه خلال العطلة الصيفية المنصرمة. فقد تلاشت صدمة الطلاق. وفهمت أخيراً أنّ انفصال والديها لن يبعدها عن أبيها ولا عن أمّها. وهذا أفضل.

ولكن ما كادت هذه المشكلة تُحلّ حتى لاحت مشكلة أخطر بكثير في الأفق: سوف يُخطَف والدها منها.

كان قلقاً جدّاً بشأنها. هل ستكون قادرة على مواجهة هذه المحنة، المحنة الأصعب التي ستتعرّض لها في بداية حياتها؟ هل هناك طريقة لتهيئة طفلٍ لموت أحد والديه الوشيك؟

فضّل آنذاك أن يطرد أفكاره السوداوية وأن يستمتع باللحظة السعيدة.

- يمكننا الذهاب لجلب شجرة ميلاد، قال معتقداً أن ذلك سيسعدها.

- أوه ياه! مع الكثير من الزينة: كرات ونجوم وشرائط زخرفة تتلألأ في العتمة.

- ثمّ سنذهب لشراء حاجاتنا وسنعدّ لأنفسنا عشاءً لذيذاً.

- هل يمكننا أن نعدّ طبقاً من سلطة المعكرونة العريضة السوداء بالحبّار؟ قالت متوسّلة.

كان ذلك في الواقع طبقها المفضّل مذ أن تذوّقته في أحد مطاعم تريبيكا الذي ذهبا إليه برفقة مالوري وهي صغيرة جداً.

- مع حلوى رائعة. أتريدين أن نعدّ لأنفسنا قالباً كبيراً من الحلوى؟

- بالطبع، قالت وهي تقفز فرحاً.

- ماذا يطيب لك؟

- بومبينك بي[1]، أجابت من دون تردّد.

- هذه حلوى عيد الشكر. ألا تفضّلين حلوى خاصّة بعيد الميلاد.

هزّت رأسها.

- كلاّ، أحبّ فطيرة اليقطين قَطر زيادة، ومع الكثير من جبن المسكربوني، أوضحت وقد سال لعابها مسبقاً.

- إذاً، أسرعي في إنهاء غدائك.

- لا أريد المزيد، قالت وهي تنهض عن المائدة لتأتي وتتكوّر بين ذراعيه.

ضمّته بقوّة، وهي تفرك قدميها العاريتين إحداهما بالأخرى.

- هل تشعرين بالبرد، يا سنجوبتي؟

- نعم، أنا مثجّلة.

كانت فعلاً رائعة في محاولاتها أن تستخدم مفردات معقّدة.

---

(1) فطيرة حلو باليقطين.

- مثلّجة، صحّح لها ضاحكاً. أنتِ فتاة صغيرة مثلّجة ستسرع في الذهاب لترتدي ثياباً دافئة.

لم يكن العثور على المعكرونة العريضة السوداء بالأمر السهل. اضطرا لأن يذهبا إلى مخزن دين وديلوكا. وكان المخزن الفاخر في ضاحية سوهو مكتظّاً بالناس قبل بضعة أيام من عيد الميلاد. تركا الناس يشقّون طريقهم وسط الزحمة ليشتروا بسرعة. أمّا هما، فالأمر سيّان بالنسبة لهما، فلديهما كلّ الوقت.

في برودواي، قارنت بوني على مدى ربع ساعة بين مختلف شجرات التنوب التي يعرضها بائعٍ في الهواء الطلق. حينما اختارت، حمّل ناتان الشجرة الصغيرة في صندوق السيارة الرباعية الدفع قبل التوقّف في متجرٍ في الجادة الثالثة يوجد فيه، حسب قوله، أطيب صنوف الفاكهة والخضار في المدينة كلّها.

هناك، اشتريا يقطينة جميلة ومرطباناً من حساء السمك مستورد من فرنسا، وكان يحمل اسماً غريباً «حساء سيتواز»[1].

في نهاية فترة ما بعد الظهيرة، عادا إلى البيت، جاهزين للانهماك في تحضير الطعام في المطبخ.

بالكاد تخلّصت بوني من دثارها حتى بسطت بتعجّلٍ المقادير على مصطبة العمل في المطبخ: عجينة مقطّعة، يقطين، برتقال، سكر بالفانيليا، محلول اللوز المرّ، جبن المسكربوني، . . .

- هل ستأتي لمساعدتي؟ سألته مبتسمة.

- أنا آتٍ.

نظر إلى ابنته وشعر بانقباضٍ في قلبه. أراد أن يقول لها الآنَ

(1) نسبة إلى مدينة سيت. (المترجم)

تخشى المستقبل، وإنّه حتى وهو ميّت سيكون حاضراً على الدوام لرعايتها وحمايتها.

ولكن ما يدريه؟ ليس من المؤكّد أن تسير الأمور بهذه الطريقة. كان شبه متأكّد أنّه لن يتحوّل إلى ملاكٍ حارس تكون مهمّته حمايتها في المواقف الصعبة.

الحقيقة هي أنّه كان خائفاً. خائفاً من ترك ابنته لقبح العالم الخارجي وصَلَفِه.

اقترب من الطاولة. كانت بوني، مرتدية صدرية كبيرة عليها بثلاث مرّات، قد فتحت كتاب وصفات الطبخ على الصفحة المناسبة وتنتظر بصبرٍ تعليماته.

- هيا إلى العمل!

مدّ ناتان العجينة بالشوبك ووضعه في القالب. ثمّ غطّى كلّ شيء بأسطوانة من ورق الرق التي ملأها بفاصوليا يابسة قبل أن يضعها في الفرن. في الأثناء، كانت بوني قد انتزعت ألياف اليقطين وبذوره. ساعدها في تقطيعه على شكل مكعّبات صغيرة ثمّ أضافت بحذر بضع قطرات من المحلول قبل أن تبتسم له من جديد ابتسامة جميلة ملؤها السرور. وضع ناتان ما تمّ تحضيره على النار ثمّ استغلّ ذلك الفاصل ليطرح عليها سؤالاً.

- هل تتذكّرين حينما مات سين؟

- بالطبع، قالت وهي تنظر في عينيه مباشرةً.

وإن جهدت لإخفائه، لاحظ أنّ ستاراً من الحزن قد غزا الوجه الجميل لابنته. وبذل جهده لكي يكمل.

- آنذاك كنتِ صغيرة جدّاً.

- كان عمري أربع سنوات، أوضحت وكأنّ هذه المدّة تطول لعقدين أو ثلاثة.

- لكي نشرح لك، قلنا لكِ ماما وأنا أشياء مثل «سين في السماء».

هزّت رأسها لتظهر أنّها تتذكّر ذلك.

- في البداية، طرحتِ الكثير من الأسئلة بشأن ذلك. لمرّات عديدة، سألتِني إن كان الجوّ بارداً في السماء. كذلك أردتِ أن تعرفي ما سيفعله أخوكِ الصغير ليتغذّى وإن كان بإمكانكِ أن تزوريه ذات يومٍ هناك في العلا.

- أتذكّر ذلك، قالت بوني ببساطة.

- حسنٌ، لا أدري إن كنّا قد اخترنا الطريقة المثلى لكي نشرح لك ما هو الموت...

- لماذا، ألا نذهب إلى السماء حينما نموت؟

- الحق يُقال، لا أحد يعرف شيئاً عن ذلك، يا عزيزتي.

فكّرت للحظة لتستحضر كلّ المعارف التي استطاعت الحصول عليها حول هذا الموضوع.

- تقول صديقتي سارة حينما نموت نذهب إلى الجنّة أو الجحيم.

- لا ندري، قال ناتان.

ولكنه أدرك أن هذا الجواب لن يرضيها.

- لماذا لا نبحث في الموسوعة؟ سألت بحماسة. تقول لي ماما دائماً يجب أن نبحث في الموسوعة حينما لا نعرف شيئاً.

- حتى الموسوعة لا تعرف هذا الأمر. هذا لغز.

في هذه اللحظة، دوّى جرس الفرن.

أخرج ناتان طبقة العجين المطبوخة لدرجة البياض ورفع عنها الفاصوليا اليابسة.

بخلاف ما كان متوقّعاً، لم تعرض عليه الفتاة الصغيرة مساعدتها.

- هيّا يا بوني، أحتاج إلى مساعدتك. يجب تحضير زينة الفطيرة. أظهري لي إن كنتِ لا تزالين تجيدين تكسير البيض كما علّمتكِ. بسرعة، بسرعة!

انكبّت على المهمّة، متحيّرة في البداية، ثمّ بحيوية أكثر. مزجت البيض مع السكّر. أحسنت التدبير وبعد ذلك بخمس دقائق، استعادت ابتسامتها.

- انظر، إنها مرغية تماماً! صرخت.

- نعم، يجب إضافة اليقطين وعصير البرتقال والمسكربوني.

تقاسما المهام. عصر برتقالة بينما هي أضافت قطع اليقطين.

في لحظة، أرادت أن تتذوّق ما أعدّته ورسم لها العصير شاربين رفيعين برتقاليي اللون.

ذهب ليحضِر آلة تصوير وصوّر كلٌّ منهما الآخر بالتناوب. ثمّ، بيدٍ واحدة، رفع الآلة إلى فوق رأسيهما. فالتصق خدّاهما.

- واحد، اثنان، ثلاثة، هيّا!

أيضاً ذكرى جميلة.

تركها توزّع الزينة على قالب الفطيرة ثمّ ساعدها على وضعها في الفرن.

قرفصت بوني أمام زجاج الفرن لتراقب الفطيرة التي بدأت تنضج. كانت مفتونة جدّاً وكأنّها تشاهد أروع برامج التلفاز.

- اممم... ستكون لذيذة. هل يجب الانتظار طويلاً؟

- حوالى أربعين دقيقة، يا عزيزتي.

وقفت، رفعت أنفها الصغير نحوه وبقيت في تلك الوضعية لبضع

ثوانٍ وكأنّها كانت متردّدة في أن تشاركه أمراً. بعد لحظات، انتهت إلى اتّخاذ قرارها:

- لا تحبّ جدّتي أن أطرح عليها أسئلة عن الموت. تقول إنني صغيرة جدّاً وإنّ هذا الأمر يجلب الشقاء.

- هذه حماقات، يا عزيزتي. هذا فقط لأنّ البالغين يخشون الحديث عن الموت مع الأطفال.

- لماذا؟

- إنّهم يخشون من أن يرعبوهم في حين أنّ عدم الحديث عن ذلك هو بالضبط ما يخيف. يخاف الإنسان دائماً مما لا يعرفه.

فسألت بشكلٍ طبيعي:

- ما الذي يجب أن نعرفه عن الموت؟

فكّر للحظة.

- أوّلاً، أنّ الموت محتّم.

- أهذا يعني أننا لا نستطيع الإفلات منه؟

- نعم، يا طفلتي، الجميع سوف يموتون.

- حتى لارا كروفت؟

- لارا كروفت غير موجودة. تعرفين ذلك جيّداً.

- ويسوع؟

- لستِ يسوع.

- هذا صحيح، قبِلَت، فيما ظلّ ابتسامة يخيّم على وجهها.

- ثمّ، الموت أحاديّ الاتجاه.

حاولت أن تردّد هذه العبارة الجديدة التي لم تكن تعرف معناها.

- «أداحيّ الاتجاه»؟

- أحاديّ الاتجاه، يا عزيزتي.

- هذه عبارة مركّبة تعني أن الإنسان ما إن يموت لا يمكنه أن يحيا من جديد.

- هذه خسارة، قالت، وهي حزينة بصدق.

- نعم، أقرّ بذلك، هذه خسارة. ولكن لا تبالي، لن تموتي الآن. ولا غداً ولا بعد غد.

- متى سأموت إذاً؟

ندم ناتان على أنّه بدأ هذا النقاش. نظرت إليه بوني بعينين واسعتين وكأنّه يستطيع أن يكشف لها كشفاً حاسماً حول مستقبلها.

- فقط حينما تصبحين عجوزاً جدّاً جدّاً جدّاً.

- مع تجاعيد؟

- نعم، مع تجاعيد، وشعرٍ أبيض ووبرٍ في الذقن.

انتزع منها هذا الإيحاء الأخير ابتسامة لم تطل.

- وأنت وماما؟ متى ستموتان؟

- لا تقلقي: ليس اليوم أيضاً. ولكن إن متّ يجب ألا تحزني كثيراً.

نظرت إليه بغرابة.

- إن متّ، يجب ألا أكون حزينة؟ سألته وكأنّه قد أخبرها بسخافةٍ كبيرة.

- بلى، بالطبع، يمكنكِ أن تحزني، ولكن عليكِ ألاّ تندمي على شيء وألاّ تلومي نفسكِ في شيء. هل فهمتِ؟ لن يكون أيّ شيءٍ خطأكِ، تابع ناتان. أنا فخورٌ جدّاً بكِ وبأمّكِ أيضاً. عليك ألا تتحسّري على أنّكِ قد قضيتِ القليل من الوقت معي. قولي لنفسك إنّنا قد قمنا بالكثير من الأمور معاً وإنّ الكثير من الذكريات ستبقى لنا.

- أهذا ما شعرتَ به حينما ماتت أمّك؟

اضطرب ناتان بالسؤال. وبمثابة جواب، قال ببساطة.

- ليس بالضبط، ولكنني حاولت. يجب ألا تخافي من البوح بمشاعرك لمن تحبّين.

- اتّفقنا، أجابت من دون أن تفهم تماماً ما كان يريد قوله.

- لمواجهة موت شخصٍ عزيز، عليكِ أن تتقرّبي ممن تحبين. هم من سوف يساندونك.

- سيكون عليّ أن آتي للقائكما، أنت أو ماما؟

- نعم، أكّد ناتان. سيمكنك على الدوام أن تأتي للقائنا، إذا خفتِ من شيءٍ ما أو أقلقك أمرٌ ما. حتى حينما تكبرين. سيمكنك على الدوام أن تأتي لتجدي أحدنا. وإذا ما متُّ يوماً، لكِ أمّك دائماً. لديك أمّ رائعة وستعرف دائماً كيف تجعلكِ تتجاوزين حزنك.

- ومع ذلك سيكون الأمر قاسياً جدّاً، قالت بصوتٍ مرتعش.

- نعم، وافقها الرأي، سيكون الأمر قاسياً. ستشعرين أحياناً بوحدةٍ موحشة وسترغبين في البكاء وحينها يجب أن تفعلي ذلك لأنّه سيريحك.

- هذا لأنّ الأطفال وحدهم يبكون، قالت معترضة وهي بنفسها كانت على وشك البكاء.

- كلا، الجميع يبكون. أقسم لك بذلك. الناس الذين لا يستطيعون البكاء هم أكثر كائنات الدنيا شقاءً. كلّما رغبتِ أن تشعري بقربي منك، يمكنك الذهاب للتحدّث إليّ في مكانٍ أردنا كلانا أن نكون فيه معاً.

- هل تتحدّث أحياناً إلى سين؟

قال لها الحقيقة، وهو شبه مرتاح لقدرته على فعل ذلك.

- نعم، أواصل الحديث إلى سين وإلى أمّي. يظلّ سين يحيا في قلبي. سيبقى ابني إلى الأبد. ويجب أن يكون الأمر كذلك بالنسبة لكِ. سأظلّ دائماً والدكِ وستظلّ ماما دائماً والدتكِ. حتى وإن كنتُ ميتاً، هذا لا يغيّر في الأمر شيئاً.

- أتذهب إلى المقبرة حينما ترغب في الحديث إليهما؟

- كلا، لا أحبّ المقابر، أذهب إلى الحديقة، في الصباح، باكراً جدّاً، حينما لا يكون هناك أحد تقريباً. أقول للجميع إنني أذهب لأركض لأحافظ على لياقتي، ولكن في الحقيقة أذهب لأكون معهما. على كلّ إنسان أن يبحث عن مكانه. من المهمّ التواصل لكي يبقى الشخص الذي نحبّه معنا طوال حياتنا.

- أتفكّر فيهما كلّ يوم؟

- كلا، كذب ناتان، غالباً ولكن ليس كلّ يوم. شعر باقشعرارٍ يغطّي ساعديه. ثمّ، وهو يخاطب نفسه إلى حدٍّ ما، أضاف وعيناها تائهتان في الفراغ:

- الحياة شيءٌ رائع. شيءٌ نفيس.

قفزت على عنقه ووجدا الراحة متعانقين. في أعماقها، تساءلت عن هذين الأبوين الغريبين اللذين كانا يتحدّثان دائماً خيراً عن بعضهما. لم تستطع الامتناع عن التساؤل لماذا هذه الأمّ الرائعة جدّاً وهذا الأب الودود جدّاً لم يجتمعا كلاهما من حولها في عيد الميلاد. ولكنّها ظنّت أنّ حياة الكبار أمرٌ معقّدٌ وأنّ عليها ألا تتدخّل فيها.

سار تناول الوجبة في مزاجٍ رائق. لم يتطرّقا البتة إلى المواضيع الكئيبة التي لا تُحتَمَل. وإذا كانَ الحساء وسلطة المعكرونة قد نجحا كفايةً، فقد وجدت بوني أنّ فطيرتهما لذيذة، مع كلّ السكّر المجمّد وعصير الفاكهة الحمراء.

خلال السهرة، أخذا الوقت لتزيين شجرة التنوب وهما يستمعان إلى *Children's Corner* لكلود ديبوسي المسلّي كثيراً للفتاة الصغيرة.

في الخارج، كان الثلج يتساقط بصمت.

- لماذا لا تحبّ ماما عيد الميلاد؟

- لأنها تعتقد بأنّ الروح الحقيقية لهذا العيد قد أُفسِدت.

نظرت إليه باستغراب.

- لا أفهم شيئاً مما تقول.

كان عليه أن ينتبه: فابنته لم تكن بالغة. اعتذر لها ثمّ حاول أن يشرح لها شرحاً أوضح.

- في الواقع، ترى ماما أنّ في هذه الفترة من السنة علينا أن نفكّر أكثر في الناس المعذّبين بدل الرغبة الدائمة في شراء الكثير من الأشياء التي لا نحتاج إليها فعلياً.

- وهل هذا صحيح؟ سألت بوني التي لم ترَ كيف يمكنه أن يكون مختلفاً إلى هذه الدرجة في حين أنّ أمّها تعتقد ذلك.

- نعم، هذا صحيح، أكّد. نحن هنا، نحظى بالدفء والأمان، في حين أنّ هناك أشخاصاً آخرين وحيدون، وأنّه لأمرٌ صعبٌ أن يكون المرء وحيداً في حزنه.

- ولكن الآن، ماما وحيدة، أبدت الصغيرة الملاحظة.

- لا بدّ أنّها مع ڤينس، قال ناتان دون أن يكون مقتنعاً بذلك.

- لا أعتقد.

- أهو حدسك الأنثوي ما يجعلك تقولين هذا؟ سأل وهو يغمز لها بعينه.

- بالضبط، ردّت بوني وهي تغمض عينيها معاً.

كان ذلك ما تسمّيه «غمزتها المزدوجة»، وفي الحقيقة، كانت تلك الغمزة الوحيدة التي تنجح فيها.

قبّلها من بين شعرها.

ما إن انتهى تزيين الشجرة، شاهدا معاً على جهاز *DVD* مقطعاً من *Shrek*، الغول الأخضر ذي الأذنين الشبيهتين بالقمع.

ومن ثمّ، عزفت له مقطوعة طويلة من الألحان التي كانت تجيد عزفها على كمانها ثمّ غنّت له بالاسبانية ترجمة ناجحة فعلاً لبيزام ميشو تعلّمتها في المدرسة.

كان ناتان جمهوراً متحمّساً وطالبها مراراً أن تعيد الغناء.

ثمّ حان وقت النوم.

رافقها إلى سريرها وطلبت منه أن يترك ضوء الممر مشتعلاً.

- طابت ليلتك، أيتها السنجوبة، قال وهو يغادرها. أحبّكِ كثيراً.

- أنا أيضاً أحبّكَ كثيراً، أجابت، وهذا «أداحيّ الاتجاه».

لم يرغب في تصحيح خطأها وقبّلها قبلة أخيرة.

لحظة خروجه من الغرفة، تذكّر ذلك اليوم من نيسان 1995، في أحد مستشفيات التوليد في سان دييغو. المرّة الأولى التي رفع فيها ابنته الوليدة. كان متأثراً وخجلاً جدّاً بحيث لم يعد يعرف حتى كيف يتصرّف. كلّ ما شاهده آنذاك، كان وليداً صغيراً جدّاً بوجهٍ متغضّن منكباً، مغمض العينين، على كلّ صنوف الحركات الإيمائية، وهو يحرّك يديه الصغيرتين في كلّ الاتجاهات.

في تلك اللحظة، لم يكن يعرف أنّها ستشغل ذات يوم مكاناً بهذا الحجم في حياته. وأنّ تلك الطفلة الصغيرة ستغدو أهمّ من بؤبؤ عينيه. بالرغم من أنّه ظنّ أنّ كونه أباً سوف يشكّل تغييراً جذرياً في

حياته، ولكن لم تكن لديه أيّ فكرة عما كان سيعني ذلك على صعيد الحبّ والإحساس.

لم يكن يعلم بعد أنّ طفلاً قد يمنحه هذا القدر من الفرح.

ولا أنّ فقدان طفل قد يولِّد عنده ذات يوم قلقاً كبيراً بهذا القدر.

لم يكن يبالي بشيء.

ثمّ فتح ذلك الملاك الصغير الضعيف جدّاً عينيه ونظر إليه بحدّة، وكأنّه إلى حدٍّ ما أراد أن يُفهِمَه أنّه بحاجةٍ إليه. شعر آنذاك بأنّه مضطرب، وطافحٌ بحبٍّ بلا حدود.

وبالتأكيد لم تكن هناك كلمات لوصف سعادة كتلك.

22

كلّ إنسانٍ وحيد والجميع يسخر من الجميع
وآلامنا جزيرة قاحلة.

آلبرت كوهين

18 كانون الأوّل

مع أنّه لم يرغب حقّاً في ذلك، كان على ناتان أن يفي بوعده الذي قطعه لزوجته: أن يصطحب بوني إلى بيت جدّيها ليومين كاملين.

استيقظ باكراً ورغم الوقت المبكر لم يتردّد في الاتصال بجيفري وليزا ويكسلر ليخبرهما بقدومه. كان يعلم أنّ كلمة «الضحى» لم تكن جزءاً من مفرداتهما، حتى خلال أيام العطلة.

وإذ كانت بوني قد نامت في وقتٍ متأخر، انتظر إلى الساعة الثامنة صباحاً لينتزعها من السرير، الأمر الذي جعلهما يتأخّران في الطريق لأكثر من ساعة ونصف بعد أن توقّفا في ستاربوكس لاحتساء شوكولا ساخنة بالمارشميلو كانت لذيذة.

قرّر ناتان أن يأخذ السيارة الرباعية الدفع. فهي أكثر أماناً على الثلج. كانت بوني، مثل أمّها تماماً، تعشق تلك السيارة الضخمة وعجلاتها العملاقة. كانت تشعر، وهي مرتفعة جدّاً عن الأرض، بأنّها على متن سفينة فضائية تحلّق فوق العالم على علوٍّ منخفض.

منذ ثلاثين عاماً وآل ويكسلر يمضون عطلتهم خلال عيد الميلاد في جبال بيركشايرز، إلى الغرب من ماساشوسيتس. كانت الرحلة عن طريق نيويورك طويلة بعض الشيء ولكنّ المنطقة كانت رائعة فعلاً بروابيها الغنية بالوديان التي تستقرّ في قيعانها قرى إنكلترا الجديدة النموذجية البهيّة. سلك الطريق رقم 7، بمحاذاة نورووك، عبر غريت بارينغتون ثمّ توجّه نحو ستوكبريدج. كان يقود بحذر: فالطريق، في بعض المواقع، لا يزال زَلِقاً. وغطّت طبقة رقيقة من الثلج المنثور المشاهد البديعة أمام أنظارهما.

لكي تتسلّى، أدرجت بوني قرصاً مدمجاً في قارئة الأقراص: معزوفة بيانو ارتجالية لكايث جاريت حول الفكرة الموسيقية لفيلم ساحر أوز.

بدأت الفتاة تدندن الكلمات بمثابرة:

Somewhere, over the rainbow...

وهي تغنّي، أدّت له «غمزتها المزدوجة» الشهيرة ووجدها رائعة بقبّعة البيسبول الكبيرة خاصّتها والتي اعتمرتها اتّقاءً لانعكاس الشمس. وهو ينظر إليها خلسةً، رأى من المعجز أن تكون له طفلة تعيش بهذه السهولة.

أحسّ في أعماقه بأنّه فخورٌ بقدرته على حسن تربيتها. مع مالوري، حاولا أن يظهرا أنّهما صارمان باكراً جدّاً وأن يثبّتا بعض المبادئ الأولية: احترام الآخرين ومعرفة أنّ للمرء حقوقاً وأنّ عليه أيضاً واجبات.

كذلك قاوما محاولة إفساد ابنتهما: لا أحذية رياضية بمئتي دولار أو ألبسة مخدوشة وممزّقة باهظة الثمن. كانا يريان ذلك منافياً للحشمة بعض الشيء، كما رأيا أنّه من المهين تصرّف أولئك الآباء الذين

يدعون أنفسهم يُهانون أحياناً وهم يتعجّبون لتنوّع مفردات أبنائهم بدل توبيخهم!

كان ناتان يتساءَل أحياناً عمّا سيصبح هؤلاء الصبيان سيّئو التربية. لا شكّ أنّهم سيصبحون بالغين فردانيين وغير ناضجين وبعد إحاطتهم بالرعاية ومعاملتهم كأمراء غريبي الأطوار، سيسقطون من عليائهم وهم يكتشفون التنازلات والحرمانات التي لا تتوانى الحياة عن فرضها.

ألقى نظرة جديدة نحو ابنته. مهدهدة بأنغام الجاز، كانت نائمة مغلقة القبضتين، ورأسها يميل نحو النافذة الغامرة بالشمس.

فكّر في المستقبل.

حتى الآن، لم يكن القيام بتربيتها صعباً، ولكن يبقى الأصعب ما هو قادم.

لأنّه من دون شكّ سيأتي يوم تطلب فيه الخروج مساءً، وتضع «حلقاً» في منخريها أو في مكانٍ آخر... نعم، هناك دائماً لحظة تفسد فيها الأمور، حيث تتحوّل الفتاة الصغيرة الأكثر لطفاً إلى مراهقة جاحدة، مقتنعة بأنّ والديها ليسا إلاّ مغفّلين عجوزين غير قابلين لفهمها.

وستكون مالوري آنذاك وحيدة في مواجهة تلك الأزمة. هو لن يعود موجوداً ليقدّم لها مساندته. لن يعرف قلق المرّة الأولى التي لن تعود فيها بوني إلى البيت مساءً، ولا الرحلة الأولى التي ستريد القيام بها مع زميلاتها إلى الطرف الآخر من البلاد... مع ذلك، كان ذلك تحدّياً مثيراً شعر بأنّه قادرٌ على مواجهته.

لو لم يكن منتظراً في مكانٍ آخر.

كان حسن تفاهمه مع بوني يعود به أحياناً إلى أولى أيام طفولتها

حينما كان هناك وفاق حقيقي بين والدتها وبينه، قبل أن تحلّ تلك اللامبالاة التي حافظ عليها بإرادته، متصوّراً أنّ فرصته الوحيدة في الرقيّ الاجتماعي تكمن في الافتراق الثقافي مع أصوله العائلية. من الصعب على ابن مدبّرة منزل أن يرغب في غزو نيويورك!

ولم يتحقّق إلاّ مؤخّراً من أنّه قد تلقّى من أمّه أكثر مما كان يتصوّر. كانت قد أورثته مزيجاً من الشجاعة والتفاني، مقدرة على إجادة المواجهة، مهما حدث.

ولكنّه تركها تموت دون أن يشكرها على ذلك. في السنوات الأخيرة التي سبقت وفاتها، بينما بدأ يكسب قوته، كان بوسعه التقرّب منها والاستمتاع بنجاحه برفقتها. بأن يقول لها: «أنتِ ترين، لقد تخلّصنا من العوز، لم تقدّمي تلك التضحيات عبثاً. أنا سعيد.» بدلاً من ذلك، لم يعد يأتي كثيراً لرؤيتها. كان في غاية الانشغال بمعركته الخاصّة، فاكتفى بأن أرسل لها مالاً كلّ شهر لتستطيع العيش من دون أن تعمل. وحينما كان يمرّ عليها، كان يحصل ذلك على نحو خاطف دائماً. يتبادل معها بعض الكلمات السطحية قبل أن يغادر تاركاً لها رزمة من الدولارات (أكثر سماكةً في كلّ مرّة) لكي يغفر لنفسه كونه ابناً عاقّاً.

اليوم، يشعر بإحساسٍ كبيرٍ بالذنب وهو يفكّر في تلك الفرص المفوّتة، ولكن ليست هذه الذكرى الوحيدة التي تبلبله.

كان ذلك نوعاً من السرّ بينهما. حادثة لم يعاودا قط الحديث عنها والتي سيبقى يتذكّرها طوال حياته.

كان آنذاك قد بلغ الثالثة عشرة من عمره. وكان ذلك في صيف 1977، في بداية شهر آب، خلال العطلة الأخيرة التي قضاها في نانتوكيت مع مالوري (الصيف الذي قبّلها فيه من شفتيها لأوّل مرّة... ولكن هذه حكاية أخرى).

قبل ذلك بعام، عقب الامتحانات التي نجح فيها بتفوّق، اختير للانضمام إلى المدرسة الراقية في مانهاتن *Wallace School*.

وإذا كانت المؤسسة تمنح نصف المصاريف المدرسية لمجموعة من التلاميذ المستحقين على نحوٍ خاص، فإنّ النصف الآخر كان يبقى على عاتق العائلات. وكان ذلك بالنسبة لاليانور ديل آميكو مبلغاً كبيراً من المال. أدرك ناتان جيّداً أنّه كان يطلب تضحية جسيمة من أمّه، ولاسيما أنّ المدرسة كانت تفرض تسديد المبلغ قبل بداية الفصل الأوّل. ولكنّه شرح لها أنّ هذا استثمارٌ في المستقبل: فرصته الوحيدة لكي لا ينتهي عاملاً في مخزن أو ماسحاً للبلاط.

في ذلك الصيف، كانت اليانور صفر اليدين: فخلال الشتاء، ألزمها التهابٌ في القصبات أن ترقد في المستشفى لبضعة أيام وكلّفها مصاريف ضخمة. في بداية الشهر، طلبت سلفةً من آل ويكسلر لتدفع نفقات مدرسة ابنها. ولكن جيفري، الصارم جدّاً في مبادئه الطهرية، رفض ذلك رفضاً قاطعاً.

«هذه هي عقليتهم القذرة، أبدت له أمّه الملاحظة آنذاك، لقد أنقذتَ حياة ابنتهم ويرفضون القيام بأدنى مبادرة حيالك.»

لم تكن مخطئة، حتى وإن كان ناتان لا يريد أن تستغلّ تلك الحادثة- التي مرّت عليها سنوات- لتسعى للحصول على شيءٍ ما من سيّدها.

وفي تلك الآونة، اختفى سوار من اللؤلؤ من علبة مجوهرات ليزا ويكسلر.

لم يفهم ناتان قط لماذا، ولكنّ الشكوك كانت منصبّة على أمّه و... عليه. استجوبهما جيفري ويكسلر كليهما وكأنّه متأكّدٌ من أنّهما مذنبان. بل وفتّشهما وهو يجعلهما يقفان أيديهما على الحائط.

آنذاك، لم يكن ناتان قد درس القانون ويجهل أنّ تلك الممارسات ممنوعة. أمام إنكار خادمته، أفرغ جيفري غرفتها وهو يفتح كلّ الأدراج ويقلب كلّ الحقائب وكأنّه يقوم بحملة تفتيش دقيقة. ولأنّه لم يعثر على أيّ شيء، هدّد باستدعاء الشرطة، معتقداً أن هذا التهديد سيخيف اليانور.

ولكنّ هذه الأخيرة واصلت الإنكار بقوّة، وهي تكاد تجثو أمام سيّدها: «لستُ أنا، يا سيّد ويكسلر، أُقسم لك إنني لم أسرق شيئاً.»

أخيراً، تمت تسوية الحكاية بطردها من عملها. وبالضدّ من رغبة زوجته، تخلّى جيفري عن فكرة طلب الشرطة، مفضّلاً طرد اليانور دون أيّ تعويض. في عزّ منتصف الصيف، مهانين وتقريباً من دون مالٍ في جيبهما، عاد ناتان وأمّه نحو الحرارة النيويوركية.

وكانت تلك أسوأ إهانة في حياته: أن يصادف نظرة مالوري، بينما هو ملتصقٌ بالحائط مثل لصّ. شعر بأنّه قد أُذلّ وحُقِّر إلى أقصى درجة. وقد لازمه ذلك العار حتى اليوم، محفوراً إلى الأبد في زاوية من رأسه، ولكنّه كان أيضاً قوّة محرّكة، وكأنّه عرف، منذ ذلك اليوم، أنّه لن يرتقي أبداً بما فيه الكفاية لكي يغسل ذلك العار. لم يكفه تجاوز العقبة بنجاح. كان يحتاج إلى المزيد: التغلّب على جيفري في تلك الدعوة الهالكة وجعله يدفع ثمن إهانته بإرغامه على أن يتنازل له عن شقّة سان ريمو، وهو عقارٌ قيمته عدّة ملايين من الدولارات. في تلك المواجهة، كان مدركاً تماماً أنّه يسيء إلى مالوري. ولكن حتى احتمال تجريح من يحبّها لم يثنه عن ذلك. أحياناً يكون المرء مستعداً لفعل كلّ شيء حينما يرغب في الحصول على شيءٍ ما.

ومع ذلك، الأمر الأكثر إيلاماً هو أنّه قد انتهى إلى تصديق ويكسلر بدلاً من أمّه. لم يعاود الحديث قطّ عن السوار معها، ولكن

بعد تفحّص المشكلة بكلّ أوجهها، انتهى إلى الاعتقاد بأنّ أمّه هي من سرقته. وأنّها قد سرقته من أجله هو. في تشرين الأوّل 1977، كان القسط الفصلي لمدرسته قد سُدّد على نحوٍ غير متوقّعٍ في آخر لحظة، الأمر الذي سمح له بمتابعة دراسته. آنذاك، لم يسعَ لمعرفة كيفية حدوث معجزة كتلك. ولكن، في أيام الكرب، كانت هذه الحقيقة المرعبة تدوّي: لقد أصبحت أمّه سارقة؛ وكان ذلك من أجله.

فتحت بوني إحدى عينيها. لم يكن قد تبقّى لهما سوى بضع مئاتٍ من الأمتار لبلوغ مقصدهما.

كانت ستوكبريدج، الواقعة في وسط جبال بيركشايرز، مدينة صغيرة ساحرة بُنيت من قبل الهنود الموهيكان قبل أن يأتي المبشّرون ويقلقوا هدوءهم بإصرارهم على تنصيرهم. كان آل ويكسلر يملكون مزرعةً تماماً عند مخرج المدينة. كانت في الحقيقة عبارة عن دارٍ ريفيّة أنيقة مع بعض الخيول وحصانٍ قزمٍ جميل سُرّت به ابنته كثيراً.

زمّر ناتان أمام البوابّة المزوّدة بكاميرا مراقبة. بعد بضع ثوانٍ من ذلك، انفتح مصراعا البوابة ليدعا السيارة الرباعية الدفع تمرّ على طريقٍ مفروشٍ بالحصى. أوقف السيارة بالقرب من الجناح الأرضي الصغير الذي يشغله حارسان. في آخر مرّة جاء إلى هنا، لم ينزل حتى من السيارة.

هذه المرّة، سيكون الأمر مختلفاً.

كان غودريش قد نصحه بأن يهدأ قبل أن يموت. إذاً، سيتّبع نصائحه! كان جيفري سيغتاظ بسبب ماله. وكان ناتان قد قرّر أن يكشف له ما لم يقله لأحد قط. أمرٌ قد يقوّض سمعته ويشطبه من نقابة المحامين.

حينما كان طالباً، مارست عليه مهنة المحاماة سحراً لا يُصدّق. تصوّرها كإرشادٍ ربّاني، وسيلة للدفاع عن الأكثر ضعفاً، المنحدرين، مثله، من الأوساط المحرومة. ولكن لم يكن لهذه المهنة من معنى ما لم يحترم المرء بدقّة أخلاقاً ثابتة. الأمر الذي فعله ناتان دائماً... عدا مرّة واحدة.

صفق باب السيارة. كانت الشمس مرتفعة في السماء وأثارت الريح بعض السحب الصغيرة من الغبار الصلصاليّ.

من بعيد، لمح جيفري المقبل نحوهما من دون أن يسرع خطاه.

أخذت بوني، التي تحتفي دائماً بكلّ شيء، تركض لملاقاة جدها وهي تطلق صيحات الفرح.

وسرعان ما أصبح ناتان على بعد بضعة أمتار من ويكسلر.

مثبّتاً نظرته في نظرة حميه، راودته الفكرة نفسها التي تراوده في كلّ مرّة: كانت مالوري تشبه جيفري كثيراً. لهما العيون الزرقاء الفاتحة جدّاً نفسها، والوجه اللبق والأصيل نفسه.

نعم، كانت مالوري تشبه أباها كثيراً. الأمر الذي يفسّر أنّ ناتان، رغم كلّ حقده، لم يستطع أن يكرهه تماماً.

لدى وصوله، أصرّ ناتان أن يجري نقاشاً مع جيفري، والآن هما وحدهما في المكتب، ولا يوجد سواهما.

أنا وأنت.

أشعل ويكسلر بقدّاحته عقب أحد السيجارات القصيرة والغليظة التي اعتاد أن يدخّنها في أيّ وقتٍ من النهار. بدأ باستنشاق الدخان بنفثاتٍ صغيرة، بينما ينظر ناتان كخبير إلى الرفوف المليئة بالمجلدات الجلدية للكتب القانونية الشهيرة.

كان جيفري قد رتّب مكتبه كمكتبة صغيرة حقيقية. مصابيحُ خضراء ومذهّبة تنير أثاثاً صقيلاً، من الخشب النفيس، وطاولة عمل شاسعة مغطاة تقريباً بأكداسٍ من الملفات وعلب الأسطوانات، وحاسوبان محمولان موصولان بقواعد البيانات. قبل بضعة أشهر من تقاعده الرسمي، كان جيفري يثابر بثبات على أن يكون رجلاً نشيطاً.

كان الخطّ البياني لحياته غريباً. فبينما كان في شبابه لاعباً ممتازاً للبيسبول، اضطرّ لأن يترك رياضته المفضّلة بعد حادثة سقوطٍ خلال رحلةٍ جبلية. وقد أرغمته تلك الحادثة الخطيرة جدّاً - كسرٌ في الجمجمة- على أن يركّز طاقته على الدراسة. كان الأوّل على دفعته في هارڤارد فعمل، في البداية، قاضياً قبل أن يلتحق بأحد أشهر مكاتب المحاماة في بوسطن. وفي السنوات الأخيرة، مدركاً اتجاه سير الأمور، كافح من أجل ترقية مشروعه الخاصّ، المتخصّص في الدعاوى القضائية الجماعية. فقد دافع بنجاح عن عمال الورش البحرية الذين عُرِّضوا للأمينت. وبعد ذلك، جمع ثروة من خلال حصوله من مصنّعي التبغ على تعويضات طائلة باسم ضحايا التدخين. ومنذ سنتين، انخرط في معركة جديدة من خلال المشاركة في الدعاوى المرفوعة على مشغّلي الهاتف النقّال من قبل ضحايا سرطانات الدماغ الذين اتّهموهم بإخفاء مخاطر الإشعاعات الكهرطيسية عنهم.

اضطرّ ناتان أن يقرّ له بهذا: يمارس ويكسلر مهنته جيّداً. كان أحد أواخر المحامين من النموذج القديم، نموذج لزمنٍ بعيدٍ حيث كان يتصرّف رجال القانون عن قناعة أكثر منه في سبيل البزنس. كما أنّهما حافظا، في مرحلة ما، على نوعٍ من التفاهم، قبل أن تفسد حكاية

السوار تلك كلّ شيء. وحتى اليوم، لم يكن بوسع ناتان الامتناع عن الشعور بإعجابٍ خفيٍّ حيال مهنة حميه.

شدّ جيفري حمّالات بنطلونه.

- إذاً، ماذا لديك من أمرٍ خاصّ لتخبرني به؟ سأل بين نفثتي دخان.

- أنت تتذكّر الدعوى خاصّتنا... بدأ ناتان.

أبدى جيفري انزعاجه.

- إذا كنتَ قد جئت إلى هنا لتثير من جديد تلك النزاعات القديمة...

لم يدعه ناتان يذهب إلى أبعد من ذلك. قرّر أن يُخرِج كلّ ما في قلبه.

- لقد رشوتُ ذلك القاضي، قاطعه، لقد رشوت القاضي ليڤنغستون. لقد أوصلت إليه رشوة بوساطة أحد مساعديه لكي يصدر حكمه لمصلحتي.

لم يرفّ لجيفري رمش. كان رجلاً صلباً ليس من عادته أن يُظهر أبداً، خلف رقّة ظاهره، انفعالاته.

لكن اليوم، وجده ناتان أقل انفعالاً: بدا متعباً، بعينيه المحاطتين بهالات زرقاء وبالتجاعيد التي غزت وجهه والذقن غير الحليقة.

- أردت أن أنتقم لنفسي، يا جيفري، وأن أسلبك شقّة سان ريمو بسبب ما فعلته مع أمّي. ولكنني لم أجد وسيلة غير تلك وانتهكتُ حرمة المهنة.

هزّ ويكسلر رأسه، وبدا أنّه يفكّر بعمق، ثمّ فتح فمه ولكن لم تخرج أيّ كلمة منه.

وبدلاً من ذلك، وقف بالقرب من النافذة، وهو يحدّق في الروابي المغطاة بالثلج.

استدر نحوي، يا جيفري، وأصغِ إليّ.

من وراء ظهره، واصل ناتان لازمة التأنيب. كانت الكلمات، وقد حُبِسَت طويلاً، تخرج الآن من تلقاء نفسها، من دون عناء.

- تذكّر، يا جيفري، حينما كان عمري ثمانية أعوام وكنتَ تصحبني معك إلى صيد السمك في البحيرة وكنت تتحدّث لي عن الدعاوى التي كسبتها. أعتقد أنني آنذاك قرّرت أن أصبح محامياً بدوري. كلّ تلك الدراسة، درستها من أجلي، بالطبع، ولكن عند انطلاقتي، كان ذلك أيضاً في جزءٍ كبيرٍ منه لكي أنال تقديرك. كنتُ أتخيّل بسذاجة أنّك ستوافق عليّ، وتكون فخوراً بي. لا يمكنك أن تتصوّر كم كنتُ أرغب لو أنّك وافقت عليّ.

كم وددت لو أنّ لي أباً مثلك...

ساد صمتٌ. استدار جيفري ليواجه غضب صهره السابق.

- كان عليك أن توافق عليّ! قال ناتان بلهجة موقّعة. كنتُ قد أثبتُّ قيمتي وإمكاناتي. وقد عانيتُ كثيراً لأبلغ ذلك. كنتُ أعتقد أن الكفاءة والجدارة قيمتان كنتَ تحترمهما. ولكن بدلاً من ذلك، دفعتني إلى تدنيس مهنتي، إلى الذهاب لرشوة قاضٍ كزقاقيٍّ من حثالة الناس...

- لقد أنقذتك، قاطعه جيفري أخيراً.

- ماذا تقول؟

- لقد قمتُ بجزءٍ من دراستي مع القاضي ليڤنغستون. في فترة الدعوى، جاء ليخبرني بمحاولتك الفاسدة.

كان ناتان مذهولاً.

- ماذا؟

تنهّد المحامي العجوز وبدا أنّه ينبش في ذاكرته.

- ليفنغستون نصّابٌ حقيقي، ولكنّه كان في غاية الحذر من أن يدع نفسه يُضبَط. لقد قرّرت أن أمنحه ضعف المبلغ الذي عرضتَ عليه لكي لا يشي بك عند السلطات القضائية وليصدر حكمه لمصلحتك.

- ولكن لماذا، يا جيفري، لماذا؟

صمت هذا الأخير لبرهةٍ قبل أن يجيب ثمّ اعترف وفي صوته نبرة تردّدٍ خفيفة:

- من أجل مالوري، بالطبع، لم أكن أريد أن تُجرجرَ معك في تلك الفضيحة. وثمّ أيضاً... من أجلك، كان ذلك أمراً أدين به لك.

قطّب ناتان حاجبيه. خمّن حموه سؤاله. فاستعاد الماضي، تائه العينين في الفراغ.

- في ذلك المساء، ذلك المساء الشهير من صيف 1977، كنتُ قد أفرطتُ في الشراب. كنتُ أجتاز آنذاك مرحلة صعبة، في حياتي الزوجية كما في حياتي المهنية. كنتُ عائداً من بوسطن حيث طلبت مني ليزا أن أمرّ على الصائغ لآخذ سواراً كانت قد أصلحت قفله. قبل العودة، أمضيتُ نهاية ما بعد الظهيرة في بيت إحدى مساعداتي والتي كانت أيضاً عشيقتي. بالطبع لم أكن قد وعدتها بأيّ شيء، ففي تلك الحقبة وفي وسطنا، لم يكن المرء يطلّق زوجته ليتزوّج سكرتيرته، ولكنّها مارست عليّ نوعاً من الابتزاز العاطفي على أمل أن أترك زوجتي. عند المغادرة، أتذكّر أنني توقّفت في حانة فندقٍ لأشرب

كأساً من الويسكي. بيد أنني لم أشرب كأساً واحدة وإنّما أربعاً أو خمساً. أعتقد أنّك على علمٍ بمشكلتي مع المشروب...

لم يفهم ناتان في الحال.

- كيف ذلك؟

- كنتُ أفرط في الشراب في تلك الفترة، شرح جيفري. كنتُ أعاني من الإدمان المزمن على الكحول. كان ناتان يتوقّع كلّ شيء إلاّ كشفاً كهذا.

- ولكن منذ متى؟

- لقد نجحتُ في التوقّف عن ذلك في بداية الثمانينات ولكنني انتكستُ مراراً عديدة. لقد جرّبت كلّ شيء: الأبرشيات، الجمعيات... ولكن لم يكن من السهل الذهاب إلى تلك الاجتماعات، حيث تعترف بأنّك مدمن على المخدرات وتناقش أمور خاصّة جدّاً كهذه أمام أناسٍ مجهولين تماماً.

- أنا... لم أكن أعلم، تلعثم ناتان.

حان دور جيفري ليندهش.

- كنتُ مقتنعاً بأنّ مالوري قد أخبرتك بذلك.

للمرّة الأولى، رأى ناتان أنّ التأثّر قد أدمع عيني حميه. رغم خزيه، كان جيفري فخوراً باحتفاظ ابنته بالسر لوقتٍ طويلٍ جداً، حتى عن الرجل الذي أحبّته.

باستماعه إلى اعتراف جيفري، اعتقد ناتان بأنّه حصل على الإجابة عن الكثير من الأسئلة التي طرحها على نفسه حول مشقّة حياة مالوري.

واصل جيفري حكايته:

- حينما وصلت إلى نانتوكيت، لم أعثر على السّوار. وبعد ذلك

بزمنٍ طويل، اعترفت لي سكرتيرتي بأنّها قد سرقته منّي لزرع الشقاق في حياتي الزوجية. ولكن، حينذاك، لم أكن أعلم قط أين اختفى. كنتُ مرعوباً تماماً، وفي صباح اليوم التالي، حينما سألتني زوجتي عمّا فعلته بالسوار، لم أجد شيئاً أفضل من الادّعاء بأنني قد أودعته صندوق مجوهراتها. وهذا ما قادنا إلى اتّهام والدتك. أعتقد أنّ زوجتي تظاهرت فقط بتصديق تلك الحكاية، ولكن ذلك أتاح لنا الحفاظ على المظاهر.

صمت طويلاً قبل أن يضيف بصوتٍ غير مميّزٍ:

- أنا متأسّفٌ، يا ناتان، كنتُ جباناً.

هذا، أنت يمكنك قوله.

للحظة، عجز ناتان عن الكلام. ذُهِل وارتاح في آنٍ واحد لذلك الاعتراف. كلا، لم تكن والدته سارقة وإنّما ضحية لظلم كبير. أمّا جيفري، الرجل الذي اعتقده فاضلاً ومعصوماً، فقد كان كاذباً له عشيقات ومدمناً على الخمر. لم يكن إلا بشراً كالآخرين. مثله هو.

رفع رأسه نحو حميه وتبيّن له بغرابة أنّ الغلّ الذي أحسّ به حياله قد تلاشى. لم يشأ حتى أن يحكم عليه. لم تعد تلك اللحظة المناسبة. لاحظ أنّ قسمات وجهه قد ارتاحت وكأنّه كان، هو أيضاً، ينتظر منذ زمنٍ طويل ليتمكّن من إفشاء هذه الأسرار. كان الرجلان، في العمق، قد عاشا كلٌّ من جانبه مع سرٍّ كبيرٍ أفسد الكثير من لحظات حياتهما.

كان جيفري هو أوّل من كسر حاجز الصمت:

- أعلم أن هذا لا يغفر لي، بدأ بالكلام، ولكنني حرصتُ خفيةً على أن تجد والدتك عملاً، وأنا من دفعت، في تلك السنة، جزءاً من قسطك المدرسي.

- معك حقّ، أجاب ناتان، محمرّ العينين، هذا لا يغفر لك.

ثمّ توجّه جيفري نحو صندوقه وأخرج منه شيئاً ما مدّه، بيدٍ راجفة، نحو ناتان.

كان ذلك سواراً مزخرفاً بأربعة صفوفٍ من اللؤلؤ مع قفلٍ من الفضّة، ترصّعه ألماسات صغيرة.

23

ما لم يكن المرء مستعداً لكلّ شيء، لا يكون مستعداً لأيّ شيء.

بول أوستر

"A beautiful sight, we're happy tonight.
Walking in a winter wonderland..."

وقّع ناتان بهدوء آخر أنغام أغنية الميلاد الشهيرة. أغلق البيانو ونظر بتأثرٍ إلى ابنته النائمة على أريكة الصالون الجلدية. في الخارج، حلّ الليل. وكان الأفق، المشتعل قبل لحظة بالأحمر والوردي والبرتقالي، يتلوّن الآن بتلوينات غامقة أكثر. أضاف حطبة إلى المدفأة وأذكى النار في الجمرات التي كانت قد فقدت جذوتها. في الحجرة المجاورة، وجد غطاءً مطرّزاً طواه قبل أن يضعه على ساقي بوني.

أمضيا وقتاً هادئاً من بعد ظهيرة ذلك اليوم في تلك الزاوية المحمية. وقتاً هادئاً من بعد الظهيرة ولا شيء سواهما. بعد الغداء، كانت ليزا ويكسلر قد خرجت لكي تجمع هدايا الميلاد في واحدة من أعمالها الخيرية، في حين أنّ جيفري استعار السيارة الرباعية الدفع من صهره ليذهب إلى بيتسفيلد ليشتري عدّة الصيد تحسّباً للأيام الجميلة.

فسنح لناتان كلّ الوقت ليبقى مع ابنته. ما إن انتهت الوجبة، هرعت بوني إلى الإسطبل لترى حصانها القزم، وهو حصان جميل من

فصيلة كونيمارا أسمته سبيريت. ساعد ناتان ابنته في إعداده، ثمّ اختار لنفسه أحد خيول ويكسلر. أمضيا ما تبقّى من فترة ما بعد الظهيرة في التجوال في الروابي الصغيرة المشجرة الممتدّة إلى ما لا نهاية من حول البيت. وسط ذلك المشهد الجدير ببطاقة معايدة، لم يفكّر لمرّة واحدة في الموت. ترك نفسه ينقاد لإيقاع الخيول وللصخب المطمئِن للشلالات والأنهار. خلال بضع ساعات، لم يعد هناك أيّ شيء. لا شيء سوى ابتسامة بوني ونقاء الهواء وذلك الرداء الثلجي الرقيق الذي يغطّي كلّ شيء ويمنح المشهد عذرية جديدة.

كان يتذكّر عذوبة تلك اللحظة حينما انفتح الباب العالي للصالون ليتيح مرور ليزا ويكسلر.

- مساء الخير، يا ناتان، قالت وهي تدخل الحجرة.

كانت هي الأخرى امرأة جميلة، طويلة الأطراف، راقية دائماً في هندامها، متباهية في كلّ الظروف بذلك الوقار الأرستقراطي الذي لا يُكتَسَب إلا بعد عدّة أجيال.

- مساء الخير، يا ليزا، لم أسمعكِ تَصلين.

- محرّك السيارة كاتمٌ جداً.

لقاء ما دفعته ثمناً لبينتلي...

- هل قمت بنزهة سعيدة؟ سألت مع نظرة حنونة إلى بوني.

- رائعة.

ولأنّه شعر بميلٍ إلى السخرية، لم يستطع الامتناع عن إضافة:

- وأنتِ، كيف حال «فقرائك»؟

ألقت عليه نظرة ارتيابٍ قصيرة ولكنّها لم تجبه. لم يكن التحريض والمزاح ميداناً ترغب ليزا ويكسلر في اللعب عليه.

- أين جيفري؟ سألت وهي تُخفّف النور لئلا توقظ حفيدتها.

- لا بدّ أنّه لن يتأخر، لقد ذهب إلى بيتسفيلد ليبتاع عدّة صيدٍ جديدة.

عبر ظلٌّ آنذاك وجه ليزا الجميل.

- أتعني أنّه قد استعار سيارتك؟

- نعم. هل من مشكلة؟

- كلا... كلا، غمغمت محاولة إخفاء اضطرابها.

مع ذلك جالت في الصالون لبرهةٍ ثم جلست على الأريكة، ولفّت ساقاً على ساق، وأمسكت بكتابٍ كان موضوعاً على طاولة صغيرة. موهوبة بتلك السلطة الطبيعية التي تخلق فوراً مسافةً، كانت تمتلك مهارة لإفهام محدّثها أنّ الحديث قد انتهى. في نهاية المطاف، كان ناتان أيضاً ليفضّل ذلك: كان ما كشفه جيفري حول السوار المسروق لا يزال يثقل على صدره وكان يعلم بأنّه سيكفيه القليل لكي ينفجر غضبه حيال ليزا.

ولكي لا يبقى دون شيءٍ يفعله، تصفّح كتاباً مجلّداً على نحوٍ فاخرٍ معروضاً خلف زجاج المكتبة. كان سيقدّم لنفسه بطيبة خاطر كأساً من المشروب، ولكن لم تكن هناك قطرة كحولٍ في كلّ البيت.

من حينٍ لآخر، ألقى نظرات خاطفة نحو حماته. كانت ليزا ويكسلر مشغولة البال، كان ذلك واضحاً. ففي أقلّ من خمس دقائق، نظرت إلى ساعة يدها عدّة مرّات.

إنّها قلقة على جيفري.

اضطرّ ناتان مرغماً على القبول بأنّ تلك المرأة المنيعة والوقورة، النتاج الصافي لأرستقراطية بوسطن، لطالما بهرته. ولكن إذا كانت قد

بهرته، فذلك لأنّ مالوري كانت على النقيض من الجانب البارد والصارم لأمّها. عرف ناتان على الدوام أنّ زوجته كانت تكنّ حبّاً كبيراً لوالدها. لزمنٍ طويل، لم يفهم حقّاً طبيعة ما كان يربط هذين الشخصين. ولكن منذ اعتراف جيفري، في ذلك الصباح نفسه، كان قد فهم: ما كانت مالوري تحبّه في والدها، هو ذلك الضعف الذي لم يشكّ فيه ناتان أبداً. كانت مالوري تعتبر والدها نوعاً من «رفيق السلاح»، لأنهما كانا يخوضان معاً معركة بلا نهاية: جيفري ضدّ إدمانه على الكحول، ومالوري ضدّ خيباتها المزمنة. إلى جانبهما، كانت ليزا تبدو القطب القوي والمهيمن في العائلة.

إلا أنّ ذلك لم يمنعها من أن تُنهَش قلقاً لأنّ زوجها قد ذهب إلى بيتسفيلد. فكّر ناتان في الأمر عبثاً، ولم يفهم. لم يكن جيفري من النوع الذي يطلب الإذن من زوجته لكي يذهب لإنفاق بضعة آلاف من الدولارات على عدّة صيدٍ من آخر طراز.

فجأةً، وكأنّها قد أخبِرَت بالحاسة السادسة، نهضت ليزا متوثّبة وخرجت إلى درج المدخل. هناك، وقد خرج ناتان في إثرها، أشعلت كلّ أضواء المدخل الشاسع وأطلقت حركة آلة الفتح الأوتوماتيكي للبوابة.

لم يمض وقت حتى سُمع هدير محرّك السيارة الرباعية الدفع. ما إن اندفعت المركبة في المدخل، حتى لاحظ ناتان أنّ قيادة جيفري للسيارة كانت غير متقنة. انحرفت السيارة كثيراً بحيث إنّها داست على المرج الأخضر وسحقت النظام الآلي للسقاية وكذلك أجمة صغيرة من الزهور التي لن تحظى بفرصة الإزهار في الربيع المقبل. حينما دخلت سيارة اللاند روفر بالكامل وسط النور، لاحظ ناتان أنّ سيارته مشطوبة في عدّة أمكنة وأنّها قد فقدت غطاء أحد جِتاريها الأماميين. أدرك في

الحال بأنّ جيفري قد تعرّض لحادثٍ. هدأ المحرّك وانتهت السيارة إلى التوقّف على رقعةٍ من المرج.

- كنتُ أعلم ذلك! قالت ليزا وهي تهرع نحو زوجها.

أخرج جيفري نفسه بمشقّة بالغة من السيارة ودفع زوجته دون لباقة. لم تترك مشية المحامي العجوز أدنى شك: كان فاقداً الوعي من السُّكر.

- أريد أن أتبوّل! صرخ وكأنّه لا يخاطب شخصاً معيّناً.

اقترب ناتان من حميّه ليساند ليزا في موقفها الصعب. كانت رائحة الكحول تفوح من المحامي العجوز ملء الأنوف.

- سأساعدك يا جيفري، تعال معي.

- دعني وشأني! لا أحتا..ج إلى مساعد..تك... كلّ ما أريده هو أن أتبوّل...

فحلّ ويكسلر أزرار بنطلونه وبال على المرج، بالقرب من السلّم الذي يؤدّي إلى درج المدخل.

ظلّ ناتان حائراً يغمره مزيجٌ من الخجل والأسى على حميه.

- هذه ليست المرة الأولى، يا ناتان... غمغمت ليزا وهي تشدّه من ذراعه.

تأثّر ناتان لتلك الألفة البسيطة، غير المعهودة عندها، والتي تنافي حاجتها إلى الراحة.

- ماذا تقصدين؟

- لقد سبق أن ضُبِط جيفري بسبب القيادة في حالة سُكر قبل بضعة أشهر. ورغم علاقاتنا، عوقِبَ بغرامة باهظة وبسحب رخصة قيادته لمدّة عام. وتم حجز كلّ السيارات المسجّلة باسمه.

- ماذا، أتقصدين أنّه كان يقود السيارة دون رخصة؟

أكّدت ليزا ذلك بهزّ رأسها.

- اسمعي هذا الأمر خطيرٌ جدّاً، استطرد ناتان. لا بدّ أن نتأكّد من أنّه لم يتسبّب بأضرار.

من جديد، تقدّم نحو جيفري. كانت عينا العجوز تلمعان كما دائماً.

- لقد تصادمت مع أحد، أليس كذلك، يا جيفري؟

- كلا! صرخ في وجه صهره.

- أعتقد أن بلى.

- كلا، كرّر قوله، لقد تفاديتها!

- مَنْ تفاديت، يا جيفري؟

أمسك ناتان بياقة معطف حميه.

- مَنْ تفاديت، يا جيفري؟ ردّد وهو يعنّف به.

- تلك الدراجة الهوائية... تفاديتُ... ها.

خالج ناتان هاجسٌ سيّئ. أراد جيفري أن يدافع عن نفسه ولكنه لم يستطع إلاّ أن ينهار وسط الثلج. رفعه ناتان عن الأرض وساعده ليدخل إلى البيت. اضطر جيفري للتظاهر بأنّه أكثر انقياداً وترك زوجته تقوده حتى غرفته. سالت دموع الخجل على وجه ليزا.

عند العودة إلى الصالون، التقط ناتان معطفه وخرج كالإعصار من الغرفة. لحقت به ليزا إلى مدخل الدرج.

- إلى أين تذهب؟

- اعتني به، يا ليزا، سأستقلّ السيارة وأرى إن كنت سأجد شيئاً.

- لا تتحدّث مع أحدٍ عن هذا الأمر، يا ناتان. أتوسّل إليك، لا تخبر أحداً بأنّك قد رأيته على هذه الحال.

- ومع ذلك أعتقد أنّ عليكِ تبليغ الشرطة واستدعاء طبيبٍ. لا ندري حقّاً ما الذي يكون قد حدث.

- من غير الوارد أن أُخبِرَ أيّاً كان! أكّدت ليزا بشدّة قبل أن تغلق الباب.

وفي لحظة، استعادت صلابتها وغريزتها الدفاعية.

جلس ناتان خلف مقود اللاند روڤر واستدار نصف استدارة. وكان على وشك أن يقلع مسرعاً، حينما نزلت بوني مسرعةً ووقفت أمامه.

- سآتي معك، بابا! صاحت وهي تفتح باب السيارة.

- كلا، يا عزيزتي، عودي إلى البيت! اذهبي لمساعدة جدّتكِ. لا تتركيها وحدها.

- أفضّل المجيء معك.

تسلّقت إلى داخل السيارة وصفقت بابها.

- ماذا حدث، يا بابا؟ سألت وهي تفرك وجهها المخدّر تماماً بعد بتأثير النعاس.

لم تصادف جدّها وهو فاقد الوعي سُكراً. هذا أفضل.

- سنتحدّث عن كلّ هذا في ما بعد، يا طفلتي، الآن، اربطي حزامك.

انطلق ناتان مسرعاً ونزل المنحدر.

سار باتجاه مركز المدينة.

- اسمعيني جيّداً، يا عزيزتي، خذي هاتفي النقّال من علبة السيارة وأدخلي الرقم 911 واطلبي الحديث إلى مكتب العمدة.

مبتهجة بالمشاركة في مغامرة كهذه، نفّذت بوني مهمّتها بهمّة واجتهاد. فخورةً جدّاً، مدّت السمّاعة إلى والدها منذ الرنّة الثانية.

- هنا مكتب عمدة ستوكبريدج، عرّف عن نفسك من فضلك، طلب الضابط على الطرف الآخر من الخطّ.

- أُدعى ناتان ديل آميكو، وأقيم الآن في بيت حمَوَي، جيفري وليزا ويكسلر. أتّصل بكم لأعلم إن كنتم قد تلقّيتم إشارة عن حادث سيارة في مكانٍ ما من هذه المنطقة.

- لقد أُبلغنا في الحقيقة عن حادثٍ عند تقاطع طريق لينوكس والطريق 183. هل كنت شاهداً على شيءٍ ما، يا سيّد؟

- أنا. . . أنا لا أدري بعد، أشكرك، عمت مساءً.

أغلق السماعة من ندون أن يترك للشرطي فرصة إضافة شيء.

في أقلّ من خمس دقائق، وصل إلى المكان المحدّد، وهو تقاطع صغير عند مخرج المدينة. كانت ثلاث سيارات للشرطة، بمصابيحها الدوّارة، في المكان. كان ضابطٌ يسهّل حركة السير لإفساح المجال أمام مرور سيارة إسعاف قادمة من الاتجاه المعاكس، مطلقة العنان لصفّاراتها. حينما اقترب ناتان من تلك السيمفونية من الإشارات الضوئية والصوتية المتداخلة وسط العتمة، فهم أنّ أمراً خطيراً قد وقع. بسبب الهيجان، لم يدرك في الحال حجم الأضرار، لأنّه لم تكن هناك سيارة معرّضة لحادث ولا ضحية مرئية.

- ماذا حدث، يا بابا؟ ماذا حدث؟ سألت بوني، بعصبية متزايدة.

- لا أدري، يا عزيزتي.

كان سيتوقّف حينما أشار إليه شرطيّ بأن يصطفّ أبعد من ذلك بقليل على الممرّ الجانبي. امتثل المحامي ثمّ، وكما يقتضي القانون، ظلّ جالساً في سيارته، ويداه على المقود، بانتظار أن يهتمّ ضابط الشرطة بأمره. من مكان تواجده، استطاع أن يلمح رجال الإسعاف المنهمكين حول جسدٍ صغيرٍ جامدٍ كانوا قد رفعوه من الحفرة. كان طفلاً، لا شكّ أنّه في عمر ابنته، يرتدي مشمّعاً مشعّاً يُستخدَم لكي يمكن تبيّنه في الليل من قبل سائقي السيارات.

يا إلهي، يا للصبي المسكين! لقد وقع جيفري في ورطة قذرة.

- هل مات؟ سألت بوني التي نهضت واقفة على مقعدها.

- أتمنى ألا يكون ذلك، يا عزيزتي، ربّما يكون قد فقد وعيه فقط. اجلسي، لا تشاهدي ذلك.

أخذها بين ذراعيه. وضعت رأسها الصغير في حجره وهدهدها لكي يريحها.

اللعنة، لماذا فرّ جيفري؟ إنّه محامٍ. وهو يدري جيّداً أنّ جنحة فرار مع وجود جريح تعني اتّهاماً بفعلٍ جُرمي.

أمال ناتان رأسه جانباً. شاهد الشرطي الذي تقدّم مباشرة نحوه. كانت أبواب سيارة الإسعاف قد انغلقت، وهي تنقل الطفل نحو قسم الطوارئ في مستشفى... أم ترى إلى معرض الجثث المجهولة؟

اللهمّ، احفظ هذا الصبي.

من جديد، نظر ناتان صوب الحفرة. كانت الدراجة الهوائية مسحوقة من جراء الصدمة. صعد أحد عناصر النجدة من الوادي الصغير وهو يمسك بإحدى يديه حقيبة ظهرٍ ممزّقة مربوطة إليها خوذة من الغرافيت لم يكن الولد قد تحمّل عناء اعتمارها. قطّب ناتان

عينيه. وكان الرجل يمسك باليد الأخرى غطاء الحتار الألمنيومي لسيارته الرباعية الدفع.

إذا مات الطفل، فسيُدان جيفري بعملية قتل.

شعر ناتان بأنّ المحامي الذي في داخله يستعيد تفوّقه.

قيادة بدون رخصة، تكرار جرم القيادة في حالة سُكر، جُرم الفرار، عدم مساعدة شخص في حالة خطر... اجتمعت كلّ الظروف المشدّدة للعقوبة.

كان يعلم أنّ في حالة كهذه قد تصل العقوبات المفروضة إلى خمس وعشرين سنة من السجن. بل وكان قد اطّلع على دعوى اتّهم فيها القاضي بالقتل العمد شخصاً كرّر الجرم وحكم عليه بالسجن مدى الحياة.

السجن! السجن! كانت هذه الحقيقة تومض في ذهنه.

وجّه الشرطي مصباحه نحو اللاند روفر. جال حول المركبة ورغم الظلام، لاحظ مباشرةً الأخاديد وغطاء الحتار الناقص.

لن يحتمل جيفري ذلك. لن يصمد أكثر من عدّة أشهر في زنزانة. أمّا ليزا، فلن تستطيع أبداً أن تتحمّل حبس زوجها.

ومالوري! سيموت ناتان، هو يعلم ذلك الآن. لن يعود موجوداً ليساندها وسوف تجد نفسها وحيدة حائرة. زوجها في القبر، ووالدها في السجن، ويتآكل العار والدتها.

ستكون تلك النهاية، فكّر، نهاية آل ويكسلر.

- بابا، أهذه القارورة لك؟ قالت بوني وهي تلوّح بزجاجة من الويسكي ثلاثة أرباعها فارغة وجدتها تحت مقعد الراكب.

لم يكن ينقصني إلا هذا.

- لا تلمسي هذه، يا طفلتي.

أعطى الشرطي إشارة بمصباحه ليطلب منه إنزال زجاج سيارته.

امتثل المحامي بهدوء.

اندفع الهواء الجليدي لتلك الليلة الباردة دفعة واحدة في قمرة السيارة. فكّر ناتان في مالوري. ستكون الساعات المقبلة عصيبة. تنهّد عميقاً.

- أنا... أنا مَنْ صدمتُ هذا الطفل.

24

بكلّ الأمور الاخرى، يمكن للمرء
أن يتزوّد بالأمان، ولكن بالموت، نسكن،
نحن معشر الرجال، في مدينة بلا أسوار.

ابيقور

مستشفى بيتسفيلد (MA) - قسم الطوارئ
الساعة الثامنة وست دقائق مساءً

- كلير، نحن بحاجة إليكِ!

بيد أنّ الدكتورة كلير جولياني، وهي طبيبة مقيمة شابّة، أنهت فترة خدمتها منذ دقائق، حينما استُدعيت من قبل مسؤولة الممرضات. لم يكن الطبيب المقيم الذي يتسلّم منها قد وصل بعد وثمة جريحٌ في حالة خطرة سوف «يُسلّم» لهم بين لحظة وأخرى. في أقلّ من عشر ثوانٍ، تخلّصت كلير من القلنسوة الصوفية ومن معطفها لترتدي الصدرية البيضاء التي كانت قد رتّبتها في قاع خزانتها المعدنية.

كان عليها أن تستعيد سريعاً تركيزها. لم يكن قد مرّ سوى شهر على تسلّمها المسؤولية الكاملة عن مرضاها وكانت مسكونة على الدوام بالخوف من ألاّ تكون على قدر تلك المسؤولية. الحق يقال، لم يمرّ ذلك الشهر على ما يُرام: فالطبيب المشرف على عملها لم يتوانَ عن الإشارة إلى أخطائها أمام الجميع. وقد تألّمت كلير لذلك كثيراً. ليس

من السهل دائماً أن يفرض الإنسان نفسه وهو بالكاد قد بلغ الرابعة والعشرين من عمره. عويل سيارة الإسعاف التي دخلت كالصاعقة إلى المرآب جمّد الدم في عروقها. في ذلك المساء، ستكون وحيدة في إدارة الأمور وسيكون عليها مواجهة الموقف. بعد بضع ثوانٍ، انفتحت الأبواب لتمرير النقّالة التي كان ينهمك من حولها المسعفون. استعادت كلير أنفاسها وخاضت في العمل وكأنّها تخوض في المحيط.

- ماذا لدينا، يا آرماندو؟ سألت أوّل مسعفٍ.

- طفلٌ في السابعة صدمته سيارة. وهو في غيبوبة منذ عشرين دقيقة. رضوض وكسور عديدة في الحوض والأضلاع وعظم الساق الأكبر. الضغط 9/6، النبض 110، التشبّع طبيعي. لا سوابق معروفة.

انحنت كلير على الطفل. كان المسعفون قد وضعوا له الأنبوب وركّبوا له المسالك الوريدية تجنّباً لهبوطٍ في الضغط. فحصت تنفّسه بوضع سمّاعتها على الجانب الأيسر من صدره.

ممتاز، لا انصباب للدم في الصدر.

ثمّ جسّت بطنه.

لا تمزّق في الطحال.

- حسناً، سنجري له فحص التأيّن، NFS، والتخثّر.

حافظي على هدوئك، يا كلير.

- أريد أيضاً: صورة بالسكانر للدماغ، وصورة شعاعية للقفص الصدري والحوض والرقبة والكتفين...

نسيتِ شيئاً ما، يا عزيزتي، نسيت شيئاً ما...

- ... وعظمَي الساق الكبيرين. هيا، ليعمل الجميع بنشاط! قالت. سنرفع بإشارة منّي: واحد، اثنان...

- ... ثلاثة! ثلاثة رجال، قلت لك! صرعتهم بلكمة واحدة.

يجب عدم إحضاري، أنا، أتفهم!

كان ناتان يُصغي من دون قصد إلى جاره في الزنزانة، وهو ثملٌ تسبّب بمشاجرة في سوبر ماركت وقد سجنوه معه في الزنزانة الوحيدة الشاغرة في مركز الشرطة. مرّ حوالى ربع ساعة على إغلاق الباب المشبّك عليه ولكنه لم يتقبّل فكرة أنه سيقضي الليل في السجن. خلال لحظة، فقد وضعه كمحامٍ جديرٍ بالاحترام ليرتدي ثوب شخصٍ رديءٍ فرّ بعد أن صدم صبيّاً بسيارته. لم يكن يستطيع التخلّص من منظر الطفل الذي صدمه جيفري. ذلك الجسد الهشّ والفاقد للروح، الضائع داخل مشمّعٍ متلألئ. كان قد سأل عن أخباره من رجال الشرطة ولكن لم يشأ أحدٌ أن يجيبه. فالناس لا يتحدّثون إلى القذرين.

لم يعلم إلاّ شيئاً واحداً، وهو أنّه يُدعى بن غرينفيلد.

كيفن، كانديس، وهذا الصغير بن...

من الآن فصاعداً، كان الموت وراء كلّ خطوة من خطواته. يتربّص به في كلّ زاوية من الشارع ليرمي في وجهه ضحايا أبرياء بانتظار أن يحين دوره. كان غاريت محقّاً: فالموت في كلّ مكان. كانت تلك الحقيقة التي لم يتجرأ قطّ على النظر إليها وجهاً لوجه، وها هي تتفجّر الآن في وجهه، مشوّشة رؤيته للعالم.

تبّاً، كم الطقس باردٌ هنا. وهذا القذر الذي لا يكفّ عن النهيق...

شبك ذراعيه ودلّك كتفيه. كان منهوكاً، خائر القوى من التعب والإحباط ولكنّه، في الوقت ذاته، كان وكأنّه قد أقسم ألا ينام أبداً.

كيفن، كانديس، بن... كانت رؤية أجسادهم الجريحة أو الميّتة

قد ولّدت في داخله شعوراً بالفزع والعجز. ترك نفسه يتهاوى على المقعد الخشبي الضيّق وأمسك رأسه بين يديه. مرّ شريط أحداث الساعتين السابقتين من جديد في ذهنه.

في اللحظة التي طلب منه الشرطي أن يفتح نافذة سيارته، تمدّد الزمن وتدافعت الأفكار في داخله. في نوعٍ من الوميض، أدرك فجأةً أنّه، هو الابن السابق لمدبّرة المنزل، كان يمسك بين يديه بمصير تلك العائلة المعتَبَرة.

هو الوصوليّ، المحدث النعمة، الذي لم يُقبَل قط داخل حلقة العائلة، بإمكانه من الآن فصاعداً أن ينقذهم جميعاً. وهذا ما سيفعله. لأنّ مستقبل أهمّ شخصين في حياته كان يتعلّق بكرامة آل ويكسلر. ولم يعد يهمّه بعد الآن سوى حبّه لمالوري وبوني.

لا أستطيع أن أخسر مالوري، فكّر. إن خسرتها، خسرتُ كلّ شيء.

كان قد طُلِبَ منه الخروج من السيارة من دون أن يأتي بحركات مفاجئة. ثمّ فُتّش من قمّة الرأس حتى أخمص القدمين وكُبِّلَت يداه. كان يعلم جيّداً بأنّ تلك الصورة ستبقى محفورة إلى الأبد في ذهن بوني: لقد شاهدت رجال الشرطة وهم ينقلون والدها مكبّل اليدين إلى سيارة دورية لاقتياده إلى السجن. إلى السجن. ماذا يمكنها أن تظنّ؟ في أعماقها، ماذا كانت تعرف حقّاً عن مهنة والدها؟ ليس الشيء الكثير. كان قد شرح لها أنّه «محامي مؤسسات» ولكنّه كان يدرك جيّداً أنّ ذلك لم يكن ليعني لها شيئاً. بالمقابل، كانت بوني تعرف تمام المعرفة ما هي الشرطة. كان دور الشرطة هو توقيف المجرمين. وقد أوقفت الشرطة والدها.

لعدم تدبير أيّ شيء، صادر رجال الشرطة زجاجة الويسكي التي كان حموه قد شرب معظمها. في ولاية ماساشوسيتس، كان من

الممنوع نقل زجاجة كحول في السيارة وهي مفتوحة. وكانت بالتالي تلك جنحة أخرى كان على ناتان أن يتحمّل مسؤوليتها. وإضافة إلى ذلك، كان قد جانب المصيبة، لأنّ الضابط الذي استجوبه اعتبر أنّ وجود زجاجة الويسكي يؤدّي حتماً إلى قيادة السيارة في حالة سُكر. احتجّ ناتان على ذلك بحدّة. وكان قد استعد من تلقاء نفسه لاختبارات الاتّزان: أن يتابع ببصره إصبعاً وأن يلمس سريعاً كلّ أصابع اليد الواحدة وهو يعدّها بإبهامه من جانبٍ ومن ثمّ بالعكس... ولأنّ الشرطي لم يكن مقتنعاً، أصرّ المحامي على أن يجري اختباراً بجهاز قياس الكحول. بالطبع لم يكن في دمه حتى غرام واحد من الكحول ولكن رجال الشرطة أحبطوا كثيراً لنتائج الاختبار بحيث أعادوا الاختبار لثلاث مرّات، من دون تسجيل أي نجاحٍ. فلم يتم توقيفه «إلاّ» بجنحة الفرار.

كانت القضية جدّية جدّاً. لم يكن انتماؤه إلى نخبة رجال القانون يعفيه من مواجهة مسؤولياته: فقد تسبّب في حادثة أدّت إلى وقوع جريحٍ مخطر وقد يعرّضه ذلك إلى المعاقبة بعدّة سنوات من السجن. هذا دون الأخذ بالحسبان أنّ الأمور قد تتعقّد أكثر لو أنّ بن مات لسوء الحظّ.

– اللعنة، البرد يفلق الخصيتين هنا! زعق السكّير الذي بجانبه.

تنهّد ناتان. كان عليه ألا يعير انتباهاً لذلك الشخص. أن يكون قوياً. غداً، سيحدّد قاضٍ مبلغ الكفالة –وسيكون مرتفعاً جدّاً– وسيُفرَج عنه إفراجاً مشروطاً. وإذا كانت هناك دعوى، فلن يكون ذلك إلا بعد عدّة شهور، وآنذاك، لن يعود موجوداً في هذه الدنيا. وربّما سيواجه آنذاك قاضياً آخر، أكثر رعباً بكثير من قاضي محكمة في ماساشوسيتس...

في اللحظة نفسها، وعلى بعد أكثر من مئة كيلومتر من هناك، كانت آبي كوبرز تركن سيارتها الصغيرة من طراز تويوتا في مرآب بقالية قرب نورووك. على غطاء السيارة، نشرت أمامها دليل طرق بحثاً عن أفضل مسارٍ إلى ستوكبريدج.

- آتشاااا! آتشاا!!

عطست آبي عدّة مرات. كانت مصابة بزكامٍ شديد مصحوبٍ بصداعٍ عنيف. باختصار، كان ذلك الثلج الذائب القذر يستأنف سقوطه، مبلّلاً زجاج نظارتها. يا للشؤم! حاولت لمرات عديدة أن تضع عدسات ولكنّها لم تعتد عليها فعلاً.

للمرة المئة، أدارت في رأسها وأعادت إدارة الحديث الذي خاضته مع رب عملها. حتماً، لم تستطع أن تصدّق تلك الحكاية. ناثان في السجن! قبل أن يُعتَقَل، كان له الحقّ في إجراء مكالمة هاتفية، وقد اختار الاتصال بالمكتب. وطلب الحديث إلى جوردان ولكن الشريك الأساسي كان غائباً وهي من ردّت عليه. شعرت حقّاً بالضيق والانزعاج بعد انتهاء المكالمة. وقد اعتصر قلبها بشدّة بحيث قررت أن تغادر من دون إبطاء. ولكن كيف يمكنها أن تتصوّر أنّه قد فرّ تاركاً ذلك الطفل على قارعة الطريق؟

هل نعرف الناس حقّاً الناس في أعماقهم؟ ربّما كانت تنظر إليه بمثالية مفرطة. صحيحٌ أنّهما كان على تفاهم حقيقيّ في العمل. وكانا يشكلاَن فريقاً جميلاً. ربّما كان معروفاً بكونه وصولياً، وسمك قرشٍ وقحاً، مستعداً لكلّ الشبهات ولكنها كانت تعرف فيه جانباً من الهشاشة والشك. أحياناً، في منتصف النهار، حينما يكون الطقس جميلاً، كانا ينزلان معاً لتناول شطيرة على أحد مقاعد بريانت بارك. في تلك اللحظات، كانا يشهدان تقارباً عابراً. كانت تجد فيه شيئاً جذّاباً جداً، يكاد يكون طفولياً.

بعد طلاقه، تمنّت أن يأتي وقت يتقرّب فيه منها، ولكن ذلك لم يحدث. شعرت بأنّه لا يزال متعلقاً كثيراً بزوجته، مالوري. كانت قد رأتهما معاً لعدّة مرات حينما كانت لا تزال تعمل في سان دييغو. كانا يشكلان فعلاً زوجَيْن مدهشَيْن، وكأنّ بينهما شيئاً أبديّاً.

مستشفى بيتسفيلد- قاعة الانتظار

الساعة الواحدة وأربع وعشرون دقيقة فجراً

- السيد والسيّدة غرينفيلد؟

كانت كلير جولياني تعبر قاعة الانتظار متخوّفة. كانت تخشى اللحظات الشبيهة بتلك.

- نعم يا آنستي.

رفع الزوجان القلقان بشدّة منذ عدّة ساعات وجهيهما المتلهّفين نحو الطبيبة المساعدة الشابّة. كانت عينا الأم مغرورقتين بالدموع، وعينا الأب ممتلئتين بالغضب.

- أنا الدكتورة جولياني. وأنا من اهتممتُ بأمر بن لدى وصوله و...

- يا إلهي، كيف حاله، يا دكتورة؟ قاطعتها الأم. هل يمكننا رؤيته؟

- يعاني ابنكما من عدّة كسور، استأنفت كلير كلامها، وقد جعلنا حالته تستقر ولكنّه تعرّض لصدمة في جمجمته أدّت إلى رضٍّ دماغيّ شديد مع ورمٍ دموي.

- ورم دموي؟

- إنّها... إنها وذمة، يا سيدتي. وذمة تضغط على الكتلة الدماغية. نبذل الآن ما بوسعنا لإيقاف تزايد الضغط الداخلي للجمجمة ويمكنني أن أطمئنكما بأنّ...

- ما معنى كلّ هذا؟ سأل الأب منزعجاً.

- هذا يعني أننا لا نستطيع بعد القول إنّ ابنكما سيخرج من الغيبوبة، شرحت كلير بهدوء. ربّما لبضع ساعات، ربّما أكثر... علينا أن ننتظر.

- ننتظر ماذا؟ أن نرى إن كان سيستيقظ أم سينهي بقية أيامه مثل...

حاولت كلير أن تطمئنهما:

- يجب أن نتحلّى بالأمل، يا سيّدي، نصحت محدّثها وهي تضع يدها على كتفه.

ولكن هذا الأخير تملّص بقوة ليوجّه عدّة لكمات عنيفة لأحد موزّعي المشروبات.

- سوف أقتله! إذا لم يستيقظ بن، سوف أقتل محامي الشؤم هذا!

19 كانون الأوّل

- من غير الوارد أن تتحمّل مسؤولية هذا الخطأ نيابة عنّي!

كان جيفري ويكسلر وصهره جالسين إلى طاولة في غرفة داخلية من مطعم لسائقي شاحنات شركة النقل بين الولايات انترستيت 90. طلبا الكثيرَ من القهوة. فوق طاولتهما، أشارت ساعة دعائية من شركة كوكا كولا قديمة إلى الساعة الثانية فجراً. كان المكان يضجّ بالحركة: وقد أعلنت محطة الإذاعة لتوّها عن احتمال أن تكون الطرقات زلقة في الساعات المقبلة وبلغ الحديث الصاخب لسائقي الأوزان الثقيلة حدّ التغطية على الهدير المتواصل لحركة السير.

كان قد أُطلِق سراح ناتان قبل نصف ساعة من ذلك من قبل تومي

ديلوكا، مساعد العمدة. كان المحامي قد طلب منه الإذن، عند منتصف الليل، للذهاب إلى المراحيض. لم يرفض الناظر المتدرّب التماسه فحسب بل استغلّ ذلك ليوجّه له بعض الشتائم ويروي له بالتفصيل العذابات التي سيسبّبها له سجناء إصلاحية لويل حينما «سينزل فيه لعشرين سنة».

كان جيفري قد دفع مبلغ الكفالة، الذي حدِّد بخمسين ألف دولار، في حين تكفّلت آبي بالإجراءات القانونية. واستعاد ناتان أمتعته الشخصية، ولم يكن لديه سوى رغبة وحيدة: الفرار بأسرع ما يمكن.

- إلى اللقاء القريب، قال له مساعد العمدة مع ابتسامة خفيفة ساخرة.

وقد نجح المحامي ليس من دون مشقّة في التحكّم بنفسه. لم يردّ، مكتفياً برفع رأسه والوقوف منتصباً مثل «الألف» وإن كان مرضوض الظهر بعد ليلة قضاها من دون نوم على سريرٍ خشبيٍّ قاسٍ.

وهو يفتح الباب الزجاجي، آخر متراسٍ قبل الخروج إلى الحرية، شاهد تقاسيم وجهه المتعبة في البلّور ووجد نفسه في هيئة شبحية، وكأنّه قد شاخ عدّة سنوات في ليلة واحدة.

جاء جيفري، برفقة سائقه، الذي انتظره وسط برد الصباح. أظهر ويكسلر، وقد حلق ذقنه حديثاً، وتدثّر بمعطفٍ كشميريّ أنيق منحه قوام فارسٍ، صلابةً. وكان من الصعب التصوّر أنّ هذا الرجل ذاته قد شارف على الدخول في غيبوبة كحولية قبل بضع ساعات، حتى وإن كشفت النفثات الطويلة التي أخذها باضطراب من سيجاره عن توتّرٍ عصبيّ أكيد.

اكتفى جيفري، الذي قلّما ألِف المبادرات الودية، بأن ربّت بخفّة

على كتف صهره تشجيعاً له، حينما جلس هذا الأخير في السيارة. ما إن استعاد هاتفه المحمول، حاول ناتان الاتصال بمالوري في البرازيل، ولكنه سمع بعد عدّة رنّات، المجيب الآلي. ولم يكن جيفري، الذي حاول من جهته مراراً عديدة الاتصال بها، أوفر حظّاً. ومن ثمّ أنزلهما السائق أمام مطعم على الطريق السيّار. كان الرجلان يعلمان بأنّ ليس بوسعهما تجنّب حديثٍ يدور بينهما.

- لا يجوز أن تتحمّل مسؤولية هذا الخطأ نيابة عنّي! ردّد جيفري وهو يشدّ قبضته على الطاولة الصغيرة المصنوعة من الفورميكا.

- أؤكّد لك أن هذه أفضل طريقة.

- اسمع، ربّما أنني سكّير ولكنني لستُ جباناً. لا أريد التهرّب من مسؤولياتي.

لم يشأ ناتان الدخول في ذلك المنطق:

- تكمن مسؤولياتك، الآن، في أن تهتمّ بعائلتك وأن تدعني أتصرّف.

لم يتحيّر المحامي العجوز:

- لم أطلب منك أيّ شيء. وما أقدمتَ عليه هو فكرة خاطئة، وأنت تعلم مثلي تماماً بأنّك تخاطر مخاطرة كبيرة.

- ليس أكثر منك، يا جيفري. هل ترغب حقّاً أن تنهي أيامك في السجن؟

- لا تمثّل دور البطل، يا ناتان. لنكن واقعيين: أنا عشتُ حياتي في حين أنّ لديك ابنة تحتاج إليك. ثمّ... تعلم جيداً بأنّه ربّما لم ينته كلّ شيء مع مالوري... اشعر بمسؤوليتك بعض الشيء!

- ستحتاجان إليك أنت، يا جيفري، أجاب ناتان تائه النظرة.

قطّب ويكسلر حاجبيه.

- لا أفهم ما تقوله.

تنهّد ناتان. كان عليه أن يعترف بجزءٍ من الحقيقة لحميه. لم يسعه فعل غير ذلك، حتى وإن كان من غير الوارد أن يذكر المبشّرين. تردّد لثوانٍ ثمّ اعترف:

- اسمع... سأموت، يا جيفري.

- ماذا تقول؟

- أنا مريض.

- أتسخَر مني؟

- كلا، الأمر جدّي.

- ماذا؟ أأنت مصابٌ بـ... بسرطان؟

هزّ ناتان رأسه.

كان جيفري ويكسلر مذهولاً. وكان ناتان يواجه الموت!

- ولكن، ولكن... هل راجعت أطباء أكفّاء على الأقلّ؟ غمغم. أنت تعلم أنني أعرف أفضل أطباء MGH (مستشفى ماساشوسيتس العامّ).

- لا جدوى من ذلك، يا جيفري، لا أمل في شفائي.

- ولكنك لم تبلغ حتى الأربعين من عمرك. لا يموت المرء في الأربعين من عمره! صرخ، وقد جعل بعض زبائن الطاولات المجاورة يلتفتون إليه.

- لا أمل في شفائي، كرّر ناتان بأسى.

- بيد أنّه لا يبدو عليك أنّك مشارفٌ على الموت، ألحّ جيفري الذي لم يشأ أن يتقبّل هذه الفكرة.

- هذه هي الحال.

- تبّاً، إذاً.

طرف الرجل العجوز بعينيه مراراً عديدة. سالت دمعة على طول خدّه ولم يفعل شيئاً لمقاومة تأثّره.

- وكم من الوقت بقي لك؟

- لم يعد لدي الكثير. بضعة أشهر... وربّما أقلّ.

- اللعنة، غمغم جيفري بهدوء لأنّه لم يدرِ ما بوسعه قوله سوى ذلك.

اتّخذ ناتان لهجة ملحّة:

- اسمع، لا تتحدّث عن الأمر لأيّ شخص، يا جيفري، لقد فهمتني جيّداً، لأيّ شخص. مالوري ليست على علمٍ بذلك بعد، وأريد أن أخبرها بنفسي.

- طبعاً، غمغم.

- اعتنِ بها، يا جيفري. أنت تعلم أنّها تحبّك كثيراً. هي بحاجة إليك. لماذا لا تتصل بها كثيراً؟

- لأنني أخجل، أسرّ له العجوز.

- ممَّ تخجل؟

- أخجل من نقيصتي هذه، الخجل من كوني غير قادرٍ على الكفّ عن الشرب...

- لكلٍّ منّا نقاط ضعفه، أنت تعلم ذلك جيّداً.

كانت الآية مقلوبة. فناتان هو مَنْ سيموت وهو مَنْ يواسيه! لم يدرِ جيفري ما عليه فعله ليعبّر عن تعاطفه. كان بالفعل مستعداً لإعطاء أيّ شيء كان في سبيل إنقاذ حياة صهره. برزت باقة من الذكريات على السطح: تذكّر ناتان في العاشرة من عمره، حينما كانا يذهبان إلى صيد السمك أو يصطحبه لزيارة «أكواخ السكّر» التي كانت تدرّ شراب القيقب. آنذاك، كان يعتبره بمثابة ابنه وينوي مساعدته في دراسته.

وفيما بعد، ربّما سيتمكّنان من العمل معاً، وتجهيز مكتبهما الخاصّ (ويكسلر آند ديل آميكو) والتشارك في موهبتهما للدفاع عن القضايا العادلة: التصالح بين الناس، الدفاع عن الضعفاء... ولكن قضية السوار وهذا المشروب اللعين أفسدا كلّ شيء. هذا المشروب والمال، هذا المال السيئ الذي أفسد كلّ شيء، الذي جرّد كلّ شيء من معناه، في حين أنّ كلّ شيء ينتهي هكذا: بالموت.

اجتاحت قشعريرة غامضة هيكله الشائخ، بدءاً من نخاعه الشوكي مروراً بالكتفين والبطن. البارحة مساءً، لم يكن يدرك حتى أنه قد صدم ذلك الطفل. كيف أمكن ذلك؟ كيف يمكن للمرء أن ينزل إلى هذا الحضيض؟

ومع أنّه سبق له أن قطع ذلك الوعد مئة مرة، فقد أقسم من جديد إنّه لن يلمس في حياته قطرة من الكحول أبداً.

ساعدني، يا ربّ، تضرّع إلى الله ذهنياً، وإن كان يعلم بأنّ الله قد تركه لمصيره منذ زمنٍ طويل.

- دعني أكون محاميك، قال فجأة لناتان، دعني على الأقلّ أدافع عنك في قضية الحادث هذه.

شعر بأنّ هذا هو الشيء الوحيد الذي لا يزال قادراً على إجادته.

هزّ ناتان رأسه في إشارة على موافقته.

- سوف أخلّصك من هذه الورطة، وعد جيفري الذي استعادت نظرته بريقها. هذه قضية قذرة ولكنني سأبذل قصارى جهدي لأحصل على صفقة مع النائب العام: لنقل ثمانية عشر شهراً من الترقّب وحوالى مئة ساعة من الخير العامّ. سوف أنجح في ذلك، أنا المحامي الأفضل...

شرب ناتان جرعة من القهوة، ثم قال له مبتسماً:

- من بعدي، أنت الأفضل.

لتحية تلك اللحظة من التوافق، اخترق شعاعٌ خافتٌ من الشمس الغيوم. فاستدار المحاميان نحو الواجهة الزجاجية ليستمتعا بتلك الحرارة الجديدة. في تلك اللحظة تحديداً، دخلت آبي إلى مرآب المطعم حيث كان من المتفق أن تلتقي الرجلين. بناءً على طلب جيفري، كانت قد استعارت السيارة الرباعية الدفع. ولأنّ ناتان لم يكن في حالة سُكر أثناء وقوع الحادث، لم يُمنَع من قيادة السيارة أثناء التوقيف. وبالتالي كان له كامل الحقّ في القيادة إلى حين صدور الحكم.

أشار ناتان لسكرتيرته بإشارة صغيرة عبر الواجهة الزجاجية.

- سوف تصاحبك حتى مانهاتن، قال له جيفري وهو ينهض من كرسيه. وسوف أهتم بتوصيل سيارتها.

- سوف آخذ بوني معي، أعلن ناتان بلهجة واثقة.

بدا جيفري متضايقاً.

- اسمع. . . لقد اصطحبتها ليزا هذا الصباح لقضاء يومين في نانتوكيت. إنّها. . .

- ماذا! تنتزعون منّي ابنتي في لحظة كهذه!

- لا أحد ينتزعها منك، يا ناتان. سوف أصطحبها إلى نيويورك حال عودتها. أعدك بذلك. خذ ببساطة بعض الوقت لتستعيد حالتك الطبيعية.

- ولكن لم يعد لديّ وقت، يا جيفري!

- سوف أبعثها إليك بعد غد، أعدك. حاول أن ترتاح قليلاً.

قبل ناتان.

- حسناً.

وبعد صمت، أضاف:

- ولكن اتّصل بي مباشرةً إن حصلت على أخبارٍ عن مالوري.

انضما إلى آبي في المرآب. بدت المرأة الشابة متضايقة.

- أنا سعيدٌ برؤيتكِ، يا آبي.

تقدّم ناتان ليضمّها بين ذراعيه ولكنّها تجمّدت في مكانها.

- تمّت تسوية كلّ شيء فيما يخصّ الكفالة، قالت بلهجة مهنية، وكأنها تتحدث عن الوضع القانوني لأحد زبائنهم.

- هل لديكِ أخبار عن الطفل؟ سأل المحاميان في اللحظة نفسها، وهما يعلمان بأنّها قادمة من المستشفى.

- لا يزال في الغيبوبة. لا يزال التشخيص متحفّظاً. في كلّ الأحوال، لو كنتُ في مكانك لما وضعتُ قدميّ في المستشفى، حذّرت ملتفتة إلى ناتان. فوالدا الطفل منفعلان جداً.

لم يستطع جيفري الامتناع عن خفض رأسه. ولم يردّ ناتان بشيء. رافق جيفري حتى سيارته وشدّ على يده مطولاً. هل سيرى مرّة أخرى حميه؟

ثمّ استدار نحو سكرتيرته.

- أشكرك خالص الشكر لمجيئك، يا آبي.

- أنا بخدمتك، أجابت المرأة الشابة، ولكن استُشفّ من صوتها أنّ الكلام لم يكن من قلبها. أدارت له ظهرها وضغطت على زرّ المفتاح الآلي لتفتح أبواب السيارة.

- سوف أقود بنفسي إذا لم يسبب لك هذا الأمر مشكلة.

- أخيراً، يا آبي، لا تكوني مضحـ...

- سوف أقودا ردّدت آبي بإلحاحٍ بحيث فضّل ناتان ألاّ يعارضها.

كان يهمّ بالجلوس في المقعد الجانبي، حينما مرّت سريعاً بجانبهما سيارة قديمة أحادية المقعد من طراز كرايسلر.

خرج رجلٌ قويّ البنية من السيارة وأنّبه بعنف:

- أنت قاتل! كان ينبغي أن تُودَع السجنَ وألا تُخرَج منه أبداً.

- إنّه والد الطفل الذي صدمتَه، حذّرته آبي بصوتٍ قلق.

رفع ناتان صوته:

- اسمع، يا سيد غرينفيلد، كان ذلك حادثاً... وأنا أفهم ألمك. دعني فقط أؤكّد لك أنّ ولدك سيحظى بأفضل عناية طبية. ويمكنك أن تطلب تعويضاً ضخماً.

كان الرجل قريباً جداً منه ويزمجر غضباً. أراد ناتان أن يهدّئه ولكنه كان يعرف ما سيشعر به شخصياً حيال سائقٍ لو أنّه صدم بوني.

- لا نريد مالك القذر، نريد العدالة. لقد تركت طفلاً محتضراً في حفرة، أنت دنيء. أنت...

لم يكن ناتان قادراً على تجنّب اللكمة الرهيبة التي طرحته أرضاً. ثمّ انحنى الرجل فوقه. أخرج صورةً لابنه من قاع جيبه ولوّح بها أمام عينيه.

- آمل أن يلاحقك هذا الوجه طوال حياتك!

نهض ناتان بمشقّة. وضع يده على أنفه. سقطت قطرات كبيرة من الدم على الثلج، راسمة ما يشبه سهماً أحمر اللون على الأرض.

25

أعتقد أنّك تعرف بقدر ما أعرف ما هي المشكلة...

الحاسوب هال في مغامرة الفضاء 2001

- كفّي عن النظر إليّ هكذا، يا آبي.

كانا يسيران نحو نيويورك. منذ ما يقارب نصف ساعة لم يتبادلا عملياً كلمة واحدة.

- إذاً، هل هذا صحيح؟ سألت السكرتيرة وهي تتجاوز شاحنة.

- ماذا؟

- أنك تركت حقاً صبياً محتضراً على قارعة الطريق؟

تنهّد ناتان.

- لم أتركه. لقد سبق أن شرحت لكِ أنني عدتُ إلى بيت حمويَّ لأطلب الإسعاف.

وجدت آبي الحجة غير كافية.

- كان معك هاتفك!

- كنتُ قد نسيته، هذا كلّ ما في الأمر، ردّ ناتان، مغتاظاً.

هزّت المرأة الشابة رأسها متشككة في كلامه وهي ترتدّ إلى الرتل الأيمن.

- آسفة، ولكن هذا لا يُصدّق أبداً.

- ولماذا؟

- لقد رأيتُ مكان الحادث. هناك الكثير من السكان بجواره. كان بوسعك أن تتوقّف لتتصل من أيّ بيتٍ كان.

- لقد. . . لقد فزِعت، هذا كلّ ما في الأمر، اعتقدتُ أنني أقرب إلى مزرعة. . .

عمّقت آبي المسمار في الجرح:

- لو أنّك طلبت الإسعاف على نحو مبكر، ربّما كان له حظّ أوفر في النجاة. فالأمر يتعلّق في نهاية المطاف بحياة طفل!

- أعرف ذلك، يا آبي.

ثمّ وكأنّها تحاكي نفسها، أضافت بصوتٍ خفيضٍ:

- خسارة، هذا الصبي في عمر ابني.

ذُهِل المحامي.

- لم تقولي لي قط إنّ لكِ ابناً.

- إنّه ليس بحضانتي، هذا كلّ ما في الأمر.

- لم أكن أعلم، غمغم ناتان.

بدا فعلاً، من خلال صوته، مشوّشاً.

- نعم، أنت ترى، يمكننا أن نعمل سنوات عديدة مع شخصٍ ما دون أن نعرف الشيء العظيم عن حياته الشخصية. وأضافت بلهجة عتب، هكذا هي الحال، إنّه البزنس، إنّه العصر. . .

صمتت للحظة، ثمّ أوضحت:

- رغم كلّ شيء، بطريقة ما، كنتُ دائماً معجبة بك. لقد لحقت بك من دون تردد من سان دييغو إلى نيويورك لأنني كنتُ أجد أنّك مختلف عن كلّ أولئك الشبّان اللامعين الصغار. اعتقدتُ لو أنني واجهتُ يوماً مشكلة، فستكون حاضراً لمساعدتي. . .

- كنتِ تنظرين إليّ نظرة مثاليّة، يا أبي.

- دعني أُكمل! باختصار، كنتُ أعتقد بأنّك في الجوهر شخصٌ طيّب، شخصٌ ذو قيم...

من جديد، تجاوزت بحذر شاحنة وأخذت وقتها لتنتظم في الرتل قبل أن تتابع:

- يؤسفني أن أقول لك ذلك ولكن، منذ البارحة مساءً، فقدتُ أوهامي. فقدتُ الشيء الأهمّ.

- وما هو؟

- أنت تعرفه جيّداً: الثقة.

- لماذا تقولين هذا؟

للحظة، أهملت الطريق وأدارت رأسها نحوه.

- لأنّه لم يعد بوسعي أن أثق بشخصٍ ترك طفلاً محتضراً على قارعة الطريق.

كان ناتان يستمع دون اعتراض. لم تكن قد تحدّثت إليه قط بهذه الطريقة. راودته النية للحظة في أن يضغط على المكابح ويكشف لها كلّ شيء في عرض الطريق السيّار: المبشّرون، والموت الذي كان يرعبه، وضرورة اللجوء إلى الكذب لحماية زوجته وابنته...

ولكنّه لم ينهر، ولم يتلفّظا بكلمة بعد ذلك إلى أن وصلا إلى مانهاتن. لكي تسير الأمور، كان ينبغي ألا يعرف أحد ذلك.

لا أحد، سوى بوني ومالوري.

- السيد ديل آميكو، تعليقٌ مقتضب لتلفزيون تريال!

دفع المحامي بعنف الميكرو الذي مدّه الصحافي نحوه. ومن خلفه، حاول مصوّر صحافي أن يختلس بضع صورٍ له. كان ناتان يعرف هذين الشخصين: يعملان في محطة تلفزيونية تعمل بخدمة

الكابل متخصّصة في التغطية الإعلامية للقضايا القانونية المثيرة.

تبّاً، في النهاية لستُ أو. جي. سيمبسون.

ترك آبي تمرّ من أمامه ثم دلف بدوره إلى مبنى بارك آڤينيو.

أراحته رؤية الفسيفساء البيزنطية لبهو المدخل. ذهبت آبي مباشرة إلى مكتبها بينما توقّف هو في الطابق الثلاثين في قاعة الرياضة والاستراحة. بقي لنحو نصف ساعة تحت دفق الماء الحارّ لرشّاش الحمام لشدّة ما كان مرهقاً، خاوياً من كلّ طاقة، منكّس المعنويات. ثمّ شعر تدريجياً بأنّه ينتعش، وقد بدت المياه تؤثّر فيه كما تؤثّر في النبات. فدخل إلى مكتبه نظيفاً، حليق الذقن. كانت آبي تنتظره صامدة. وقد أعدّت له فنجاناً كبيراً من القهوة مع بعض الفطائر. فتّش في خزانته ووجد فيها قميصاً جديداً لا يزال مغلّفاً بغلافٍ بلاستيكي.

الترف الفائق، فكّر وهو يرتديه.

ترك نفسه يتهاوى في أريكته الجلدية، شغّل حاسوبه، وسحب نحوه بعض الملفات المتراكمة على الطاولة. كانت العودة إلى هذا المكتب، الذي قضى فيه الكثير من الساعات وعرف فيه الكثير من الانتصارات، بمثابة عزاءٍ له. كان يحبّ ذلك المكان. كان يحبّ مهنته، وكلّ تلك الأبّهة التي منحته الشعور بأنّه ذو مكانة مرموقة. ويمكنه التصرّف من دون أن يخضع كثيراً للأحداث.

حاول من جديد الاتصال بمالوري ولكن لم ينجح. فاتّصل بالموقع الإلكتروني لصحيفة ناشيونال لاوير. كانت الأخبار تنتشر سريعاً جداً في ذلك الوسط. إذا كان هناك صحافيان في المكان الذي لجأ إليه فذلك لأنّ أصداء موضوعه كانت قد انتشرت. لم يستغرق الوقت طويلاً حتى وجد ما كان يبحث عنه بحيث حينما ضغط على زاوية «أخبار اليوم»، كانت المقالة التالية أوّل ما ظهر له:

محام شهير في بارك آڤينيو متورّط في حادث سيرٍ خطير.

ناتان ديل آميكو، أحد نجوم المحاماة في مكتب ماربل آند مارش، أوقِفَ الليلة الماضية بجرم الفرار بعد أن صدم دراجاً شاباً على طريقٍ ضيّقٍ في ستوكبريدج (AM).

بعد أن نقل بشكلٍ عاجل إلى مستشفى مقاطعة بيتسفيلد، الضحية، البالغ سبع سنوات، الآن في حالة يعتبرها الأطباء حرجة للغاية. ويُفترض أنّ يُدافع عن المحامي، الذي أُطلِق سراحه صبيحة اليوم لقاء كفالة مالية مقدارها خمسون ألف دولار، من قبل المحامي جيفري ويكسلر، أحد محامي بوسطن المرموقين.

أيّاً كانت عواقب هذه القضية، يمكننا أن نؤكّد أنّها ستؤدّي بالتأكيد إلى توقّف عمل ما كان يسمّيه أصحاب المهنة أحياناً «أمادوس» بسبب المهارة التي أظهرها في بعض القضايا الحسّاسة.

حينما سُئِل، يوم الجمعة 20 كانون الأول، أشار المساهم الرئيسي في ماربل آند مارش، السيد آشلي جوردان، أنّ هذه القضية «لا تخصّ سوى بالصفة الشخصية» مساعده «وليست لها أية صلة بنشاطات المؤسسة التي يعمل فيها».

وإذا ما أُدين بهذه الاتهامات، فإنّ ديل آميكو معرّض لخطر الحكم عليه حتى بثمانية أعوام من السجن.

شكراً لمساندتك، يا آشلي، فكّر ناتان وهو يقطع الاتصال.

لم يستطع أن يحيد ببصره عن المقال. كانت صحيفة ناشيونال لاوير الصحيفة المرجعية للمحامين، والتي تنشر الغثّ والثمين في ذلك الوسط.

أعاد قراءة مقطع من جملةٍ («. . . توقّف عمل. . .») مع ابتسامة مريرة على شفتيه. نعم، كان ذلك مؤكّداً، سوف يتوقّف عمله ولكن ليس للأسباب التي أشارت إليها الصحيفة.

ورغم ذلك، لم يكن ذلك رحيلاً مشرّفاً. فقد أمضى سنوات في تجميل صورته كنجمٍ من نجوم المهنة، وفي اختيار منهجيٍّ للقضايا التي عمل عليها لكيٍ يشتهر. وكل تلك العمارة الجميلة كانت تنهار خلال بضع ساعات فقط.

قاطعته آبي في أفكاره:

- لقد تلقينا فاكساً غريباً، قالت وهي تمرّر رأسها من فرجة الباب.

- لا أدري إن كنتُ سأبقى، يا آبي. انظري في ذلك في ما بعد مع جوردان.

- ومع ذلك أعتقد أن هذا سيثير اهتمامك، قالت بلهجة غامضة.

في البداية، لم يتبيّن ناتان الشيء العظيم في ذلك. كانت عبارة عن صورة بالأسود والأبيض، مشوّشة بعض الشيء، لسيارة رياضية أمام محطة وقود في محطة خدمة. وكان جزءٌ من الصورة قد كُبّرت في زاوية لكي يمكن قراءة - أو الأحرى تخمين - أرقام لوحة التسجيل.

لا شكّ: كانت سيارته الرباعية الدفع.

لاحظ المحامي عرضاً أنّ السيارة كانت لا تزال في حالة جيّدة: لم تكن هناك خدوش وكان غطاء الحتار الأمامي الأيمن للإطار في مكانه...

إذاً الصورة تعود إلى ما قبل وقوع الحادث.

وكان أحدهم قد خربش، كأسطورة، العنوان مذيّلاً بصفحة ويب تُدار من قبل مستضيفٍ ذي شعبية كبيرة. وبدا أن العبارة تقترح: **البقية على الويب...**

استدار ناتان نحو حاسوبه وأشار إلى محرّك البحث ليدخل إلى الموقع المذكور. وقد قادته مداولاته إلى شاشة فارغة سوداء، مسطّرة فقط برابطٍ نصيٍّ. نقر عليه ولكن لم يسفر ذلك عن شيء: كان الرابط متوقّفاً.

ما هذه البلاهات؟ وكانت بضع دقائق كافية ليستولي عليه من جديد تعكّرٌ في المزاج.

طلب من آبي أن ترى مصدر الفاكس. وبفضل الخدمة الموصولة لدليلٍ معاكس، احتاجت المرأة الشابة إلى أقلّ من دقيقة لتحدّد مصدره.

- الرقم من كوبيشوب *(copyshop)* بيتس-فيلد *(Pits-field)*، قالت.

ياه، بعبارة أخرى، مكانٌ يمكن لأيٍّ كان أن يرسل منه فاكساته بطريقة مجهولة.

عاود ناتان كتابة عنوان الموقع حريصاً على ألا يرتكب أخطاءً في كتابة أحرفه. ولكن ظلّت الشاشة هي نفسها. لا شيء.

من جديد، نظر إلى الصورة. ما الذي أُريد أن يُقال له؟ مَن يقف وراء كلّ هذا؟ حينما التفت إلى الحاسوب، كانت رسالة خطأ ظاهرة على الشاشة. ضغط ناتان على زرّ التحديث وظهر الرابط النصيّ من جديد. نقر فوقه: فانفتح برنامج عرض ملتيميديا في نافذة موازية وبدأ فيلمٌ قصير بعد لحظة من ذلك. بفضل برنامج الاتصال الفائق الدقّة الخاص بالمكتب، تمكّن ناتان من رؤية الفيلم المصور بوضوحٍ شديد.

كان الفيلم عبارة عن صور متعاقبة التقطتها كاميرا المراقبة لإحدى محطات الخدمة. وكانت في سياق الصورة نفسه عدا أنّ هذه المرة

كان يمكن رؤية جيفري ويكسلر منحنياً على السيارة الرباعية الدفع وهو يملأ البنزين. لم يدرك ناتان في الحال نوايا الشخص الذي يعرض عليه تلك الصور. ثمّ لاحظ أنّ التاريخ والتوقيت مدوّنان في أسفل يمين الصورة: 19 كانون الأول في الساعة السابعة و14 دقيقة مساءً.

قرأ، في تقرير الشرطة، أن الحادث ربما قد وقع تقريباً حوالى الساعة السابعة وعشرين دقيقة. لم تكن هناك 36 ألف محطة خدمة بجوار ستوكبريدج. جعل رقم المضخّة وشعار تيكساكو المرئي على الشاشة من السهل تحديد ذلك المكان وكان ناتان شبه مقتنع بأنّها محطة ناومكيغ، غير البعيدة عن المكان الذي صُدِمَ فيه بن غرينفيلد.

والحال، إذا كان جيفري يقوم بملء الوقود في الساعة السابعة و14 دقيقة فهذا لا يدع مجالاً للشكّ في أنّه هو المذنب.

فجأةً قفزت الصورة إلى مشهدٍ آخر. كانت اللحظة التي دفع فيها جيفري الحساب قد قُطِعت من التسجيل. وأصبحنا نشاهد الآن الرجل العجوز وهو يعود مترنّحاً نحو السيارة الرباعية الدفع قبل أن يحتسي كأساً من الخمر ويهمّ بقيادة السيارة.

- ولكن هذه الصور تبرّئك تماماً، صاحت آبي التي انحنت، دون إذنٍ منه، خلف معلّمها لتتابع الفيلم معه.

اكتفى ناتان بهزّ رأسه. استدار نحو سكرتيرته ورأى أنّ عينيها تلتمعان إثارةً.

على الشاشة، انتهى الفيلم بمشهد إقلاع السيارة. سعى ناتان إلى إعادة عرضه ولكنه لم يفلح في ذلك. عدّل للحظة في القرص الصلب للحاسوب ولكنّ الفيلم لم يُنقَذ.

- تبّاً، قال المحامي. نسخ الفيلم من الموقع.

- ولكن من يقف وراء كلّ هذا؟

- من يقف وراء كلّ هذا؟ أنا سأخبرك بذلك، إنّه مدير محطة الخدمة الرديئة تلك. إنّه شخصٌ سعيدٌ للغاية باكتشاف سرّ القضية.

- ولكن لماذا يحاول إخفاء هويته؟

- لأنّه حذر. يريدنا أن نعرف مَنْ هو ولكنّه لا يريد أن نجمع أدلّة ضده.

- أدلّة عن ماذا؟ سألت آبي بسذاجة.

- أدلّة على أنّه يبتزّني.

جلست المرأة الشابّة على كرسيّ بجانب معلّمها.

- اسمع، عليك أن تتمالك نفسك، يا ناتان. حتى وإن كنتُ أجهل لماذا أقدمت على ذلك، أعرف أن هذه ليست فكرة حسنة. وما زال هناك وقتٌ للتراجع. لن يسعك في النهاية التضحية بمهنتك في سبيل إنقاذ حميك.

- أنا لا أحمي جيفري، وإنّما زوجتي وابنتي.

- أنت لا تحميهما باتّهامك لنفسك بدلاً عنه، قالت له وهي تضع تحت أنفه مقالة صحيفة ناشيونال لاوير. يجري الحديث عنك في الأروقة بالأساس في الماضي وما لم تتصرّف، فسوف تحترق في كلّ المهنة. وفي النهاية لست أنت مَنْ أشرح له هذا!

لم يجب ناتان في الحال. كاد الشكّ يتسرّب إلى ذهنه. ربما لم تكن آبي مخطئة. كان من السهل عليه أن يتراجع... وكان ذلك الفيلم غير المتوقّع يوفّر له إمكانية ذلك. ألم يبذل أقصى ما بوسعه ليساعد حميه؟ والذهاب إلى أبعد من هذا قد يسبّب له الكثير من المتاعب.

ربّما آن الأوان للعودة إلى الواقع واستعادة كرامتك. فكّر بعزاء.

في اللحظة ذاتها، انطلق الصفير الخافت لجهاز التصوير البرقي في مكتب آبي.

أمسك ناتان بالفاكس، ونظرت آبي من فوق كتفه: كانت هناك ببساطة ثلاث علامات مكتوبة بخطٍ عريض:

1M$

- مليون دولار! صرخت السكرتيرة. هذا الرجل أبله.

ذُهِل ناتان ولم يستطع الكفّ عن النظر إلى الورقة التي يمسكها بيده. حينما استدار أخيراً نحو المرأة الشابة، كان قراره متّخذاً.

سوف أكسب قضيتي الأخيرة بخسارتها، فكّر بأسى.

- هل تريدين مساعدتي، يا آبي؟

- مساعدتك في الخروج من هذه الورطة؟ بالطبع.

- ليس مساعدتي في الخروج من هذه الورطة، يا آبي، بل مساعدتي في الانغماس فيها أكثر بعض الشيء...

26

كوّن ثروةً وسيناديك العالم برمّته
بلقب السيّد.

مارك توين

كرّ كريد ليروي شريط الفيديو إلى بداية التسجيل. شاهد هذا المشهد لأكثر من عشرين مرّة خلال يومين ولكنّه لم يملّه.

حقّاً، لم يندم على تلك الكاميرا ما تحت الحمراء التي امتلكها قبل بضعة أشهر من ذلك. آنذاك اضطرّ مدير محطة الخدمة أن يخضع لصواعق زوجته التي لم ترَ في تلك الآلة إلا مصروفاً عبثياً زائداً. بيد أنّ ذلك لم يكلّف مبلغاً طائلاً، بالكاد 475 دولاراً عن طريق البيع بالمراسلة، متضمناً التسليم. ولكن، في كلّ الأحوال، ومهما يكن، وجدت كريستي دائماً طريقة للانتقاص منه. بيد أنّ تلك الصفقة كانت رابحة، لأنّ تلك الدولارات الـ 475 البائسة ستدرّ عليه مليوناً! مليون دولار، ماذا يريد أفضل من ذلك؟ إنّه أفضل توظيفٍ ماليّ على مرّ الأزمان! في الوقت الذي كان الكوكب برمّته يتألّم لسقوط البورصات، كان هو، كريد ليروي، يبلغ مورد الإثراء.

ضبط درجة الإشراق وتنوير جهاز العرض ثمّ أدرج أسطوانة فارغة في جهاز تسجيلٍ آخر أوصله بالجهاز الرئيسي. من الأفضل تسجيل نسخة للمزيد من الاطمئنان.

كان محظوظاً، هذا صحيح. عموماً، كان يزيل محتويات الأشرطة المسجّلة دون أن يشاهدها. بيد أنّه، في 18 كانون الأوّل، شغلَته مشكلة في برمجة جهاز الإنذار لما يقارب ساعة من الوقت ولكي لا ينام في وقتٍ متأخرٍ جداً، فضّل أن يستأنف مهمته في اليوم التالي.

آه! آه! «لا تؤجّل عمل اليوم إلى الغد»، يقول المثل. هذه كلّها أشياء تافهة! لأنّه، في الصباح، عندما فتح الصحيفة، شاهد صورة تلك السيارة الرباعية الدفع المترافقة مع مقالة حول حادث الولد غرينفيلد. وقد تعرّف في الحال على السيارة التي جاءت للتزوّد بالبنزين، قبل ساعةٍ بالضبط من وقوع الحادث. ولكن الأمر الأكثر غرابة كان يخصّ هوية السائق، لأنّه لم يكن هذا المحامي الشاب هو من يقود السيارة في الليل. كلا، إنّه يتذكّر جيداً، كان أحد عجائز المنطقة الأثرياء هو من يقود: جيفري ويكسلر هذا الذي عادة ما يتنقّل دائماً برفقة سائق.

فكان أن هرع كريد إلى تسجيلاته التي أكدت حدسه: كان ويكسلر حقاً وحيداً، ثملاً تماماً، قبل بضع دقائق من صدم الصبي!

والحال أنّ الصحيفة كانت تؤكّد أنّ هذا المحامي النيويوركي قد اعترف بنفسه بأنّه متورطٌ في الحادث. ربّما لم يكن كريد ليروي قد ذهب طويلاً إلى الجامعة ولكنه لم يكن بطيئاً في فهم أنّ هناك شيئاً ما غير طبيعي في كلّ هذه القصة. اعتقد أنّها مرّة أخرى سمسرة قذرة من هؤلاء المحامين. كمعظم مواطنيه، كان كريد يزدريهم، ولا يرى فيهم سوى جشعين منقادين فقط بالطمع. فذهب ليتحقّق من الصندوق المسجِّل: كان ويكسلر قد دفع نقداً، ورقة نقدية من فئة عشرين دولاراً. وبالتالي لم يكن هناك أثر لبطاقة مصرفية ولا أحد سواه شاهده يدخل إلى المحطة.

في البداية، فكّر في الذهاب إلى رجال الشرطة ولكنّه سرعان ما عدل عن ذلك: الأفعال الحميدة لا تعوَّض قط في هذا العالم. كلا، ما كان ليتلقّى أدنى تعويض لقاء تعاونه. في الأكثر كان سيحظى بذكر اسمه في الصحيفة المحلية. ستأتي إحدى الصحف الرديئة لإجراء مقابلة معه، وسيجري الحديث عنه ليوم أو يومين ومن ثمّ تُنسى المسألة.

بدلاً من ذلك، كانت لديه فكرة أخرى. فكرة نيّرة أكثر بكثير. تشتمل على مخاطر أكيدة، ولكنّ تلك فرصة وحيدة لتغيير حياته. بداهةً، قرّر كريد ألا يخبر زوجته بأيّ شيء. كانت حياته مرهقة منذ فترة. وكان مقتنعاً، في أحلامه الدفينة، بأنّ حياةً مختلفة تنتظره في مكانٍ ما. حياة سوف يكون فيها شخصاً مختلفاً.

كان كريد ليروي يظلّ لساعات طويلة أمام حاسوبه وهو يتصفّح الويب. ويقضي بقية وقت فراغه في صيد السمك والتنزّه. أحياناً، في الفترة الواقعة بين قدوم زبونين، كان يحبّ أن يتصفّح بضع صفحات من الروايات الشعبية التي يستعيرها من على الحمّالة الدوّارة لكتب الجيب لمحطة الخدمة. وإذا كان لا يهوى حكايات مرتكبي القتل الجماعي، فقد كان يحبّ المسائل القانونية والمالية المثيرة، وإن كان لا يفهم دائماً كلّ شيء فيها. ذات يوم، وقع على كتابٍ شيّق لم يتركه قبل أن ينهي قراءته حتى الصفحة الأخيرة. كانت رواية لجون غريشام (وهو محام قديم، غير أنّ. . .) تُدعى الشريك أو شيئاً من هذا القبيل. حكاية مدهشة يتظاهر فيها رجلٌ بموته لكي يستأنف حياته بهوية أخرى. ولكن لكي يبدأ حياته من الصفر، كان بحاجة إلى المال. في كتاب غريشام، كان البطل يختلس عدة مئات من الملايين من شركائه، أما هو، كريد ليروي، سيكتفي بمليون واحدٍ فقط. وهذا المحامي النيويوركي، ناتان ديل آميكو هذا، هو من سيعطيه ذلك بلطف.

في البداية، كان ينوي ابتزاز جيفري ويكسلر ولكن، بعد التفكير، قرّر أنّ عليه أن يهاجم من جهة صهره السابق. ففي نهاية المطاف، هو من اعترف بجرم الفرار. ثمّ إنّ ويكسلر كان متنفذاً جداً في المنطقة. فأغلق ليروي محلّه في النهار واتصل بصفحات الويب وقد وجد من دون صعوبة كلّ أنواع المعلومات عن ديل آميكو وبشكلٍ خاصّ رقم فاكس مكتبه. ومن ثمّ اشترى مسجّلاً رقمياً أوصله بمسجلته التلفزيونية ليتمكّن من بثّ صور كاميرا المراقبة على موقعٍ مرتجل. ولكي لا يترك أثراً، أرسل فاكسه من أحد محلاّت النسخ في بيتسفيلد.

كان قد انتظر، طوال حياته، تلك اللحظة. لحظة الانتقام. سوف يُظهر لهم ما يقدر عليه كريد ليروي. إذا ما سار كلّ شيء على ما يُرام، فسوف يرتدي، هو أيضاً، عما قريب البذلات الإيطالية وقمصان رالف لوران. بل وربّما سيشتري سيارة رباعية الدفع من أحدث طراز، مثل سيارة هذا المحامي.

في كلّ حال، سوف يرحل بعيداً. بعيداً عن هذه البلدة وعن هذه المهنة التي يكرهها. بعيداً عن زوجته. لم يعد يطيقها، هي التي كان أقصى طموحها أن تجري عملية تجميل لصدرها وترسم وشماً على شكل ثعبان على أسفل ظهرها. ضغط على زرّ الإخراج ثمّ أخرج أسطوانة الفيديو من الجهاز لكي يلفّها في مغلّف كبير من ورق الصرّ. شعر بقلبه الذي يخفق، منذ يومين، على نحوٍ أسرع في قفصه الصدري. كان محظوظاً لمرّة واحدة!

الحظّ، لا أحد يتحدّث عنه في هذا البلد. ولكنّه هو ما يصنع غالباً الفارق. أكثر من المزايا الفردية بكثير. أن يكون المرء في المكان المناسب، في اللحظة المناسبة، على الأقلّ مرّة واحدة في حياته: هذا هو المهمّ.

أوصل كريد جهاز الإنذار، وأقفل باب مدخل محطة الخدمة. عكست واجهة من الزجاج المدخّن صورته. لم يكن شائخاً. في شهر آذار القادم، سيبلغ الأربعين من عمره. لقد أخفق في النصف الأوّل من حياته ولكنّه عقد العزم على أن ينجح في النصف الثاني منها.

ولكن ليتحقّق ذلك، كان لا بدّ أن يوافق هذا المحامي على دفع المبلغ.

20 كانون الأول

استعاد ناتان عاداته الحسنة: ممارسة رياضة المشي في سنترال بارك منذ السادسة صباحاً والوصول إلى المكتب في السابعة والنصف.

- لقد اشتريت لكِ فطائر، قال وهو يدفع باب مكتب آبي.

- لا تدعني أراها حتى، احتجّت، سيزداد وزني كيلوغرامين وأنا أنظر إليها وحسب.

شرعا في العمل ونجحا سريعاً في العثور على اسم صاحب محطة الخدمة في ستوكبريدج، والذي يُدعى كريد ليروي. شعر ناتان تماماً بأنّه يخوض معركته الأخيرة. لم تتغيّر حلوله: كان عازماً على إنقاذ جيفري من السجن مهما كلّف الأمر. في سبيل حماية مالوري، سيدفع المبلغ الخيالي الذي طالبه به ليروي هذا.

في الحالة الطبيعية، كان سيتصرف بطريقة مختلفة. كان سينبش في ماضي ليروي حتى يجد وسيلةً للضغط عليه لمواجهة ابتزازه. وبخبرته الواسعة كمحامٍ، كان يعلم بأنّ لكلّ إنسانٍ أسراره التي لا يُباح بها. وإذا ما أخذ المرءُ وقته في البحث فسينتهي دائماً إلى العثور على شيءٍ ما.

ولكن لم يعد لديه الوقت، ذلك المليون الجميل الذي كان

فخوراً جداً بجمعه سوف يضطرّ للتخلّي عنه لمصلحة مديرٍ صغيرٍ لمحطة خدمة!

وعلى نحوٍ غريب، لم يحزنه احتمال أن يخسر كلّ شيء. كان الأمر الجوهري بالنسبة له يكمن الآن في مكانٍ آخر. والحق يقال، كان يشعر حتى بنوعٍ من الإثارة في العودة إلى نقطة الصفر. ينبغي أن يستطيع الجميع عيش حياتين، فكّر في لحظة. ولو كان ذلك وارداً، لحاول ألا يرتكب الأخطاء نفسها. لما تخلّى عن أحلامه في العظمة ولكنّه ببساطة لغيّر طموحه. لتخلّى عن شيءٍ من الغرور، وأمضى وقتاً أقلّ في الإشارة إلى أمورٍ عابرة وعبثية ليركّز على أمورٍ أكثر جوهرية. لسعى إلى المزيد من «حراثة حديقته»، كما يقول الفيلسوف.

أقول هذا اليوم لأنني أعلم بأنني سوف أموت. وبالتالي أكثر تأملاً، ارتأى ذلك وهو ينظر إلى ساعة يده. اتّصل بموظفّ البنك ليطلب منه التحقّق من حسابه.

– مرحباً، فيل، كيف حال وول ستريت؟

كان فيل نايت قد درس لفترةٍ معه. لم يكن صديقه تماماً ولكنّه كان شخصاً يثير إعجابه ويتناول الغداء معه بانتظام.

– مرحباً، نايت، ما هي الشركة المتعددة الجنسيات الجديدة التي ستجنّبها قضية طويلة ومكلفة؟ ألم يتصل بك بيل غيتس بعد؟

تأكّد ناتان أولاً من أنّ الصكّ المقبوض من قبل كانديس قبل أن تموت قد قُيّد حقاً. ثمّ طلب من نايت بيع جميع أسهمه وسنداته على الخزينة، لأنّه سيحتاج إلى سيولة مالية.

– هل من مشكلة، يا نايت؟ سأل المصرفي، قلقاً من إمكانية أن يرى حساب زبونه يفرغ من عنده.

– لا شيء، يا فيل، أؤكّد لك أن هذا المال سوف يُستخدَم بطريقة حسنة...

هل هذا حقاً الحل الأمثل؟ تساءل بعد أن أغلق السماعة.

كانت حكايات الابتزاز هذه لا تنتهي عموماً بشكلٍ جيّد. لم تكن ضخامة المبلغ هو ما يزعجه وإنّما الخشية من ألا تتوقّف هذه التهديدات قط وأن يعيد كريد الكرّة مع جيفري أو مالوري، بعد ستّة أشهرٍ أو سنةٍ. كانت المشكلة تكمن في أنّ هذا الرجل يستطيع أن ينسخ أفلامه إلى ما لا نهاية!

فكّر ناتان، متصالب الذراعين، وهو يتأرجح في أريكته. عليه ألا يخلط الأولويات. فالأمر الجوهري في هذه المرحلة هو ألا يتعرض لخطر أن يقرّر كريد في النهاية تبليغ الشرطة. أشارت عقارب الساعة الموضوعة على مكتبه إلى العاشرة واثنتين وعشرين دقيقة.

رفع المحامي سماعة هاتفه واتّصل بكريد ليروي.

كان متعجّلاً لمعرفة طينة هذا الرجل.

ناسو (باهاماس)- في وقتٍ أبكر بقليل من الصباح

ذهب كريد ليروي إلى بوسطن، في وقتٍ باكرٍ جدّاً من ذلك الصباح، ليلحق بأوّل طائرة متوجّهة إلى ناسو. لدى وصوله إلى عاصمة الباهاماس، استقلّ مركبة المطار برفقة عدد غفيرٍ من السيّاح القادمين لقضاء عطلة الميلاد تحت الشمس. كانت المدينة تضجّ بصخب حركة السير. أطلقت الحافلة الصغيرة بوقها قبل أن تتوقّف بجانب الرصيف لتفرغ حمولتها من الركاب. كان كريد مرتاحاً وسط ذلك الحشد. يحبّ التخفّي في المدن الكبرى والأمكنة العامّة. عند سيره في جادة باي ستريت - الجادة الرئيسية في المدينة- المزدحمة تماماً بالسيارات القديمة وعربات الخيل الخاصّة بالسيّاح، شعر بأنّ

روحه قد تغيّرت تماماً. هنا، هو ليس مدير محطة خدمة. هنا، يمكنه أن يكون أيّاً كان.

كان كريد قد عزم على أن يطبّق الوصفات التي قرأها في الروايات المالية المثيرة لهذه السنوات الأخيرة. ما إن يجري الحديث عن تبييض الأموال والحسابات، حتى تُذكر حتماً ناسو ومصارفها ومؤسساتها المالية الأربعمائة. ويتبع ذلك وصف رجال المال الانتهازيين الذين، بمنأى عن الضرائب، يتداولون بطريقة مجهولة الملايين، وهم ينقلون بمجرد نقرة على فأرة الحاسوب مبالغ فاحشة من جنة مالية إلى جنة مالية أخرى. لطالما تساءل ناتان إن كان الواقع يقترب من الخيال. وسوف يعرف ذلك قريباً.

كان قد استخرج، عبر الإنترنت، عروض المكتب المحلّي لمصرفٍ يعرض جدولاً للخدمات التي تهمّه. أرسل رسالة إلكترونية ليتلقّى وثيقة خطية. نظرياً، يمكن فتح حساب آمن من دون الحضور، ولكن كريد أصرّ على السفر لمقابلة شخصٍ ما.

انعطف إلى أحد أزقّة باي ستريت ودخل إلى إحدى المؤسسات المصرفية الصغيرة المطلّة على الشارع.

حينما خرج منها، بعد ذلك بأقلّ من نصف ساعة، ارتسمت ابتسامة على شفتي ليروي. لم يكذب جون غريشام وشركاؤه! كان ذلك أسهل حتى ممّا في الروايات. وسمع في البداية الكلمات التي انتظرها: الأمانة، السرية المصرفية، لا ضرائب... ثمّ توالى كلّ شيء. أُنجزَت صيغة فتح حساب واقعياً ووقّعت في أقلّ من ربع ساعة. 5% من الفوائد السنوية من دون ضريبة، دفتر شيكات، بطاقة مصرفية لا تذكر لا اسمه ولا أية معلومة هامّة على المنطقة الممغنطة ولكنّها تتيح الوصول إلى الصرّافات الآلية في كلّ مكانٍ من العالم. هذا هو بالضبط ما يسعى إليه. كما وعدوه بأنّ حسابه سيكون غير

قابلٍ لأن يصل إليه مفتّشو الضرائب ورجال الشرطة. استغلّ ذلك ليترك في إحدى العُلَب الصغيرة في القبو مغلّفاً اسمر اللون فيه نسخة من الفيلم الذي سيكوّن ثروته. وكلّ هذا جرى من دون أيّ إجراء آخر سوى صورة عن جواز سفره وتقديم كفالة من خمسة عشر دولاراً. عشية ذلك، وهو لم يخبر بعد زوجته بشيء، كان قد باع سيارته البيك- آب ليوفّر لنفسه جزءاً من المبلغ. كما أنه سحب خمسة آلاف دولار من حسابهما المشترك. وقد عزم على أن يعيد ضعف هذا المبلغ لكريستي، في ما بعد، حينما سيصبح بعيداً عنها وثرياً جداً.

استنشق كريد ليروي حرارة الهواء بلذّة. لم يكن قد شعر في حياته بمزاجٍ رائقٍ إلى هذه الدرجة: بقي أن يتّصل به ناتان ديل آميكو وأن يتّفقا على مكانٍ للموعد.

مرّ من أمام صالون تزيين أنيقٍ ونظر عبر الواجهة الزجاجية. وعلى طريقة الأزمنة السالفة، كان زبونٌ قد حلق ذقنه للتوّ ويستمتع باللذة المهدّئة لمنديلٍ فائح بالبخار موضوعٍ على وجهه. أسال ذلك المشهد لعابه. لم يكن أحدٌ قد حلق له ذقنه أبداً. فقرّر على الفور. حان الوقت ليغيّر منظر رأسه ويحلق هذه اللحية المهملة وهذه الخصلات من الشعر المنسدلة على عنقه. ومن ثمّ، سيذهب إلى أحد المتاجر الفاخرة للمدينة ليشتري ألبسة أكثر ملاءَمةً لوضعه الاجتماعي القادم.

دعته امرأة شابّة إلى أن يأخذ مكانه. بالكاد جلس حتى رنّ هاتفه. كان قد حرص على تحويل مكالمات محطة الخدمة إلى هاتفه النقّال. ألقى نظرة على ساعة يده. ولأنّه نسي أن يقدّم عقارب لساعةٍ بسبب فارق التوقيت، كانت الساعة تشير إلى العاشرة واثنتين وعشرين دقيقة.

- آلو؟ قال كريد ليروي بصوتٍ ملؤه التلهّف.

- ناتان ديل آميكو، على الهاتف.

أطلق غاريت غودريش صيحة تعجّب:

- تبّاً، يا ناتان، لقد تركت لك رسائل عديدة! الآن فقط قررتَ أن تتّصل بي! ما حكاية هذا الحادث؟

- سوف أشرح لك كلّ شيء، يا غاريت. اسمع، أنا في كافيتريا المستشفى. هل لديك دقيقة من الوقت لتتكلّم؟

- كم الساعة؟ سأل الطبيب وكأنّه قد فقد كل إحساسٍ بالوقت.

- تقريباً الثانية عشرة والنصف.

- سوف أنتهي من بعض الملفّات وسأوافيك بعد عشر دقائق.

- غاريت؟

- نعم؟

- سأحتاج مرّة أخرى لأن تسدي لي خدمة كبيرة.

مكتب ماربل أند مارش- الساعة الرابعة وست دقائق

- ألم تكن لديك فكرة، يا آبي؟

- أي فكرة؟

كان ناتان يتأرجح في مقعده، مضموم اليدين وغامض الهيئة.

- كما شرحت لكِ ذلك، أنا مستعد لدفع هذه الفدية. ولكنني أريد أن أكون متأكّداً من أنني لن أدفع إلاّ مرّة واحدة. لسوء الحظ، نعرف متى يبدأ الابتزاز...

- ... ولكن لا نعلم متى ينتهي، أكملت.

- هذا صحيح. لا أريد، بعد ستة أشهر أو سنة، أن يعاود ليروي هذا الكرّة مع جيفري، مع مالوري... أو حتى معي، بذل جهداً لكي يضيف.

- القانون يعاقب بصرامة على الابتزاز، أبدت الملاحظة.

- نعم، ولكن لردع ليروي عن معاودة جرمه، سيكون عليه جلب الدليل على ابتزازه. والحال أنّ هذا الشخص حذر جداً، كما تأكّدت من ذلك منذ قليل.

- ماذا! هل تحدّثت معه؟ قالت متعجّبة، مستاءةً من كونه لم يخبرها بذلك من قبل.

- نعم، اتّصلت به صباح اليوم ولكنّه أصرّ على أن يتّصل بي بعد خمس دقائق من إحدى مقصورات الهاتف العمومية أسفل المبنى.

- هل حدّد لك موعداً؟

- سأقابله غداً.

- وكيف تنوي التصرّف؟

- يجب أن أجد طريقة لجعله يتكلّم وخاصة أن أسجّل ذلك ولكنني سأحتاج إلى أجهزة معقدة: مجسّات دقيقة للتسجيل كالتي تستخدمها أجهزة المخابرات السرية، على سبيل المثال.

- ألفت انتباهك إلى أننا لم نعد في حقبة ووترغيت، قالت آبي متعجبة وهي تضحك.

- لأنّك تعرفين وسيلة أكثر فاعلية.

- هذا، على سبيل المثال، أجابت وهي تشير إلى الهاتف الخلوي لمعلمها.

- الهاتف النقّال؟

- نعم، ولكن مستخدَماً بطريقة معدّلة بعض الشيء.

قطّب حاجبيه. أمام حيرته، شرحت فكرتها:

- هاتفك مزوّد بمجسّة «اليد الطليقة»، أليس كذلك؟

- نعم، لكي أردّ على الهاتف من دون ترك المقود.

- حسناً. وماذا يحدث حينما يرنّ هاتفك وأنت تقود السيارة؟

- يفتح تلقائياً بعد ثلاث رنّات، أوضح ناتان، ولكن لا أعرف حقّاً ماذا. . .

- دعني أكمل. تخيّل الآن أنّك قد وضعت الهاتف على وضعية الصامت.

- بجعله يرجّ فقط؟

- كلا، قالت وهي تهزّ رأسها، حينما يرجّ الهاتف، يبعث طنيناً خفيفاً. وهذا ليس سريّاً بما فيه الكفاية.

- لا أرى ما الذي سأفعله آنذاك، قال وهو يفكّر ملياً.

- سوف ترى.

أخذت الهاتف من يده أجرت بعض العمليات عليه.

- يكفي برمجته على الرنين من دون إشارات.

- وبالتالي، على وضعية الصامت.

- وها هو هاتفك قد تحوّل إلى لاقط صوتٍ سريّ، 007، قالت وهي ترمي له الجهاز الذي تلقّفه خطفاً.

وللتحقّق من فاعلية النظام، رفع سماعة الهاتف الثابت لمكتبه واتّصل بهاتفه النقّال.

وكما كان متوقعاً، انفتح الخطّ من دون أيّ ضجيجٍ.

- هذا مدهش، اعترفَ. كيف تعلّمتِ كلّ هذا.

قالت آبي:

- عثرتُ في مجلة نسائية على مقالة مثيرة: عشر خدعٍ ناجعة لمراقبة زوجك ومعرفة إن كان يخدعك.

27

لستُ رجلاً بلا عيوب.

فيون

مستشفى بيتسفيلد - وحدة الإنعاش - الساعة الواحدة صباحاً

- ها هو، يا دكتور غودريش، إنّه هنا.

- ممتاز.

تراجعت كلير جولياني خطوة إلى الوراء. كانت متأثّرة بهذا الطبيب المهيب القادم من نيويورك ليرى مريضها.

- حسناً، سأترككما للحظة، لا ترددا إن احتجتما إلى شيءٍ ما.

- شكراً، دكتورة جولياني.

دفع غاريت الباب ودخل إلى الحجرة.

كانت غرفة عادية جداً، منارة بقنديلٍ صغيرٍ ينشر ضوءاً خافتاً فوق السرير. وفي العمق، كانت خزانة بدائية بلون أبيض جليدي تجاور مغسلة مانعة للصدأ. ردّدت كلّ القاعة أصداء الدوي المنتظم للإيقاع القلبي ولضجيج التنفّس الاصطناعي العاصف الذي يضخّ بصخب هواءه نحو مجرى الأنبوب.

اقترب غاريت من السرير وانحنى فوق بن. كانت الممرضات قد رفعن الشراشف ووضعن غطاءً تجنّباً لتعرّض المريض للبرد. بدا الطفل، الساكن مثل شاهدة من البورسلين، صغيراً جداً، غارقاً تماماً

وسط ذلك السرير الواسع. وعزّزت آثار الكدمات العديدة على وجهه ذلك الشعور بهشاشته. كانت أنابيب عديدة تسير على طول ذراعيه نحو قوارير الحقن المتواصل المعلّقة بالمنصبة.

بطريقة آلية، اقترب غاريت من شاشة جهاز المراقبة ليراقب نبض القلب والضغط. ثمّ تحقّق من المحقنة الآلية التي تقوم بحقن جرعات من المورفين بفواصل زمنية منتظمة.

كان يعرف هذا النوع من المكان عن ظهر قلب ولكنه كلّما دخل إلى غرفة مريض، شعرَ دائماً بنوعٍ من التطابق مع الغير يُضاعفه انفعالٌ غريب. أجرى نقاشاً للحظة مع تلك المرأة الشابة، الدكتورة جولياني، التي بدت أنها مرتابة جدّاً في قدراتها. ومع ذلك كانت قد قامت بعملٍ جيد. فقد قُدِّمت للصبي كامل العناية المطلوبة، ولم يكن من الممكن القيام بمزيد. والآن، لم يتبقّ سوى الانتظار.

إذا كان غاريت قد جاء إلى هنا، فذلك فقط بطلبٍ من ناتان. تحدّث المحامي له عن الحادث الذي ارتكبه ولكن الطبيب لم يصدّق كلمة واحدة من ذلك. وكان ناتان قد ألحّ بشكلٍ خاص على أن يذهب غاريت ليتأكّد من أنّ أفضل رعاية طبية تُقدّم للصبي وكذلك للحصول على رأيٍ طبيٍّ صريح. لم يُضِف أيّ شيء، ولكن غودريش أدرك تماماً المعنى الحقيقي لطلبه: أراد ناتان أن يعرف إن كانت حياة بن غرينفيلد في خطر.

أدار غاريت رأسه نحو الباب الزجاجي ليتأكّد من أنّ أحداً لا ينظر إليه. ثمّ أطفأ القنديل الذي يتلألأ فوق السرير. بسبب ارتياحه الكبير، لم يميّز أيّة هالة من الضوء فوق رأس الطفل.

ربّما لن يستيقظ بن من غيبوبته هنا بعد عشر دقائق ولكنّه في كلّ الأحوال لن يموت.

فقرّر غاريت أن يجرّب أمراً آخر، أمراً لم يكن يلجأ إليه إلاّ نادراً.

قرّب بهدوء يديه من وجه بن. . .

لم يكن قد ذكر قط هذه المَلَكة أمام ناتان. كان ذلك أمراً غريباً لم يكن هو بنفسه يسيطر عليه. ليست قدرة حقيقية، ولا موهبة. فقط قدرة إضافية يمكنها أن تأتي المبشّرين مع الوقت. شيءٌ يصعب في الواقع تحديده. بوابة صغيرة تنفتح للحظة قصيرة في عقله، مثل ومضة، سريعة وخاطفة كبرقٍ. حتى إن ذلك كان يؤلمه قليلاً أحياناً وكأنّ جسده كان يفرَغ مؤقّتاً من كلّ طاقته، ولكن ذلك لم يكن يستغرق حتى ثانية واحدة. بعد برهةٍ من ذلك، يعود كلّ شيء طبيعياً.

ولكن ليتمّ ذلك، كان لا بدّ من ملامسة.

لم تعد يدا غاريت سوى على بعد بضعة مليمترات من وجه بن.

لزمنٍ طويل، لم يشعر بتلك الأهلية. وحتى هذا اليوم، لا يفعل ذلك أمام كل مشكلة. ولكن أحياناً، كان «يحدس» وينجح في أن يدفع الباب ويعلم ما سيحدث. كان يجيد ذلك، هذا كلّ شيء، خارج كلّ برهانٍ عقلي. كنوعٍ من الاستشعار.

لامس غاريت جبين الطفل بأطراف أصابعه وانفجرت صورة في ذهنه: صورة بن غرينفيلد، البالغ من العمر حوالى عشرين عاماً، وهو يقفز بمظلّة.

لم تستمر تلك الرؤية وانقطع غاريت في الحال عن ذلك العالم المحذَّر.

لأنّه كان يلهث قليلاً، جلس للحظة بالقرب من الطفل ليستعيد قواه ثمّ زرّر معطفه وغادر المستشفى.

في أيّة ظروف قد يقفز بن غرينفيلد بمظلّة في سنّ العشرين؟ لم

يكن يعرف كثيراً أيّ شيء عن ذلك. ولكنه، في كلّ الأحوال، كان متأكّداً من أمرٍ واحدٍ: هذا الطفل لن يموت، ليس هذا فحسب، بل وسيخرج سريعاً من غيبوبته.

21 كانون الأول

مانهاتن - مرآب غراند سنترال

اختار ناتان أن يقطع مشياً المسافة التي تقارب مئة متر الفاصلة بين مكتبه والمحطة. لدى وصوله أمام الشبح العملاق لمبنى ميتلايف بولدينغ، ألقى نظرة قلقة على ساعة يده.

11 و41 دقيقة

ممتاز، لم يكن متأخّراً. بل وقد دخل إلى غراند سنترال قبل أربع دقائق من موعده.

كان البهو الفسيح، الذي تخترقه كُوى زجاجية واسعة يندفع من خلالها ضوء ساطع إلى الداخل، يشبه كاتدرائية. بثريّاته المذهّبة وتماثيله المرمرية، كان المكان فعلاً أشبه بمتحفٍ، وجديراً حقّاً بسمعته كأجمل محطة في العالم.

عبر القاعة الشاسعة بخطوات ضائعة ليصل إلى الساعة الجدارية المدوّرة الشهيرة بأسطواناتها الأربع التي تعلو مكتب الاستعلام. كان كريد ليروي قد ثبّت الموعد معه في هذا المكان. عادةً، كان يحبّ هذا المكان، المرتبط إلى الأبد في ذهنه بديكورٍ سينمائي وبهتشكوك الذي صوّر هنا مشهداً شهيراً من فيلم **الشمال من الشمال الشرقي**.

كالعادة، كان المكان يعجّ بالناس. كلّ يوم، يلتقي هنا أكثر من نصف مليون شخص قبل أن يقتحموا مانهاتن أو يعودوا إلى ضواحيهم.

المكان الممتاز لكي تتمّ الأمور خفيةً.

ظلّ المحامي للحظة ساكناً، يواجه السيل المتواصل للمسافرين المتدفقين من كلّ الجهات. تحقّق من أنّ هاتفه المحمول في وضعية «التشغيل». كان يعلم أنّ آبي مستعدة على الطرف الآخر من الخط لتسجيل كلّ الأقوال القادرة على إفحام ليروي.

كان ناتان متلهفاً. لم يكن يعرف حتى شكل الشخص الذي ينتظره. «أنا سأتعرّف عليك»، كان المعلم المبتزّ قد اكتفى بالقول. انتظر أيضاً لدقيقتين أو ثلاثاً إلى أن ضربت يدٌ على كتفه بقسوة.

- يبهجني أن ألتقي بك أخيراً، يا سيد ديل آميكو.

كان الرجل موجوداً منذ وقتٍ قصير ولكن ناتان لم يتصوّر للحظة أن يكون هو كريد ليروي. لم يكن للشخص الموجود أمامه مظهر مديرٍ لمحطة خدمة. بزّة غامقة حسنة التقاطيع، معطف من نوعية فاخرة، أحذية جديدة أو مُصانة تماماً: لو أنّه عقد ربطة عنقٍ لما اختلف ليروي عن المحامين في مكاتب المدينة. لهذا، لم يكن للرجل مظهرٌ خاصّ. كان كلّ شيء وسطاً عنده: القامة، البدانة، رقّة قسماته... كان كلّ شيء وسطاً عدا نظرته الزمردية التي كان يلمع في أعماقها خمولٌ شديد.

لم يبدُ الرجل من النوع الثرثار. بحركةٍ من رأسه، أشار إلى المحامي أن يتبعه. سار الرجلان أمام المحلات العديدة المحاذية للمنحدرات المؤدّية إلى الأرصفة. ووصلا بذلك إلى الطابق السفلي، المليء بالمقاهي ومحلات الساندويتش والمطاعم. ولتقليل الضوضاء والتلوّث، كانت الطرق الحديدية لغراند سنترال أُنزِلَت إلى الأقبية، الأمر الذي يعطي للزائر انطباعاً غريباً بأنّه يتجوّل في محطة بلا قطارات. بناءً على دعوة كريد ليروي، دفع ناتان باب أويستر بار.

كان المكان يشتهر بتقديمه أفضل أنواع ثمار البحر في المدينة. في الحالة الطبيعية، كان ناتان يعشق ذلك المشرب المليء بالسحر وصالته الفخمة المقبية.

- لنذهب أوّلاً إلى المغاسل، اقترح ليروي بعصبية.

- عفواً؟

- لا تجادل.

تبعه ناتان حتى المغاسل. انتظر كريد أن تفرغ الحجرة ليطالب:

- أعطني معطفك.

- ماذا؟

- أعطني معطفك وسترتك، لا أريدك أن تحمل جهازاً مسجّلاً.

- لا أحمل شيئاً أبداً! ثار ناتان مدركاً أنّ خطته المزيّتة جيداً كانت على وشك السقوط في الماء.

- أسرع، أمر كريد.

نزع ناتان معطفه وسترته. ولكنه أخرج هاتفه النقال من جيب هذا الأخير ووضعه في جيب قميصه. لم يتطلّب ذلك الكثير من الجهد.

- انزع ساعتك.

رضخ ناتان.

- افتح قميصك.

- أنت مرعوب تماماً.

- لن أكرّر ذلك.

حلّ المحامي أزرار قميصه متنهداً. تفحّص ليروي جذعه.

- هل تريد أن ترى شيئاً آخر؟ سأل ناتان بلهجة ساخطة. استغلّ ذلك، أرتدي سروالاً داخلياً من ماركة كالڤن كلين.

- هاتفك من فضلك.

- هذا مضحك!
استولى ليروي عنوة على الهاتف النقّال.
واللعنة.
- خاتمك.
- لا تلمس هذا!
تردّد كريد للحظة ثم وضع يده على معصم المحامي.
- هيّا، فكّ!
في لمحة أمسك ناتان بحلقه وألصقه على الباب.
- ايررررغل... حاول كريد ليروي أن يتلفّظ.
شدّد ناتان ضغطه أكثر.
- لا تلمس هذا! أَفهمت؟
- ايررررغل... فهـ....مت.
ترك المحامي غنيمته بحركة عنيفة.
- تبّاً لك، يا ديل آميكو... كنت ستنال مني.
- حسناً، أسرع، يا ليروي، أمر ناتان وهما يخرجان من المغاسل. أفترض أنك لم تجلبني إلى هنا لتذوّق حساءٍ بالمحار...

جلسا أمام كأسين من المارتيني الموضوعتين على طاولة صغيرة مغطاة بغطاءٍ ذي مربعات. كانت الصالة الفسيحة تضجّ بمناقشات الزبائن الحادّة. استعاد ليروي- الذي وضع المعطف والسترة والهاتف النقال في حجرة الثياب- بعضاً من الهدوء. أخرج لعبة تاروت[1] من جيبه ومدّها إلى المحامي.

---

(1) لعبة ورق، يُستخدَم فيها ورق أطول من الورق العادي يحمل صوراً مختلفة وعدده 78 ورقة. (المترجم)

- الأوراق التسع الأولى تشكّل رقم حسابٍ مصرفيّ في الباهاماس، شرح. ستتصل بمصرفك وتطلب تحويل المال إلى هذا الحساب. المصرف يُدعى اكسيلسيور.

هزّ ناتان رأسه.

إنها لخسارة ألا تستطيع آبي تسجيل هذا.

تبّاً، كان عليه أن يستعيد هاتفه النقال. ولكن لهذا، كان عليه أن يهدّئ من يقظة ليروي.

- ليست سيئة فكرة الورق هذه، يا كريد.

- أليس كذلك؟

- نعم... لا تترك أيّ أثر... ليس عليك سوى خلط أوراق اللعبة لإخفاء الدليل على الابتزاز.

فجأة راودت الريبة ليروي من جديد.

- حسناً، كفّ عن مدحي وأسرع في الاتّصال بمصرفك.

- هل عليّ أن أذكّرك بأنّك قد صادرت هاتفي؟

- ستستخدم هاتف المطعم في مكالمة بين المدن.

- كما تريد.

أفرج ناتان عن ابتسامة ارتياح موجّهة إلى ليروي، ثمّ نهض ليتوجّه إلى طاولة المحاسبة وكأن ذلكَ ما كان ينتظره بالضبط.

أثارت هذه الحماسة المفاجئة شيئاً من القلق لدى كريد.

- انتظر، يا ديل آميكو. استرد بالأحرى هاتفك النقال، أريد الاستماع إلى ما تقوله.

استعاد ناتان هاتفه النقال من حجرة الثياب وتحقّق من أنّه مفتوح.

لا مشكلة.

فكّر في آبي التي خمّن أنّها تترصّد، متسلحة بجهاز التسجيل على الطرف الآخر من الخط.

الآن، حان دوره ليلعب لعبته. حان دوره ليترافع. هل سينجح ناتان ديل آميكو، المحامي الكبير، في جعل كريد ليروي يتكلّم؟ نعم، إن كان «الأفضل» كما كان يطيب له الاقتناع بذلك.

ولكن هل كان حقّاً كذلك؟ هل كان لا يزال كذلك؟

عاد إلى الطاولة وطرح هاتفه بلامبالاة عليها. شعر أن ليروي قد أصبح أكثر توتراً.

- وهذه المكالمة، أهي اليوم أم غداً؟

أمسك ناتان بالهاتف وتظاهر بفتحه ثمّ توقّف:

- في الواقع، الموظف الذي أتعامل معه في المصرف يتناول الغداء باكراً و...

- أوقف أضحوكتك، يا ديل آميكو.

حكّ ناتان رأسه.

- قُلنا عشرة آلاف دولار، أهذا جيد؟

- لا تسخر منّي، اللعنة!

- اهدأ، على كلّ حال، ربّما ستكسب في يومٍ واحد ما قضيتُ أنا سنوات عديدة في جمعه...

- تحرّك.

- وما هو أثر أن تكون جاهزاً جداً لتغيير حياتك؟ في أعماقك، أنا متأكّدٌ من أنّك تطرح على نفسك الكثير من الأسئلة: هل سأستيقظ كلّ صباح وأنا أقول في نفسي «تمام، أنا ثري»؟ هل...

- لا تستفزّني!

- اسمع، ربّما كان علينا تأجيل الأمر إلى يومٍ آخر، يا كَريد. تبدو منزعجاً...

ضرب ليروي قبضته بعنف على الطاولة ونطق أخيراً بالكلمات التي كان ناتان يحاول انتزاعها منه:

- اتّصل بموظفك القذر وحوّل مليون دولار إلى حسابي!

- ممتاز، ممتاز، أنت سيّد اللعبة.

ولكن أنا الأفضل.

أمسك المحامي بالجهاز وأطفأه ليفصل اللاقط ثم أعاد تشغيله مباشرةً. اتّصل بفيل في البنك وطلب تحويل المبلغ تحت عين ليروي الساهرة.

- ها قد تحوّل المال.

ما إن نطق بهذه الكلمات حتى نهض كريد من مقعده ليذوب وسط الحشد. لم يبارحه ناتان ببصره سوى لجزءٍ من الثانية لكنه كان غير قادرٍ على اللحاق به.

كان كريد قد تبخّر.

خرج ليروي من المطعم من دون أن يسرع. كان ذاك الرجل شفافاً جداً بحيث كادت آبي تُضيّعه. سار لبضع خطوات على طول الرصيف ثم أوقف سيارة أجرة.

- إلى مطار نيوارك، طلب من السائق وهو يفتح باب السيارة.

هرعت آبي في أعقابه.

- أنا أيضاً ذاهبة إلى نيوارك، ربّما يمكننا تقاسم هذه السيارة؟

دلفت إليها بخفة كبيرة بحيث لم يحظَ ليروي حتى بفرصة الرفض.

كانت السيارة قد سارت بالكاد لبضع ثوانٍ حينما رنّ هاتف آبي.

- أعتقد أنّ هذه المكالمة لك، قالت وهي تمدّ الجهاز إلى ليروي.

- ولكن، ما معنى هذا؟

- سترى. أمّا أنا، فسأتوقّف هنا، قالت وهي تدقّ على الزجاج لتنبّه السائق. رحلة سعيدة، يا سيد ليروي.

توقّفت السيارة لتدعها تنزل تحت عين كريد الذاهلة. تردّد هذا الأخير في فتح السماعة ولكنّ فضوله غلب حذره.

- ألو! ففوجئ بسماع صوته: «اتّصل بموظفك القذر وحوّل مليون دولار إلى حسابي! ممتاز، ممتاز، أنت سيّد اللعبة.»

- اللعنة، أية لعبة تلعب، يا ديل آميكو؟

- لعبة الرجل الذي وافق أن يدفع لمرّة واحدة ولكن ليس لمرتين.

- ماذا ستفعل بهذا الشريط المسجّل؟

- لا شيء، فقط سأحتفظ به كما تحتفظ أنت بأشرطة الفيديو خاصتك. سأحتفظ به «للضرورة» ولكن الأمر يعود لك في ألا أستخدمه أبداً.

- لن أحاول ابتزازك ثانية إن كان هذا ما يقلقك.

- أتمنى ذلك لمصلحتك، يا كريد، لأنّ اللعبة أقلّ تسلية بوضوح حينما ينتقل المرء إلى السجن.

- لن تكون هناك مرّة ثانية.

- لا أطلب سوى أن أصدّقك. أوه! هناك أمر آخر، يا كريد: سترى، إنّه لا يلتزم بكلّ وعوده.

- عمّن تتحدث؟

- عن المال، يا كريد، عن المال.

ثم أغلق السماعة.

مالت الشمس إلى المغيب عن نانتوكيت. وهبّت ريحٌ قادمة من

الشرق بلا انقطاع طوال الليل. مع طلوع النهار، تلاطمت الأمواج بعنفٍ أشدّ وتحطّمت بصخب على الصخور التي كانت تحمي فيلا آل ويكسلر.

كان جيفري ومالوري يجلسان على الشرفة المغطاة المطلّة على الأمواج. المكان الأكثر دهشة من البيت، نقطة مراقبة لا مثيل لها تمتد مباشرة في المحيط.

كانت مالوري قد عادت من البرازيل على متن الرحلة الصباحية. لدى وصولها إلى سان دييغو، اتّصلت بوالديها في بيركشايرز ولكن مدبّرة المنزل أخبرتها بأنّ «السيد والسيدة» قررا أخيراً قضاء عيد الميلاد في نانتوكيت. قلقت من ذلك التغيير في وجهتهما فاستقلّت طائرة إلى بوسطن، وقد وصلت إلى الجزيرة قبل حوالى ساعة.

- هذه هي، يا مالوري، تعرفين الحكاية كلها.

وكان جيفري قد روى لها بالتفصيل أحداث الأيام الأخيرة هذه. لم يفوّت أيّ شيء، منذ اللحظة التي صدم فيها، وهو ثملٌ تماماً، الطفل بن غرينفيلد، مروراً بتضحية ناتان، وصولاً إلى تلك الحكاية مع كريد ليروي والتي كان صهره قد أخبره بها. كما عاد إلى مشكلته مع الإدمان الكحولي التي قادته قبل خمس وعشرين سنة إلى اتّهام والدة ناتان بالسرقة التي لم ترتكبها.

روى كلّ شيء عدا أنّ ناتان سيموت. اقتربت مالوري، وعيناها مليئتان بالدموع، من والدها.

- هل لديك أخبار عن ذلك الطفل؟

- أتّصل بالمستشفى مرتين في اليوم. حالته ثابتة. لا يزال يمكن لكلّ شيء أن يحدث.

أراد جيفري أن يضمّها بين ذراعيه لكنّها ردّته.

- كيف استطعت فعل ذلك؟ قالت مخنوقة الصوت. كيف استطعت أن تدع ناتان يتّهم نفسه عوضاً عنك؟

- أنا... أنا لا أدري، غمغم، هو من أراد ذلك. اعتَقَدَ أن ذلك سيكون أفضل للجميع...

- بشكلٍ خاصّ أفضل لك!

صفع هذا الحكم على نحوٍ أليم أذني جيفري.

لم يعرف الرجل العجوز كيف يبرِّر موقفه. شعر بأنّه أسير الوعد الذي قطعه لناتان وكان عازماً تماماً على أن يحترمه، وقد فرض عليه ذلك أن يتحوّل إلى رجلٍ جبانٍ أمام ابنته. تلك كانت حصته من العبء. طريقته في التكفير عن ذنبه.

- ولكنّك لن تدعه في نهاية المطاف يذهب إلى السجن؟

- كلاّ، يا عزيزتي، أكّد جيفري، أعدكِ بأنني سأنقذه من هذه الورطة. ربّما لم يعد هناك إلا أمر واحد أحسن القيام به بشكلٍ صحيح في هذا العالم وسأجتهد فيه.

نظر جيفري إلى يديه المرتعشتين بطريقة مقلقة، وهي إشارة إلى عوزه للكحول. للمرّة الثالثة في أقلّ من ربع ساعة فتح قارورة مياه ايفيان الموضوعة على الطاولة وازدرد جرعة جديدة، آملاً، غير مصدِّق ذلك، أن يكون لذلك تأثيرات مهدّئة كجرعةٍ من الفودكا.

- سامحيني، يا مالوري.

شعر بأنّه بائس، مشلولٌ بإحساسٍ يفوق الخجل. كانت ابنته، التي يحبّها حبّاً جمّاً ويعرف أنّها ضعيفة، تبكي إلى جانبه ولم يكن له الحقّ حتى في أن يضمّها بين ذراعيه.

تقدمت مالوري نحو الحاجز الزجاجي الواسع الذي يغلّف الشرفة. تاهت نظرتها في خط أفق المحيط. حينما كانت صغيرة، في

الأيام العاصفة، لم تكن تجرؤ على المغامرة هنا بسبب الهدير المضخّم للأمواج والرياح. كانت تلك السلسلة من العناصر تخيفها وتشعرها بأنّها وسط الإعصار.

تجرأ جيفري على أن يخطو خطوة نحوها.

- عزيزتي...

استدارت نحوه، نظرت إليه وارتمت أخيراً بين ذراعيه، كما كانت تفعل وهي في العاشرة من عمرها.

- أنا تعيسة إلى حدّ الإرهاق مذ لم أعد أعيش مع ناتان، يا بابا.

- تحدّثي إليه، يا عزيزتي. أعتقد أن لديه ما يقوله لكِ.

- في البداية، حينما انفصلنا، شعرتُ بمزيجٍ غريبٍ من الحزن والارتياح.

- الارتياح؟

- نعم، طوال حياتي شعرتُ بالخوف من ألا يعود يحبّني، أن يستيقظ ذات صباح ويكتشفني على حقيقتي، ضعيفة وهشّة. بهذا المعنى، كان عدم وجودي معه يشكّل خلاصاً: بما أنني قد فقدته، لم يعد هناك خطر أن أفقده.

- إنّه بحاجة إليك بقدر ما أنتِ بحاجة إليه.

- لا أعتقد. لم يعد يحبّني.

- ما أقدم عليه حديثاً يُظهر العكس.

رفعت نحوه عينين مليئتين بالأمل.

- اذهبي للقائه، نصحها جيفري بوقار.

ولكن استعجلي: فالوقت يضغط.

28

أغمضي عينيك، واضربي كعبيكِ
أحدهما بالآخر ثلاث مرات،
وفكّري بقوّة: لا يكون المرء بخير إلا
في وطنه.

من حوار فيلم ساحر أوز
لفيكتور فليمنغ

24 كانون الأول

- هل يمكنني الحصول على شطيرة هوت دوغ؟

نطنطت بوني أمام عربة بائعٍ متجول، في زاوية الجادة الخامسة والشارع الثامن والخمسين.

- إنّها الواحدة ظهراً، يا عزيزتي، ألا تفضّلين فاكهة؟

- كلا! قالت الفتاة الصغيرة وهي تهزّ رأسها، أعشق شطائر الهوت دوغ مع الكثير من الخردل والبصل المقلي! إنّها لذيذة.

تردّد ناتان: لم يكن ذلك الغذاء صحيّاً ولكنّه مع ذلك أعطى موافقته بإشارةٍ من رأسه.

- *Cuanto cuesta esto?*[1]

---

(1) كم يكلّف هذا؟

سألت بأكثر جدية في العالم وهي تُخرِج من جيبها محفظة صغيرة تحتفظ فيها بمدخراتها.

وبّخها والده:

- لا ينبغي أن تتكلّمي الاسبانية مع الجميع.

- *Son dos dólares*[1]

ردّ عليها البائع مع طرفة عين.

أخرج ناتان هو الآخر محفظته وسحب منها حزمة أوراق نقدية مثنية.

- ضبّي نقودك، هيا.

دفع الدولارين وشكرته ابنته بابتسامتها اللطيفة.

أخذت شطيرة الهوت دوغ ثمّ انطلقت كالسهم نحو تجمهرٍ صاخبٍ حيث تتصاعد أغاني الميلاد. كان يسود الجوّ بردٌ جافٌ ولكنه منعش، مع شمسٍ رائعة تلطّخ واجهات العمارات. سار ناتان في إثر ابنته. وسط ذلك الحشد والعديد من الأنشطة المحتدمة على الشارع، ظلّ حريصاً على ألا يبارحها ببصره، الأمر الذي جعله يتبيّن وجود بقعة صفراء من الخردل المتبّل وقد لطّخت دثارها. استمعا للحظة إلى الألحان الجميلة التي غنّتها من دون أن ترافقها آلات موسيقية *a cappella* فرقة للنيغرو سبيريتيالس[2]. دندنت بوني العديد من الأنغام معهم قبل أن ترحل نحو مجموعة أخرى. لم تقاوم طويلاً إغراء إعطاء الدولارين اللذين كانا في جيبها لعازف كمانٍ متنكّر في زي بابا نويل وكان يجمع الأموال لمصلحة جيش الخلاص. ثمّ

---

(1) هذا يكلّف دولارين.

(2) *Negro Spirituals*: نمط من الموسيقى طوّره الأميركيون السود. (المترجم)

سحبت ناتان نحو المدخل الجنوبي الشرقي لسنترال بارك تماماً قبالة غراند آرمي بلازا.

رغم البرد، بعد ظهيرة ذلك اليوم، غزا متسكّعون الفسحة الخضراء الشاسعة. وجاب متنزّهون كلّ ركنٍ من المكان، سيراً على الأقدام، على الدراجات، في عربات الخيل التقليدية، بل وعلى زلاجات!

مرّا أمام لافتة تعرض تبنّي بعض أغصان أشجار الحديقة.

- هل يمكنني تبنّي غصنٍ لعيد ميلادي؟ سألت بوني.

كان حازماً:

- كلاّ، هذه حماقة، لا يتبنّى المرء الأشجار.

لم تلحّ، ولكنها طلبت طلباً آخر:

- هل يمكننا الذهاب إلى تايمز سكوير بمناسبة رأس السنة.

- هذا ليس مكاناً مناسباً لفتاةٍ صغيرة. ثمّ هو ليس جميلاً جداً.

- من فضلك، قالت لي سارة إنّها سهرة رأس السنة الأهم في البلاد التي تُقام في الهواء الطلق.

- سوف نرى، يا عزيزتي. تغطّي جيداً بانتظار ذلك، لقد بدأ الجو يبرد.

أنزلت طاقيتها البيروڤية إلى حدّ عينيها. وعقد لها لفحتها حول عنقها وجعلها تتمخّط في منديلٍ ورقي. كانت طفلة رائعة وكان الاعتناء بها امتيازاً نفيساً جداً.

لم تكن بوني قد صُدِمَت بما عاشته مساء وقوع الحادثة. لم يكن أمراً سهلاً بالنسبة لها أن ترى والدها يُقتاد من قبل رجال الشرطة مثل مجرمٍ فظّ، ولكن، منذ اليوم التالي، كان جدّاها قد رويا لها كلّ الحقيقة. واليوم، لا تتحدث عن ذلك سوى للاطمئنان على الطفل الجريح.

حول هذه النقطة، كانت آخر الأخبار مطمئنة: في ذلك الصباح نفسه، اتّصل جيفري بناتان ليخبره بأنّ بن قد استفاق من الغيبوبة. بالنسبة للرجلين، امتزج الارتياح الشديد لمعرفة أنّ الطفل قد تجاوز مرحلة الخطر بارتياحٍ أكثر أنانية: ففي الوقت ذاته كان تهديد السجن المخيّم على ناتان يتلاشى.

كان وبوني قد أمضيا ثلاثة أيامٍ رائعة من العطلة لم يفعلا خلالها شيئاً سوى التسلية والترفيه. لم يحاول ناتان أن يمرّر لابنته رسالة خاصّة. لم يشأ أن يضيّع وقته في لعب دور الفيلسوف، وإنّما فقط أن يقاسمها لحظات جميلة يمكنها أن تتذكّرها في ما بعد. جعلها تكتشف الآثار المصرية القديمة وأشرعة بيكاسو في *MoMA* (متحف الفن الحديث). وعشية ذلك، زارا غوريلا الحديقة العملاقة للحيوانات في برونكس، وفي الصباح، سارا حتى حدائق *Fort Tryon Park* التي كان روكفلر قد بنى فيها حجراً حجراً بعض أديرة جنوب فرنسا.

نظر ناتان إلى ساعته. كان قد وعدها بالذهاب للقيام بجولةٍ في ملهى ألعاب الفروسية ولكن كان عليه أن يستعجل: فقد تأخّر الوقت والملهى الشهير يقفل عند الساعة الرابعة والنصف. ركضا نحو مضمار الخيول الخشبية. كان جوٌّ للاحتفال المتنقّل يسود الأمكنة. تلهّت بوني كثيراً.

- هل تركب بجانبي؟ سألت بوني لاهثة.

- كلا، يا صغيرتي، هذه اللعبة ليست للكبار.

- ولكن هناك الكثير من البالغين، قالت وهي تشير إلى الخيول الخشبية.

- هيّا، بسرعة، شجّعها.

- من فضلك، ألحّت عليه.

اليوم، لم يكن مستعداً ليرفض لها أيّ شيء. فأخذ مكانه إلى جانبها على صهوة أحد تلك الأحصنة المدهونة الرائعة.

- لقد انطلقنا! صرخت الطفلة حينما بدأ الحصان الخشبي يرتجّ بتعاقبٍ سريع وانطلقت الموسيقى المُطرِبة. بعد مضمار الخيول الخشبية، راحا يرميان بعض فتات الخبز للبطّات المحمحمة على المياه الهادئة للبِركة ووصلا إلى حلبة ولمان رينغ للتزلّج على الجليد.

في تلك الفترة من السنة، كان ذلك واحداً من أجمل الأمكنة في الهواء الطلق في مانهاتن. كانت حلبة التزلّج محاطة بالأشجار وتطلّ على ناطحة السحاب ميدتاون. خلف السياج، نظرت بوني بشوق إلى الأطفال الآخرين الذين يطلقون صيحات الفرح وهم يقومون ببعض الحركات بأقدامهم.

- أَتريدين أن تجرّبي؟

- أَيمكنني؟ سألت الطفلة غير مصدّقة أذنيها.

- فقط إذا كنتِ تشعرين بأنّك قادرة على ذلك.

قبل ستّة أشهر من الآن، كانت ربّما لتقول كلا، أخاف أو أنا صغيرة جدّاً، ولكن منذ فترة اكتسبت المزيد من الثقة بنفسها.

- أَتعتقد أنني سأجيد ذلك؟

- بالطبع، أجاب ناتان وهو ينظر في عينيها. أنتِ بطلة حقيقية في المزاليج ذات العجلات. ومزاليج التزلّج تعمل بالطريقة نفسها تماماً.

- إذاً، سأجرّب حظي.

دفع سبعة دولارات لقاء رسم الدخول واستئجار المزلاجين ثمّ ساعدها على احتذائهما والدخول إلى الحلبة.

كانت في البداية متردّدة، ولم تتوان عن السقوط لأوّل مرّة. ثمّ نهضت بسرعة، وهي مغتاظة، وبحثت عن ناتان ببصرها. كان واقفاً على حافة ميدان التزلّج وهو يشجّعها على المثابرة. حاولت من جديد، وقد اكتسبت بعض الثقة ونجحت في التزلّج لبضعة أمتار. وحينما أخذت تُسرع تصادمت مع صبيٍّ في عمرها. وبدلاً من أن تبكي، انفجرت ضاحكةً.

- افعلي هكذا! صرخ فيها ناتان من بعيد وهو يومئ بيديه إلى الوضعية التي ينبغي إعطاؤها للمزلاج للتوقّف.

رفعت إبهامها باتّجاهه. كانت في عمرٍ يتعلّم الإنسان فيه بسرعة.

وإذ اطمأنّ عليها، صعد نحو الكوخ الصغير الذي كان يبيع المشروبات وطلب فنجاناً من القهوة وعينه عليها. تورّد خداها من برد الشتاء القارس وأصبحت تتزلّج الآن بمزيدٍ من الثقة على إيقاعات روك أند رول.

نفخ في راحتي يديه ليتدفّأ. كانت مانهاتن تشبه، اليوم، محطة كبيرة للتزلّج. من بعيد، كانت حلبة التزلج الجليدية تشبه الفضة.

على منحدرٍ محيطٍ بحلبة التزلّج، كانت «بطاقة» محفورة في الثلج وقد حال لونها تعلن : I ♥ NY. كان ناتان يحبّ هذه الأجواء الشتوية حينما كانت المدينة بأكملها تبدو وكأنّها متجمدة في علبة جواهرٍ كريستالية. تنقّل على طول السياج لكي يستمتع بآخر خيوط شمس ما بعد تلك الظهيرة. كان متدلهاً بذلك حيث إنّ الأثر البسيط لتلقي الشمس على وجهه كان قد أصبح هامّاً بالنسبة له!

أثارت هذه الفكرة مباشرة فورة انفعال. عمّا قريب، ستحلّ النهاية. لن يعود بوسعه أبداً أن يشمّ الرائحة الذكية للقهوة وهي تدغدغ منخريه أو حرارة الشمس وهي تدفّئ بشرته. صعدت دموعٌ إلى عينيه

ولكنّه مسحها في الحال. لم تكن تلك لحظة الغرق في هذه الأفكار.

فبعد كلّ شيء، تُرِكَ له الوقت ليودّع ابنته وزوجته. كلّ الموتى لم يحظوا بهذه الفرصة.

سريعاً، أخذت الخيوط الذهبية للشمس تميل خلف خطّ ناطحة السحاب. سيحلّ الليل بعد لحظة. اشتعلت المصابيح كشموعٍ وسط مشهد الثلج ذاك، مقدّمة رؤية خلاّبة أخرى للحديقة.

في تلك اللحظة، كان لا يزال الوقت نهاراً ولكن طرفاً مائلاً للبياض من القمر كان قد ظهر من خلف الأبراج. وحينذاك شاهدها قادمة، من بعيد، وسط الضياء.

مالوري.

تجزّأ طيفها وسط الضياء المائل للون البرتقالي. وتلاعبت الريح بشعرها وأضفى البرد عليه ألواناً.

حينما لمحته، أخذت تركض نحوه وأسرعت، وهي لا تزال تلهث، مرتمية بين ذراعيه. بدا وكأنّهما من جديد في العشرين من عمرهما، عدا عن أنّهما، حينما استدارا، رأيا طفلةً تركت مزلاجيها وجرت نحوهما وهي تطلق صيحات الفرح.

قفزت بوني بين ذراعيهما وتعانق الثلاثة بشدّة. ولكونهم كانوا متعانقين، سألت الطفلة:

- أنلعب لعبة الزهرة؟

كانت تلك لعبة ابتدعوها حينما كانت بوني صغيرة جداً.

في البداية، كانوا يقتربون من بعضهم كثيراً، ثم يتعانقون ويقولون: «الزهرة المغلقة»، ثمّ ينفكون عن بعضهم وهم يصرخون: «الزهرة المتفتحة».

كانوا يعاودون هذه الحركة، لثلاث أو أربع مرّات. الزهرة المغلقة، الزهرة المتفتحة. الزهرة المغلقة، الزهرة المتفتحة...

لعبة بسيطة جدّاً، علامة على الالتقاء لتوحيد هذه العائلة التي سينقص شخصٌ منها إلى الأبد.

29

الحب هو ما نعانيه دائماً،
حتى حينما نعتقد أننا لا نعاني شيئاً.

كريستيان بوبان

بعد بضع ساعات
ليلة 24 كانون الأول
مبنى سان ريمو

متمدّدين كليهما وسط السرير، كانا ينظران إلى النجوم.

كانت السماء صافية جدّاً بحيث كان القمر ينير الغرفة بضوءٍ مائلٍ للزرقة. انزلقت شفتا مالوري على طول رقبة ناتان. وحّدتهما موجة شديدة من جديد وظلّ تنفّسهما يتسارع.

مرّرت إحدى يديها عبر شعر زوجها.

- أنت تعلم بأنّني أكثر شيخوخة منك، همست في تجويف أذنه.

- فقط ببضعة أيام، لاحظ مع ابتسامة.

- أعتقد أنّك خلقتَ لي، قالت مازحة.

وضع يده على صدرها.

- ماذا تقصدين؟

تابعت لعبتها:

- حينما كنتُ في المهد، أعتقد أنّ ذاتاً خيّرة انحنت على سريري وقررت أن تضمّ إليّ شخصاً لمواجهة مصاعب هذا العالم.

- وهكذا قُرِّرَت حياتي في العلا؟ قال ضاحكاً.

- بالضبط. ولذلك عليك أن تشكرني بحرارة، وشوشت وهي تقبّله. من دوني، لما رأيت النور بلا شك.

استجاب مطوّلاً لقبلاتها. ما عاد يريد التخلّص من رائحتها. كان رهيف الإحساس لكلّ شيء فيها، لأدنى ارتعاشٍ لبشرتها، لأدنى نَفَسٍ من أنفاسها. يمكن للمرء أن يربح في سحب اليانصيب، وأن يكسب قضية القرن، وأن يضيف سبعة أو ثمانية أصفار إلى حسابه المصرفي، ولكن لا شيء قط يحلّ محلّ هذه اللحظة. ضمّها بقوة أشدّ بين ذراعيه، وقبّل عنقها، وداعب وركيها، ثم التصق بظهرها، وكأنّها تمثّل صلته الأخيرة مع الحياة.

آنذاك، مرّ كل ما عاشه في تلك الأيام الأخيرة أمام ناظريه وأدرك أنّه لم يكن قطّ بهذا القدر من الحيوية إلا مذ فهم أنّه سيموت عمّا قريب. ثمّ، بعد ذلك مباشرةً، شعر من جديد بالموت المحوِّم من حوله.

هذا المساء، للمرّة الأولى، كان مستعداً لأن يتقبّل الأمر. طبعاً، لم يتلاشَ الخوف، ولكنه ترافق مع نوعٍ من نفاد الصبر. بات فضولياً حيال الموت كما يمكن أن يصبح المرء فضولياً حيال قارّة جديدة. قد يغادر نحو المجهول ولكنّه محاطٌ بالحب. في سلامٍ مع نفسه وفي سلامٍ مع الآخرين، كما قال غاريت.

كان جسده متّقداً، وكأنه محموم. أحسّ من جديد بذلك الألم في صدره والذي كان قد نسيه وثار ألم العضة التي في عرقوبه في الوقت نفسه تقريباً. كما بدا له أنّ كلّ عظام جسمه تغلي وتتفتّت.

شعر بأنّه شيئاً فشيئاً يُقصى عن عالم الأحياء، ويُسقَط في بعدٍ مجهول.

كان يشعر الآن بأنّه لا يحيا إلا ليستطيع أن يموت.

كانت الساعة الثانية فجراً حينما أغمض عينيه في تلك الليلة. وكان تفكيره الأخير في غودريش.

قريباً، لن يعود بالقرب مني.

لن أعود أراه. لن أعود أسمعه.

هو سوف يواصل إجراء العمليات للناس ويرافق أشخاصاً آخرين إلى الموت.

أمّا أنا، ككلّ الذين سبقوني، فسأكون قد حصلت على جواب للسؤال: هل هناك مكانٌ نذهبَ إليه جميعاً؟

على بعد حوالى مئة كيلومترٍ من هناك، نهض جيفري ويكسلر من سريره من دون إثارة ضجة. فتح باباً صغيراً يقع تحت درج الصالون، أنار المصباح المكشوف والمغبر المتدلّي من السقف ونزل بحذر السلالم المؤدية إلى الكهف.

من تحت أحد الرفوف الخشبية، سحب صندوقاً فيه ستّ زجاجات من الويسكي، كان قد جلبه له مسلِّمٌ للبضائع قبل بضعة أيام من ذلك: من ماركة شيڤاز المعتّقة لأربعة وعشرين عاماً، هدية عيد ميلادٍ من زبونٍ كان قد أنقذه من ورطة.

ما إن أوى إلى سريره، أدرك جيفري أنّه لن يستطيع الخلود إلى النوم ما دامت تلك الزجاجات تحت سقفه. نقل الصندوق إلى المطبخ وأخذ يُفرغ الزجاجات، زجاجة بعد الأخرى، في المجلى. استغرقت العملية بضع دقائق من وقته كان ينظر خلالها، حالماً، إلى الكحول

وهو يسيل مثل الماء المائل إلى البياض الذي ينزّ من المعكرونة عندما نصفّيها.

ومن ثمّ، فتح الصنبور بغزارة لئلا يستسلم للرغبة في لعق المجلى.

كيف أمكن لرجلٍ مثله أن يصل إلى هذه الحال؟ يتساءل كلّ يوم وهو يعلم بأنّه لن يجد الجواب أبداً.

بانتظار ذلك، كان قد أجاد، اليوم أيضاً، مقاومة الإغراء. بيد أنّ غداً ستكون هناك معركة جديدة. في اليوم التالي نفسه. كانت حربه تتطلّب تيقظاً في كلّ لحظة لأنّه حينما يكون في حالة الرغبة الملحّة في الشرب، يعلم بأنّه قادرٌ على ابتلاع أيّ شيءٍ كان: ماء الكولونيا، مزيل العرق، قارورة الكحول بدَرَجة 90 المعلّبة في الصيدلية. كان الخطر في كلّ مكان.

عاد وتمدّد في السرير بجانب زوجته لكنّه كان محبطاً جداً. تشنّجت قبضته تحت أذنه. ربّما كان عليه التقرّب من ليزا، والتواصل أكثر معها والحديث معها عن ذلك الضيق المعنوي الذي يغزوه بالكامل. هذه هي اللحظة المناسبة وإلاّ لن تأتي أبداً.

نعم، سوف يتكلّم معها من دون شكّ عن ذلك صباح اليوم التالي، فيما لو استطاع إيجاد الشجاعة على ذلك.

بعد انقضاء منتصف الليل

في مكانٍ ما من حارة شعبية في بروكلين

فتحت كوني بوكر الباب حريصةً على ألاّ تثير صخباً. انحنت فوق جوش ونظرت إليه بحنانٍ عميق. قبل عشرة أيامٍ من الآن، لم تكن هذه الحجرة سوى غرفة للأصدقاء، باردة وبلا حياة. في ذلك

المساء، كان طفلٌ ينام فيها وسط دفء سريرٍ صغيرٍ. كانت لا تزال مصابة بدهشة عميقة.

جرى كلّ شيء بسرعة كبيرة. كانت هناك أوّلاً تلك المأساة بموت ابنة أختها، كانديس، خلال ذلك الهجوم المسلح المريع على المصرف. ثمّ بعد ذلك بساعات، عرضت عليها مكالمة هاتفية من الخدمات الاجتماعية إيواء الطفل الرضيع. لم تأخذ كوني الكثير من الوقت لتوافق على ذلك. وإذ قاربت الخمسين من العمر، وبعد حالات إجهاضٍ عديدة، لم تعد تأمل في إنجاب طفل. وكانت قد بلغت من العمر بحيث لم تعد تنتظر الشيء الكثير من الحياة، وأصبحت تشعر في هذه السنوات الأخيرة بأنّها أكثر إنهاكاً وشيخوخة. ولكن منذ مجيء جوش، تلاشت بلادة حياتها. وكأنّ حياتها قد استعادت فجأةً كلّ معناها.

كانت واثقة بأنها ستكون أمّاً ناجحة. ولن يحتاج جوش إلى أيّ شيء. مع زوجها، كانا يعملان عملاً شاقّاً، وكان جاك، المفتخر كثيراً بدوره الجديد كأب، قد طلب ساعاتٍ إضافية من الثكنة.

إلا أنّ شيئاً ما كان يقلقها. ففي هذا الصباح، عثرت في صندوق بريدها، على طردٍ من ورق الكرافت فيه سيارة كهربائية وبعض الأوراق النقدية. وكان يحتوي أيضاً على رسالة موقعة ببساطة باسم «ناتان» توضّح أنّ هذا المال مخصصٌ لعيد ميلاد الطفل.

أعادا، هي وجاك، قراءة الرسالة عدّة مرّات، وتحيَّرا في أمرها. لا شكّ أنّه كان عيد ميلادٍ غريب. قبّلت كوني الطفل بهدوء وخرجت بصمت.

تساءلت مرة أخرى، وهي تغلق الباب، مَنْ يكون هذا الواهب الغامض.

عادت آبي كوبرز من سهرة ليلة رأس السنة. شعرت بصداعٍ شديد، وكان شيء واحد مؤكّداً: لم تكن تلك الليلة هي التي ستلقى فيها الحبّ العظيم. كان الحارس قد وضع طرداً أمام بابها. ففتحته بفضول. كانت زجاجة من النبيذ الفرنسي، مرفقة بكلمة يتمنى ناتان فيها ميلاداً سعيداً ويشكرها على كلّ ما فعلته من أجله. نزعت آبي حذاءها بخفّة ثم أدرجت في جهاز التسجيل أسطوانتها المفضلة - أغاني ثلاثي الجاز لبراد ميلدو- قبل أن تخفّف الأنوار. جلست في الأريكة ومدّدت ساقيها.

أعادت قراءة بطاقة التمنيات مرّة ثانية. كان هناك شيءٌ غريب في تلك الكلمة، وكأنّها رسالة وداع، وكأنّهما لن يلتقيا مرة أخرى أبداً.

كلاّ، كان ذلك ضرباً من الحماقة، كانت تختلق أفكاراً. كما تساءلت أين يمكنه أن يكون ناتان في تلك اللحظة بالضبط. أعطاها حدسٌ الجوابَ: بلا شكّ مع زوجته السابقة.

يا للخسارة.

أيسعه، هو، أن يكون حبها العظيم.

خرج غاريت غودريش من مركز ستايتن آيسلاند للعناية المسكّنة.

- هيا، يا كوجو، اصعد يا كلبي! قال وهو يفتح البوابة الخلفية لسيارته.

فامتثل الكلب الضخم وقفز إلى السيارة.

جلس غاريت في المقعد الأمامي، أدار مفتاح التشغيل وشغّل الراديو القديم، ثم تنقّل بين المحطات، فكشّر لدى سماعه بريتني سبيرز وقطّب حاجبيه حين وقع على لازمة للمغني ايمينم، ثمّ وجد

سعادته أخيراً بفضل محطة للموسيقى الكلاسيكية كانت تبثّ عرضاً لنابوكو لڤيردي.

ممتاز، قال وهو يهزّ برأسه.

سلك ببطء الطريق نحو بيته، في حين كانت جوقة العبيد العبرانيين تنشد Va, pensiero, sull'ali dorate. عند أول إشارة حمراء، ألقى نظرة على الكلب في المقعد الخلفي ثمّ تثاءب تثاؤباً طويلاً. منذ كم من الوقت لم ينم حقّاً؟ بذل جهداً ولكنه لم يستطع التذكّر.

بالتأكيد منذ وقتٍ طويل.

في غرفتها، لم تستطع بوني ديل آميكو أن تغمض عينيها.

كانت في غاية السعادة بأن أحبّ والداها بعضهما من جديد. ذلك ما تمنّته على الدوام. منذ عامين، لم تمضِ ليلة إلا وطلبت ذلك في صلواتها. بيد أنّ قلقها لم يتلاش تماماً، وكأنّ خطراً غامضاً لا يزال يخيّم على عائلتها.

نهضت بقفزة واحدة، التقطت قبّعتها البيروفية الملقاة على كرسيّ وغطّت بها عينيها لتنام أخيراً.

الساعة الثالثة صباحاً، في مقبرة في كوينز

كانت لا تزال طبقة سميكة من الثلج المتجمد تغطي شاهدة قبر اليانور ديل آميكو. هذا الصباح، جلب ابنها زهوراً؛ باقة من بضع ورودٍ في مزهرية من القصدير. لو كانت المزهرية شفافة، لاستطعنا، عبرها، رؤية شيءٍ ما يضمّ سيقان الزهور.

كان ذلك سواراً بأربع طبقات من اللؤلؤ، مع قفلٍ من الفضّة ترصّعها ألماسات صغيرة.

كان لا يزال الظلام مخيماً على المدينة الصغيرة الملغزة، ماساشوسيتس.

بالقرب من الشاطئ، في منزلٍ خالٍ، كانت هناك غرفة فيها رفوف معدنية. وفي علبة كرتونية، وضِع ألبوم صور كان أحدٌ ما قد فتحه حديثاً. ألبوم يضمّ كلّ أنواع الأشياء: نصوص، رسومات، أزهار مجففة، صور... كانت في إحدى الصور امرأة تجري على شاطئ.

وفي أسفلها، كتبت بقلم حبر:

«أجري بسرعة كبيرة بحيث لن يلحق بي الموت أبداً.»

كانت تُدعى ايميلي غودريش وكانت مع ذلك تعرف جيداً أنّ الموت سينتهي بالتغلب عليها.

لم تكن مؤمنة.

ولكن ربّما كان هناك أمرٌ آخر.

لغزٌ.

مكانٌ نذهب إليه جميعاً.

فتحت مالوري عينيها.

سمعت وسط الليل تنفسّ زوجها النائم إلى جانبها.

للمرّة الأولى منذ زمنٍ طويل، شعرت بالثقة بالمستقبل وحلمت بإمكانية إنجاب طفلٍ آخر. ملأها ذلك الاحتمال بفرحٍ غامر دفعة واحدة.

في اللحظة التي نامت فيها ثانية، يعلم الله لماذا، تذكّرت أنّها، بسبب تلك الرحلة إلى البرازيل، لم تمرّ لتأخذ نتائج التحاليل التي كان طبيبها قد طلب منها إجراءها في الأسبوع الماضي.

لا يهم، ستنتظر بضعة أيام أخرى، في كلّ الأحوال، كان الدكتور أولبرايت يقلق دائماً لأيّ شيء.

طلع النهار على جزيرة نانتوكيت.

في تلك الساعة، لم يكن هناك أيّ شخص بالقرب من بحيرة سانكاتي هيد، خلف المستنقعات التي تغمر نباتات قماع المناقع[1].

في المنطقة، كانت مياه البحيرات والمستنقعات قد تجمّدت منذ عدّة أيام. مع ذلك، كان إوزٌّ أبيض اللون يسبح على طول سطحٍ رفيع حيث كان الجليد قد بدأ بالذوبان. كيف استطاع هذا الإوزّ أن يتوه هنا في عزّ الشتاء؟ لن يعرف أحدٌ ذلك أبداً.

كما لن يراه أحدٌ أبداً، لأنّ الطائر لم يتوان عن الانطلاق محوّماً بخفقة صاخبة من جناحيه.

ليرحل إلى مكانٍ آخر.

---

(1) نبات يكثر في المناقع والمواقع الرطبة، ثماره العنبية سكرية الطعم مأكولة. (المترجم)

30

لا تقل أبداً عن أيّ شيء: لقد فقدته بل:
لقد أعدته. مات طفلك؟ لقد أُعيد.
ماتت زوجتك؟ لقد أُعيدَت.

ايبيكتيت

25 كانون الأول

في البداية لم يشعر إلاّ بموجة من الحرارة على وجهه لم تحثّه على فتح عينيه في الحال. وقد خاف خوفاً شديداً مما قد يكتشفه.

ثمّ سمع موسيقى من بعيد. كان يعرف ذلك اللحن. ما هذا اللحن؟ ربّما لموزارت. نعم، إنّها سيمفونيته المفضلة، كونشيرتو للبيانو رقم 20.

أخيراً، بدا له أنّ رائحة فطائرٍ تفوح في الهواء. حينذاك فقط، قرر ناتان أن يفتح عينيه: فلا شكّ أنّ المرء لا يتذوق فطائر في العالم الآخر.

في الواقع، كان لا يزال في بيته، مرتدياً السروال الداخلي والتيشيرت، في الغرفة التي نام فيها ليلاً. استطاع بصعوبة أن يصدّق ذلك ولكنه كان لا يزال على قيد الحياة. انتصب ليجلس في السرير. لا أحد إلى جانبه. أدار رأسه نحو النافذة: كان الجوّ جميلاً في يوم الميلاد ذاك. وكانت شمسٌ طاغية تلقي بنورها الساطع في كلّ الغرفة.

دفعت بوني باب الغرفة ومرّرت رأسها من فرجته.

- Qué tal?[1]

سألت حينما رأت أن والدها قد استيقظ.

- مرحباً، أيّها السنجاب الصغير، كلّ شيءٍ على ما يرام.

- ممتاز! صرخت مستعدّة للقفز إلى السرير.

التقطها في الهواء وضمّها إليه.

- أين ماما؟

- تعدّ الفطائر. سنتناول نحن الثلاثة الفطور في السرير!

لإظهار حماستها، استخدمت بوني سرير والديها كوثّابة وهي تكثر من القفزات والارتدادات والشقلبات.

أصاخ ناتان السمع. كانت علامات موسيقية كلاسيكية تتصاعد من الطابق الأرضي ممزوجة بضجيج طناجر وأدوات المطبخ. لطالما أحبّت مالوري أن تعمل وهي تستمع إلى الراديو.

وقف، أمام المرآة المنصوبة في الغرفة، وهو ينظر إلى نفسه بانتباه، دعك لحيته الناشئة بقفا يده وكأنّه لم يصدّق عينيه. لا شكّ، إنّه هو، بلحمه وعظمه. عشية ذلك اليوم، اعتقد بأنّه سيموت خلال الليل. ولكنه، الآن، لم يعد يشعر بأيّ شيء، لا حمّى ولا ألم، وكأنّ الخطر الذي كان يتهدّده قد تلاشى.

كيف يمكن شرح ذلك؟ ومع ذلك لم يكن قد اختلق كلّ شيء.

دوّى صوت مالوري من المطبخ:

- هل من أحدٍ يأتي لمساعدتي؟

- أنا قادمة! صرخت بوني وهي تنزل إليها.

---

(1) كيف حالك؟

ابنته، زوجته وهو، لقد اجتمعوا أخيراً من دون أن يخيّم تهديدٌ عليهم. كاد ذلك يكون في غاية الجمال. في غاية السعادة بضربة واحدة.

مع ذلك، شعر على نحوٍ غامضٍ أنّ شيئاً ما لا يسير على ما يُرام.

كان عليه أن يتحدّث إلى زوجته. عرض عليها مساعدته:

- أتحتاجين إلى مساعدتي، يا عزيزتي؟

- كلّ شيء جاهز، يا حبيبي، سوف نصعد، أجابته مالوري.

وقف أمام الكوّة المزجّجة ليرى سنترال بارك التي كانت تستيقظ. كان صخب الصباح الذي لطالما خفّف الرؤية قليلاً قد تلاشى تماماً.

صعدت بوني السلالم مع صينية عليها طبقٌ مليءٌ بالفطائر المحلاّة.

وضعتها على السرير، غمست أحد أصابعها في إناء قطر القيقب ووضعته في فمها وهي تغمز له غمزتها الشهيرة.

- ما أطيبها، قالت وهي تدعك بطنها.

من ورائه، سمع وقع الخطوات. استدار ليلاحظ وصول مالوري.

في البداية، لم يلاحظ أيّ شيء خاصّ. كانت تقف، متألّقة، وسط الضياء، أمام زجاج النافذة، محمّلة بصينية كبيرة للفطور تحتوي على قهوة وفاكهة وفطائر البيغل.

ولكن حينما تقدّمت في الغرفة لتلتفّ حول السرير، ارتعش ناتان وشعر فجأة أن الأرض تنهار من تحته: ظلّت هالة من الضياء الأبيض معلّقة بشعر مالوري.

31

ليس الموت هو الرديء.
وإنّما المهمّة غير المنجزة.

حوار مع الملاك

سار ناتان، مقلقلاً ونهب الأفكار الأكثر جنوناً، بأقصى سرعة نحو سوهو.

يجب أن يعرف ما الأمر، ووحده غاريت يملك الأجوبة.

ألقى نظرة على ساعة لوحة القيادة. في هذه الساعة، وفي يوم عطلة، من المحتمل أن يكون الطبيب في البيت.

وصل كصاروخٍ إلى هيوستن ستريت، ترك السيارة الرباعية الدفع وسط الطريق وهرعَ نحو مسكن غودريش. بعد نظرة سريعة على بطاقات علب البريد، صعد ثلاثاً ثلاثاً الدرجات المؤدية إلى الطابق الأخير.

حينما وصل أمام مدخل الطبيب، نادى بصخب.

لا أحد.

لشدّة غيظه، وجّه ضربة عنيفة من قبضة يده إلى الباب الذي أخذ يرتجّ. خرجت جارة مسنّة، منحنية الظهر، وقد استنفرها الضجيج، إلى الدرج.

- أهذا أنت من يثير كلّ هذه الجلبة؟ سألت بصوتٍ خافتٍ.

- الدكتور غير موجود؟

نظرت إلى ساعة يدها.

- في هذه الساعة، لا بدّ أنّه ينزّه كلبه.

- أتعرفين أين؟ سألها المحامي جاهداً ليهدأ.

- لا أدري، أجابت العجوز الخائفة، يذهب أحياناً نحو...

تاهت نهاية جوابها على السلالم:

- ... باتيري بارك.

عاد ناتان إلى سيارته الرباعية الدفع. ضغط بقدمه على مِدْوس التسريع واتّجه نحو داونتاون. عبثاً حاول، كان السير بطيئاً، كان يجد أنّه لا يتقدّم بما فيه الكفاية من السرعة. تجاوز بتهوّرٍ إشارة حمراء لدى العودة إلى برودواي. كان القلق يتآكله، ولم يعد يرى حقّاً الطريق أمامه.

لم يكن يرى سوى صورة بوني المتقاذفة فرحاً على السرير ووجه مالوري المحاط بالضياء. في الحال، كان قد اقترب منها إلى حدّ ملامستها، ومرّر يده عبر شعرها وكأنه ليزيل تلك الهالة اللعينة. ولكنّ الضياء لم يختفِ.

وكان هو الوحيد الذي يراه.

واصل سيره الجنوني. عند تريبيكا، خفّض سرعة السيارة ليسلك ما اعتقده أنّه طريق مختصر ويفضي إلى شارعٍ أحاديّ الاتجاه. سار في اتّجاهٍ معاكس لعشرات الأمتار، متجاوزاً لعدّة مرات الرصيف ومسترعياً النظر بمزامير التنبيه القوية. نجح في العودة على أعقابه وحاول أن يبطئ من سرعته: في وضعه، لم يكن بوسعه أن يسمح لنفسه بتجميع كلّ سيارات شرطة المدينة في أعقابه.

ترك ناتان أخيراً سيارته عند فيلتون ستريت، من دون أن يفكّر حتى في قفل أبوابها. واصل طريقه سيراً على الأقدام وبعد بضع دقائق

من ذلك، وصل إلى أطراف الحدّ الجنوبي من مانهاتن. عبر الممرات المشجرة لباتيري بارك ليبلغ المتنزّه المحاذي لهيودسن. حلّق سربٌ من النوارس لدى وصوله. الآن، لم يكن بوسعه النزول أكثر. انفتح أمامه خليج نيويورك الذي كانت تضربه رياح عرض البحر. ركض على طول الجرف المحاذي للنهر. كان هناك القليل من الناس: فقد جاء بعض العدّائين المنعزلين لإزالة آثار الإفراط في الطعام والشراب خلال سهرة الميلاد، في حين استغلّ رجل عجوز غياب المراكب ليلقي قصبات الصيد على طول الأرصفة. تائهاً وسط سحابة صغيرة من الغيم رغم الشمس، كان يُرى شبح تمثال الحرية الذي يمدّ شعلته نحو ستايتن آيسلاند.

أخيراً، لمح غاريت.

كان، شابكاً اليدين خلف ظهره، ينزّه بهدوء كلبه، كوجو الرهيب، الذي كان يعدو أمامه ببضعة أمتار.

بينما كان لا يزال بعيداً عن الطبيب، ناداه ناتان:

- ما معنى هذا؟ صرخ.

التفت غاريت. لم يبدُ أنّه فوجِئ برؤيته، وكأنّه قد عرف على الدوام أنّ هذه الحكاية ستنتهي هنا وبهذه الطريقة.

- أعتقد أنّك تعرف ذلك جيّداً، يا ناتان.

- ليس هذا ما قلته لي، احتجّ لدى وصوله إلى جانبه، لقد زعمتَ أنني أنا مَنْ سأموت!

هزّ غاريت رأسه.

- لم أؤكّد هذا أبداً. أنتَ منْ اعتقدتَ ذلك.

- بلى، لقد قلتَ ذلك! فأنا لا أحلم. تذكّرَ أنّه قد طرح عليه السؤال: هل أنتَ هنا من أجلي؟

بيد أنّه، لدى التفكير في ذلك، أدرك ناتان أنّ غاريت كان محقّاً: لم يكن أبداً قد أكّد له أنّه سيموت. في المرّة الوحيدة التي قبِل أن يعطي ما يشبه الجواب، خلال نقاشهما في كافيتريا المستشفى، أوضح: ليس هذا ما قلته حقّاً. ولكن ناتان آثر ألا يأخذ هذه الملاحظة بالحسبان.

كانت كلمات أخرى لغودريش تدوي الآن في رأسه.

هناك أشخاصٌ يهيّئون مَنْ سيموتون للقيام بالقفزة الكبيرة في العالم الآخر.

دورهم هو تسهيل الفراق الهادئ بين الأحياء والأموات.

هذا نوعٌ من الأخوية.

العالم مسكونٌ بالمبشرين ولكن القليل من الناس يعلمون بوجودهم.

لستُ نصف إله. لستُ إلاّ إنساناً، مثلك تماماً.

هذه الجملة الأخيرة.

مثلك تماماً...

ارتعد ناتان. كانت لديه كلّ العناصر أمام عينيه ولم يرتَبْ في أيّ شيء.

حدّق مباشرةً في عيني غاريت.

- لم تكن هنا قط لتخبرني بموتي.

- في الحقيقة، اعترف الطبيب بلهجة مستسلمة، ليس هذا ما اتّصلت بك من أجله.

- أردت أن تخبرني بأنني ساصبح مبشّراً، أليس كذلك؟

أقرّ غودريش بذلك بإشارة من رأسه.

- نعم، كان عليّ أن أكشف لك عن هذا الوجه المخفيّ من

الحقيقة. كان دوري أن أدرّبك على هذه المهنة، وأن أتأكّد أنّك قد أصبحت قادراً على شغْل الدور الآيل إليك.

- ولكن لماذا أنا؟

باعد غاريت بين ذراعيه في إشارة إلى القدر.

- لا تحاول فهم ما لا يمكن تفسيره.

كانت الريح قد هبّت. وحان الوقت بالنسبة لناتان لكي يحصل على التأكيد الذي جاء من أجله.

- مالوري ستموت، أليس كذلك؟

وضع غاريت يده على كتفه وقال بلهجة في غاية الرقّة:

- نعم، يا غاريت، أخشى ذلك.

دفع المحامي الشابّ بعنف اليد الرحيمة للطبيب.

- ولكن لماذا؟ صرخ يائساً.

تنهّد غاريت بعمق قبل أن يقرّ:

- المهمّة الأولى التي تنتظر المبشّر الجديد تكون صعبة لأنّها تشتمل على أن يصاحب موت الشخص الأقرب إليه.

- هذا بشع، صرخ وهو يتقدّم بهيئة متوعّدة.

كان بعض المتنزّهين الفضوليين قد توقّفوا لحضور المشهد.

- اهدأ، لستُ أنا من يضع القوانين، أجاب غودريش بأسى. لقد عانيتُ بنفسي من هذا، يا ناتان.

مرّ ظلّ ايميلي آنذاك في نظرته، مهدّئاً غيظ ناتان.

- لماذا؟ سأل وهو يشعر أن لا حول ولا قوة له. لماذا يجب حضور موت المرأة التي نحبّ لكي نصل إلى تلك الحالة؟

- هذا هو الحال من الأزل. هذا هو الثمن الذي ينبغي للمرء أن يدفعه ليصبح مبشّراً.

ثار المحامي:

- ولكن أيّ ثمن؟ أنا لم أختر أن أصبح مبشّراً!

كان غاريت يتوقّع تلك الحجة.

- هذا ليس صحيحاً، يا ناتان، أنتَ من قرّرت أن تعود.

- أنت تقول أيّ كلام!

نظر غودريش إلى ناتان بتعبيرٍ مطبوعٍ بالإنسانية. بدا له أنّهما يلتقيان قبل خمسة وعشرين عاماً خلت، حينما كان طبيباً شابّاً وقد تعرض لهذه المحنة نفسها. لا بدّ أنّه أراد أن يؤازره بقدر معرفته أن تلك الرؤى كانت من الصّعب القبول بها.

- تذكّر تجربتك في الموت الوشيك.

- حينما كنتُ في غيبوبة، بعد حادثتي؟

- نعم، ما هي الصورة التي قرّرت أن تعيشها؟

- ...

شعر ناتان بما يشبه صدمة كهربائية تسري في جسده قبل أن يُرمى ذهنياً في نفقٍ من الضياء.

- ماذا رأيت؟ سأل غاريت من جديد. ما الذي دفعك للعودة إلى عالم الأحياء؟

أخفض ناتان رأسه.

- رأيتُ وجهاً، أقرّ، وجهاً بدا أنّه ليس بعمر...

نعم، تذكّر الآن كلّ شيء. عاد بنفسه إلى طفولته، حينما كان في الثامنة من عمره، خلال تلك اللحظة الشهيرة التي لا يزال يكبتها في داخله. تذكّر جيّداً ذلك الضياء الأبيض اللطيف جدّاً الذي جذبه نهائياً نحو الموت. ثمّ، فجأةً، في اللحظة الأخيرة، بينما اعتقد أنّه قد

انتقل إلى العالم الآخر، شعر بأنّ الخيار يُترَك له في أن يرحل أو يعود.

ولمساعدته على اتّخاذ قراره، أرسِلَت له أيضاً رؤية: صورة مشوشة، كومضة قصيرة للمستقبل.

كان وجهاً. وجه المرأة التي ستصبح، بعد ذلك بسنوات، زوجته. جسدياً، كانت مختلفة ولكنّه في قرارة نفسه عرف على الدوام أنّها هي. كانت تناديه، متألّمةً، وحيدةً. ولأجل هذا عاد: ليكون إلى جانب زوجته حينما سيأتي الموت في طلبها.

للمرّة الثالثة، أعاد غاريت الكرّة:

- ماذا رأيت، يا ناتان؟

- كانت مالوري... كانت خائفة. كانت بحاجة إليّ.

مسحت هبّات رياحٍ خفيفة مياه هيودسن. وكانت السحابة قد تبدّدت تماماً الآن وباتَ من الممكن رؤية الخليج الصغير بكامل طوله، بدءاً من شواطئ بروكلين وصولاً إلى شواطئ نيو جرسي.

سار ناتان ديل آميكو سيراً على القدمين نحو شمال مانهاتن. كان يعلم أنّ الأيام المقبلة ستكون قاسية جداً.

في ذهنه، تدافع كلّ شيء وتداخل.

ماذا سيقول لمالوري حينما يجد نفسه أمامها؟ هل سيكون قادراً على ألاّ ينهار؟ هل سيُحسن أن يكون على مستوى القدرة الساحقة التي سيمتلكها من الآن فصاعداً؟

كان شيئاً واحداً مؤكّداً: سوف يحيطها بكلّ ما أوتي من حبّ، حبّ عميق لا يتبدّل ولم يتوقّف قطّ وسوف يستمرّ إلى ما بعد كلّ شيء.

أمّا بالنسبة لما تبقّى، فهو لم يمتلك بعد القوة على تخيّل ما قد يحدث في ما بعد، حينما لن تعود مالوري بجانبه، وحينما يكون عليه مساعدة الآخرين على القيام بالقفزة الكبيرة.

في هذه اللحظة، لم يكن بوسعه التفكير إلاّ فيها.

سيكون بوصلتها، دليل لحظاتها الأخيرة.

المبشّر الذي سيمسك بيدها ليرافقها حتى عتبة ذلك المكان.

ذلك المكان المجهول والمرعب.

هناك حيث سنذهب جميعاً.

عند مستوى كنيسة ترينيتي، أسرع الخطى: كانت المرأة التي يحبّها تنتظره في البيت.

وكانت بحاجة إليه.

كلمات شكر

كلمة شكر لڤالانتان موسو لأفكاره العديدة ونصائحه المناسبة دائماً.

شكراً لڤالين، وبعد... ما كانت لتوجد بهذا الشكل من دونك.

كلمة شكر لوالديّ ولأخي جوليان لتشجيعهم وانتقاداتهم التي كانت غالباً مبرّرة.

كلمة شكر لبرنار فيكسو ولكارولين ليبيه.
العمل معكما امتياز.

غيوم ميسّو

... وبعد

هذه الرواية خطيرة. حين تبدأ بقراءتها لن يكون بإمكانك تركها قبل أن تنهي صفحتها الأخيرة.

Bernard Lehut – RTL

كان عمره 8 سنوات عندما غطس ناتان في بحيرة متجلّدة لمساعدة صديقته، البنت الصغيرة. وصل إلى شفير الموت وتوقف قلبه. لكن بعكس كل التوقعات عاد إلى الحياة.

بعد 20 سنة أصبح ناتان واحداً من المحامين اللامعين. ونسي كل ما يتعلّق بتلك الحادثة. والبنت التي أنقذها من الموت صارت زوجته التي أحبّها بشغف، ورغم أنها تركته، لا يزال يشتاق إليها كثيراً.

لم يكن ناتان يعرف أن الذين يعودون من الجانب الآخر للحياة لا يبقون كما كانوا. وها هو اليوم، وهو يعيش حياة النجاح والشهرة والمال.. جاء الوقت لكي يعرف لماذا عاد!

* * *

كل رواية لغيوم ميسّو حَدَث، ينتظره ملايين القراء في كل أنحاء العالم. وهذه أوّل مرة تترجم رواية له إلى العربية.

هذه الرواية "وبعد" التي ترجمت إلى أكثر من 20 لغة وتحولت إلى فيلم، تعتبر من أجمل ما كتب ميسّو. إنها رواية عن الحب والعلاقات الانسانية، والخوف من الموت، والحيرة أمام ما لا نستطيع تفسيره.

في سياق من الكتابة السلسة والتصاعد الدرامي تنقلنا الرواية إلى الإحساس بأن مفاجآت الحياة أكثر بكثير مما يمكن أن نتوقعه.

لوحة الغلاف: سالفادور دالي


ISBN 978-9953-68-488-X
9 789953 684888



